بحثا عن الحقيقة في صفحات مهجورة

تاريخ شَكل تاني



الرواق للنشر والتوزيع

وليد فكري

تقديم د. أحمد خالد توفيق


تاريخ
شكل تاني

تاريخ شكل تاني

وليد فكري

مقالات تم نشرها بموقع بص وطل

■ الطبعة الثانية......... اكتوبر 2013

الغلاف: أحمد مراد

رقم الإيداع: 23355/ 2012

الترقيم الدولي: 3 - 33 - 5153 - 977 - 978



3 شارع إدريس - أول شارع الوحدة - إمبابة - الجيزة
هاتف وفاكس: 33100951 (202)
محمول: 01147379183
rewaq2011@gmail.com
facebook.com/Rewaq.Publishing

بحثاً عن الحقيقة في صفحات مهجورة

تاريخ شَكل تاني

وليد فِكري

تقديم د. أحمد خالد توفيق

الرواق للنشر والتوزيع



المحتويات

فن التاريخ

تعاملنا جميعًا مع التاريخ بصورته الفجة في المدرسة، فقرأنا تاريخ مصر والعالم العَرَبِيّ والعالم بتلك الطريقة الجافة التقريرية المملة، على غرار:

أهداف الحملة الفرنسية على مصر: ١   ٢   ٣..........

نتائج الحملة الفرنسية على مصر: ١   ٢   ٣..........

والويل كل الويل لمن ينسى رقمًا واحدًا من هذه الأرقام، أو ينسى تاريخًا واحدًا.. بالطبع يعرف الجميع أن هذا علم لا ينفع على الأرجح، وأن الزمن الافتراضي للمعلومة ينتهي لدى سكبها على ورقة الإجابة، فمن شبه المستحيل أن يبقى المرء متذكرًا تاريخ ميلاد بونابرت، لكن بعض الرواسب المهمة تبقى بلا شك لأنها أهم من أن تذوب نهائيًا، مثل تاريخ الحملة الفرنسية نفسها.

النقطة الثانية المهمة هي الانتقائية العالية في السرد. أنت لا تعرف كل شيء ولا ترى كل جوانب الصورة، ومن يقدم لك المعلومة لا يرى لك الحق في أن تعرف كل شيء، فأنت غير مؤهل وغير ناضج. إن الرقابة هواية عَرَبِيَّة قديمة حتى لو لم يبدُ لها هدف واضح. هكذا تتلقى مسلّماتك الكثير من الصفعات وتتزلزل كثيرًا عندما تفتش أكثر.

لم يكُن لمحمد نجيب وجود في كتب الدراسة كلها، وفجأة ظهر في السبعينيات وعرفنا أنه مهم جدًّا. كان كل قادة الثورة ملائكة ذوي رؤى عليا لهذا الوطن، وفجأة عرفنا أنهم ليسوا جميعًا كذلك، أو هم على الأقل بشر مثلنا. في المدرسة تعلمنا أن مُعَاوِيَة بْن أَبِي سُفْيَان تلاعب بالتحكيم وأن الإمام علي ظُلم ظلمًا بيِّنًا، وأن يزيد بن مُعَاوِيَة كان سفَّاحًا وارتكب الكثير من المذابح. اليوم صار من المستحيل أن تقول هذا وإلا اتُّهمت في عقيدتك ذاتها، وعرفنا أن ما قُدم لنا في المدرسة كان انتقائيًّا، واليوم يقدمون لنا تاريخًا انتقائيًّا آخر يعيد الاعتبار للأمويين. سليمان الحلبي قتل كليبر.. لكنه لم يدرك أنه قتل أشد المتحمسين لخروج الفرنسيين من مصر بعد فرار بونابرت المنفرد المهين لفرنسا، وهكذا جاء مينو المتعصب الذي يحلم بالبقاء في مصر إلى الأبد! (كريستوفر هيرولد).

أين الحقيقة؟ لماذا لا يقدمها لنا مؤرخ أمين دقيق بلا انحياز آيديولوجي، ولا يريد سوى الحقيقة؟

أول كتاب تاريخ محترم وقع في يدي كان "بونابرت في مصر" للمؤرخ كريستوفر هيرولد، ترجمة فؤاد أندراوس، ١٩٦٢ هذا أول كتاب تاريخ يبقيني ساهرًا ليلتين وأنا أعدّ الصفحات الباقية خوفًا من أن تحدث الكارثة وينتهي، وبدت لي الحياة قاسية جدًّا بعد انتهاء هذا الكتاب. كمية مذهلة من الحقائق والآراء، وإمتاع لا حدود له يقترب من الأعمال الأدبية، مع روح سخرية لا شك فيها. تعلمت من هذا الكتاب أن التاريخ قد يكون فنًّا.. بل هو كذلك.. المهم من يكتبه.

بعد هذا وقعت في يدي مجموعة وول ديورانت الرهيبة "قصة الحَضَارَة"، مع سياسته الصارمة القاضية بأن لا يضيع وقته في وصف الحروب والغزوات، بل وصف ما قدمته كل حَضَارَة لمسيرة البشرية من تعليم وفن وصناعة وعلوم.. لا أحد يذكر غزوات البابا لكن كل الناس يعرفون قصة مايكل أنجلو مع سقف الكَنِيسَة. هذا هو ما يبقى. وكان الرجل موفقًا وحياديًّا جدًّا.

في ما بعد قرأت كتابات الأستاذ جمال بدوي شديدة الإمتاع؛ لقد غاص الرجل في تاريخنا وهضمه وحوله إلى حواديت شديدة الإمتاع لكنها لا تُنسى، وعلى الجانب الأكاديمي كان كل كتاب أو مقال للراحل العظيم يونان لبيب رزق عيدًا ثقافيًّا.

من ضمن الكتب التي تندرج ضمن قائمة "فن التاريخ" كتاب رشيق فائق الإمتاع كتبه صيدلي شاب هو حامد محمد حامد، وهو تجميع مقالات نشرت في موقع "بص

وطل" من قبل. الكتاب اسمه "حدوتة مصْرِيّة"، وهو تقريبًا يكدح في ذات الكرمة التي كدح فيها كريستوفر هيرولد، وإن كشف اهتمامه بالمصْرِيّين والمماليك في ذات الحقبة. كتاب محترم رغم أن مؤلفه مؤرخ هاوٍ لا يملك أدوات البحث التاريخي بعد، لكن كم شهادة دكتوراه في الفيزياء نالها أديسون أو ماركوني؟ باستير لم يكن طبيبًا وسيد درويش لم يتخرج في معهد الموسيقى. لذا فقد وضعت الكتاب في مكان متميز من مكتبتي.

تابعت بحماسة مماثلة مقالات الشاب الجادّ وليد فكري في موقع "بص وطل"، التي كانت تحمل اسم "تاريخ شكل تاني" هناك محاولة للوصول إلى منهج في عرض التاريخ يجمع بين الفن والدقة، وهناك الكثير من الجهد والعرق والتفتيش في المراجع وأمهات الكتب. وليد صديق عزيز قديم، لكن هذا لا يقلل من مصداقية كلامي، ويكفي أن أقول إنني أحتفظ بمعظم هذه المقالات على جهاز الكمبيوتر الخاص بي، لأرجع إليها من وقت إلى آخر، لأنني بالفعل لا أملك الصبر ولا الطاقة اللذين يسمحان لي بعمل هذا الجهد بنفسي.

لنفس السبب ظللت أنتظر الكتاب الذي يجمع هذه المقالات طويلاً، والسبب طبعًا هو أنني ابن الكتاب ولا أستريح إلا معه. الكتاب الذي تثني صفحاته وتضع فيه خطوطًا وتسكب عليه كوب الشاي وتشم رائحة أوراقه. القراءة على الإنترنت مناسبة لموضوعات كثيرة، لكن هذا النوع من الكتب بالذات يجب أن يُطبع.

أتمنى التوفيق لهذا الكتاب، وإن كنت أعتبره هدية لي أنا وحدي، لأنني أول من انتظره طويلاً. وليد ما زال صغير السن رغم صلعته المهيبة وصوته العميق، وهذا يعد بأنه ما زال في البداية وسوف يطور أدواته بلا توقف في الأعوام القادمة. فقط علينا أن نفرك أيدينا في شغف وننتظر.

د. أحمد خالد توفيق



عن هذا الكتاب

هذا الكتاب -بكل صراحة- ليس موجَّهًا في الأساس إلى قارئ التاريخ المحترف، ولا للباحث الأكاديمي المحنك، بل هو موجه في المقام الأول للشاب الذي يخطو أولى خطواته متحسسًا طريقه في القراءة والبحث في التاريخ، ويعوقه ما هو شائع -ظلمًا- عن هذا المجال الممتع من أنه كتيب ممل مزدحم بالمعلومات الثقيلة على العقل، وهي للأسف شائعة منتشرة بشكل أدى إلى حقيقة مؤلمة هي أن نسبة ضخمة من شبابنا تنقصهم أبسط المعلومات عن تاريخنا وتواريخ الأمم المحيطة بنا والمتفاعلة معنا عبر القرون. فضلاً عن نسبة أخرى ليست بالأقل تم "حشو" التاريخ في عقول أبنائها بشكل تلقيني سطحي مليء بالمغالطات والقوالب الجامدة والصور النمطية، دون أدنى محاولة لجعل مجال التاريخ مادة محركة للذهن ومستفزة للعقل للبحث والتمحيص والاقتناع -فقط- بما يقبله عقل القارئ أو المتلقي للمعلومات.

والحمد لله أن لدينا بين كتاب التاريخ المِصْريِّين والعرب من جعلوا مهمتهم تحريك العقول لا حشوها من خلال عرضهم وتحليلهم التاريخ القديم والحديث بشكل محايد سلس يحترم عقل القارئ، أذكر من هؤلاء الدكتور عبد الوهاب المسيري، والدكتور جلال أمين، والدكتور قاسم عبده قاسم، والدكتور جمال بدوي، والأستاذ جمال الغيطاني، والأستاذ محمد حسنين هيكل، والدكتور حسين مؤنس، وغيرهم ممن أثْرَوا ثقافتنا العَرَبِيَّة بالعديد من الكتابات التاريخية التي احترمت القارئ فاكتسبت واكتسب أصحابها احترامه.

في هذا الكتاب "تاريخ شكل تاني" أحاول أن أقلب بعض صفحات التاريخ مع القارئ الشاب، محدِّثًا إياه لا ككاتب مخضرم يجلس وراء مكتبه ويلقي محاضرة، بل كشاب مثله (يقاربه في العمر) لم يفعل سوى أن قرأ أكثر منه قليلاً في التاريخ، وأعمل ذهنه لقراءة ما بين سطوره ليخرج في النهاية بهذا العمل البسيط الذي أرجو أن ينطبق عليه جزء من عبارة العلامة أحمد أمين: "إن الكتاب الجيد هو الذي تشعر بعد قراءته أنك إنسان أفضل، وأنك قد أضيف إليك الجديد"

تحياتي

وليد فكري

الإسكندرية ٣ من أكتوبر ٢٠٠٩

العابثون بالتاريخ – الجزء الأول

عندما نحاول تَخيُّل التاريخ في هيئة رجل، فإن أغلبنا يراه شيخًا وقورًا ذا لحية بيضاء، يجلس وسط مئات المخطوطات والكتب منهمكًا في الكتابة بريشته على رِقٍّ من جلد الغزال وقد عَلَت عينيه نظرة حكيم محنك.

ولكن تلك الصورة الجميلة تشوهت، فالشيخ الوقور اعتلَت كتفيه زمرةٌ مزعجة من الأطفال، أخذت تتقافز وتجذب لحيته وتقلب حبره على مخطوطاته وكتبه وتلطخ به وجهه، وتمزق أوراقه وتصنع بها صواريخ تطيّرها وطرطورًا تضعه على رأس المسكين الذي أُنهِكَ صوته في استغاثات مؤلمة أن يكفّوا عن عبثهم المهين!

من قال عبارة "التاريخ يكتبه المنتصرون"، قال فأوجز. فتلك الحقيقة الموجعة قديمة قدَم الإنسان نفسه، منذ كان يحتفل بانتصاره في كهفه بين عشيرته، متغنيًا بفضائله ومُعَرِّضًا بعدوه المهزوم، مرورًا بالشاعر العَرَبِيّ الذي كان يُطلق للسانه العنان في تعداد محاسن قومه المظفرين ومخازي القبيلة المنهزمة، ووصولاً إلى بعض المؤرخين الذين كانت أقلامهم تتغير مع تغيّر الدول والملوك. نعم، هي مسألة قديمة، وأشهر أمثلتها ما جرى خلال بدايات العصر العَبَّاسِيّ الأول من شراء رجال السلطة الجدد ذممَ بعض المنتسبين إلى كُتَّاب الأحاديث النبوية الشريفة لتأليفِ أحاديث تتحدث عن فضل بني العباس وحقهم الإلهي في الحكم، أو إطلاق لأقلام الكُتاب المأجورين ليسهبوا في ذَمِّ دولة بني أمية الساقطة

ورموزها، حتى بلغ الأمر إلصاق أخطر التهم بحق مُعَاوِيَة بْن أَبِي سُفْيَان نفسه، رغم أنه صحابي جليل وأحد كتاب الوحي ورواة الحديث. عملية تخريب منهجية منظمة لتاريخ دولة بائدة، ما زالت تنتج آثارها حتى يومنا هذا، إذ إن أغلب الناس لا يعرفون عن بني أمية إلا قضية توريث الحكم من مُعَاوِيَة ليزيد ومقتل الحسين على يد رجال يزيد نفسه، حتى إن البحث عن معلومات دقيقة سليمة عن دولة الأمويين يتطلب جهدًا شاقًا وبحثًا شديد الحرص، ونسبة كبيرة من الشباب حاليًا لا يعرفون فضل مُعَاوِيَة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) في بناء الدَّوْلَة الإِسْلاَمِيَّة وتدعيم هيبتها في قلوب جيرانها، ولا يعرفون حقيقة أن مُعَاوِيَة هو من أجمعت الأمة على ولايته لرأب الصدع الذي أصابها خلال فترة من الحروب الأهلية في ما بعد اغتيال الخَلِيفَة عُثْمَان بن عَفَّان (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) وأنه (مُعَاوِيَة) نجح بالفعل في توحيد المُسْلمينَ بعد الشقاق. هذا مثال، بسيط، لما يمكن أن يصنعه "قلم المنتصر" في التاريخ.

والمثال ليس حكرًا على العصور القديمة، ففي عصرنا الحديث، كان من ضروب المحال، حتى وقت قريب جدًا، أن تجد حديثًا مكتوبًا أو مسموعًا عن إيجابيات العهد الملكي في مصر، بل ربما كان هذا، في بدايات عهد الثورة، مُعتَبَرًا من أعمال الخيانة ومعاداة الشعب! وبلغ الأمر أنه عند عرض أي من أفلام ما قبل الثورة، كنت في أي مشهد به صورة للملك فاروق، تجد شخبطة سوداء على الفيلم تغطي الصورة، كأنما لم يوجد من الأساس ملك اسمه فاروق، ونجد معظم ما كان يُكتَب عنه -حتى وقت قريب- لا يتحدث إلا بوصفه بالسُّكر والعربدة والفساد وضعف الشخصيَّة، في حين أن كثيرين ممن عاصروه من الكُتاب الثقات نفوا عنه تلك الصفات، وعندما تولى جمال عبد الناصر الرئاسة بعد انقلابه على الرئيس محمد نجيب، ظهرت في كتب التاريخ المدرسية عبارة "جمال عبد الناصر هو أول رئيس جمهورية لمصر"، تلك العبارة بقيت في تلك الكتب حتى سنوات قريبة جدًا، في إنكار فجّ لحقيقة وجود رئيس اسمه محمد نجيب! وما يثير الغيظ أنها كُتِبَت وهذا الأخير على قيد الحياة، حيث يسجل من عاصروا ذلك أنه فوجيء -في أثناء وضعه قيد الإقامة الجبرية- بابنه التلميذ يعود من المدرسة باكيًا وهو يريه تلك العبارة في كتاب التاريخ المدرسي!

والحقيقة التي يتجاهلها من يمارسون هكذا عبثًا، أنه لا يضيف لعهد أو نظام أو زعامة جديدة، بقدر ما ينتقص منها، فهو ببساطة يعكس ضعف ثقة تلك الزعامة في مبررات وجودها، ويبرر بالتالي اضطرارها إلى فرض "تاريخها" على الناس، من خلال إلصاق التهم الزائفة بالسابق، والمبالغة في تعظيم الحالي، حتى لتشعر أحيانًا أن كل مساوئ

السابق تتلخص في أنه "سابق" وهو أمرٌ لا يجري فقط في نطاق الشعب الواحد، عند سقوط نظام وصعود آخر، بل إنه كثيرًا ما يجد له مجالاً في ما يتعلق بهزيمة دولة أمام أخرى، فعندها تُشَرَّع الأسلحة وتُسَن السكاكين على طريقة "العجل وقع"، ولكن هذا النوع من "كتابات المنتصرين" أقل خطورة، فمن الطبيعي جدًّا على الكاتب المنتمي إلى دولة أن يتحيز إليها، لكن تبقى حدود الأمانة العلمية ثابتة، المشكلة أن تلك الحدود تنهار عندما يحاول هذا الكاتب إضفاء النقائص كالجبن والغباء والضعف على العدو المهزوم، بشكل ينتقص من قيمة النصر، فأي قيمة لانتصار تَحقَّق على عدوٍّ جبانٍ غبيٍّ ضعيفٍ؟

ومن يفعلوا هذا، ومن يدعموه أو يشجعوه، إنما يُغفلون حقيقة واضحة هي أن البحث عن نقائص الخصم المهزوم يبدأ من حيث تنتهي القدرة على إيجاد أي إيجابيات حقيقية للمنتصر!

ليس هذا فحسب، بل قد يغتصب مزور التاريخ الذي يمثل الجبهة الظافرة، ما ليس له ويضيفه إلى نفسه، كما فعل بعض الفراعنة إذ كانوا يمحون أسماء أسلافهم عن المعابد ويضعون مكانها أسماءهم أو كما فعلت أوروُبَّا، في العصور الوسطى، بنسبة لا بأس بها من اختراعات العلماء العرب الأندلسيين، فأضافتها إلى رصيد علمائها بينما سعت من جانب آخر لتصوير الحَضَارَة العَرَبِيَّة في هيئة الدَّوْلَة البربرية التي ترسل جيوشها لغزو البلاد وسفك دماء الشعوب بينما جنودها يصيحون بوحشيَّة لا بورع "الله أكبر"! ولولا كُتَّاب ومفكرون أمناء، كزيجريد هونكه ومايكل هاميلتون مورجان، تحدثوا عن إنجازات علماء العرب والمُسْلمينَ، ما كان الغرب ليرى الصورة التي تعمد البعض طمسها في إطار مسلسل تزييف التاريخ.

وأي ضرر من إنصاف الخصم، عند كتابة التاريخ، بما يستحق بالفعل؟ الرَّسُول (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) نفسه، تَدخَّل بعد غزوة بدر مقاطعًا أحد الصحابة الذي انتقص من قدر قتلى قريش، كأبي جهل وعتبة، وقال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "أي ابن أخي، أولئك الملأ"، كما ورد حديث شريف يذكر محاربة المُسْلمينَ للروم، تضمن ذكرًا لإيجابياتهم مع أنهم آنذاك كانوا العدو. والتاريخ كما يتضمن كُتَّابًا ضنُّوا بذكر الحقائق الكاملة عن المهزوم، تَضمَّن من اعترفوا بإيجابياته، كاعتراف كتاب التاريخ الفرعوني بفضل الهِكْسُوس في نقل العجلات الحربية إلى مصر، أو إقرار المؤرخين العرب بدقة التنظيم الإداري للفرس، الذي أخذه عنهم بناة الدَّوْلَة الإِسْلَامِيَّة الأولى. فهل نقص هذا من قيمة انتصارات أحمس على الهِكْسُوس أو المُسْلِمين على كِسْرَى؟ إطلاقًا! إذن فلنعترف أن

رغبة المنتصر في احتكار التاريخ لصفه هو درجة فادحة من ضعف الثقة بالنفس أو بقيمة النصر تظهر لا إراديًا في شكل افتراءات خالية بصحة، ربما وضعها من وضعها بحسن نية، ولكنها تؤدي إلى نتيجة عكسية عندما يأتي يوم، ودائمًا يأتي هذا اليوم، تَتَكشَّف فيه الحقيقة، وتلتصق صفة الكذب بالمنتصر منتزعة منه أي أمجاد أضفاها عليه نصره!

والغريب أن من يمارس كذبًا كهذا، يتجاهل حقيقة أن مَن بعده لن يأخذوا كلامه على أنه كلام مقدس لا يجوز البحث في حقيقته، تمامًا كذلك الكاتب الذي كان يُملي على فتاه كلامًا في مدح سلطان، فسأله الفتى عن حقيقة هذا الكلام فأجابه قائلاً: "اكتب يا فتى، فإنما هو أنا وأنت!" وصول نص هذا الحوار إلينا يُظهِر إلى أي حَدٍّ قد تبلغ فضيحة المؤرخ الكاذب أو المتلاعب، ممًا يؤدّي بتلقائية إلى سقوطه وسقوط ما بذل جهدًا مضنيًا في تزويره، من أعين الناس!

أما على الجانب الآخر، جانب المهزوم، فالكذبة عادة ما تكون أكبر، على مبدأ جوبلز (وزير الدعاية في ألمانيا النازية): "يجب أن تكذب كذبة كبيرة ليصدقها الناس"، فعلى سبيل المثال، الصادم حقًّا، تتضمن بعض المراجع الأكاديمية الأجنبية المحترمة، العبارة الآتية شكلاً ومضمونًا: "إسْرَائيل هزمت مصر في حرب يوم الغفران (أكتوبر ١٩٧٣)!"، والكارثة أنها تَلقَى تصديقًا شديدًا، لا من العوامِّ فحسب بل من فئات من المثقفين في بعض بلدان العالم الغربي! ومهندسو تلك الكذبة لم يكتفوا بوضع العبارة بل أضافوا إليها الدعامات المكوّنة من التحليلات الخادعة والتفسيرات الملتوية، ببراعة مخيفة تجعل الرأس يدور. وهذا النوع من التلاعب الموجه إلى الخارج، أقل خطورة من ذلك الموجه إلى الداخل. فعلى سبيل المثال، تتجاهل نسبة كبيرة من الكتابات المصْريَّة عن نكسة يونيو ١٩٦٧ أي حديث عن السلبيات التي أدت إلى وقوع الهزيمة، بينما تسهب في إلقاء أسباب من نوعية سعي العدو لنشر الإدمان بين الشباب (كما لو كان هذا مسيئًا إلى العدو فحسب!)، أو تآمر الدول الكبرى على مصر، أو تَخلّي بعض الدول الشقيقة عنها! كأنما لم تكن لدينا سلبيات فادحة وفاضحة، اعترفت بها بعض قيادات الجيش نفسه وكثير من المفكرين والسِّيَاسيّين المعاصرين للنكسة! والقارئ يشعر بالضياع في التناقض بين هذا وذاك، ويشعر بالأسى عندما يعلم أن الإسْرَائيليّينَ أصدروا كتابًا بعد هزيمتهم في حرب أكتوبر ١٩٧٣ بعنوان "التقصير" جلدوا فيه أنفسهم وتحدثوا بصراحة وشفافية عن مَواطن تقصيرهم في الدفاع عن نقاط ضعفهم وتقوية مراكز قوتهم، لتستفيد الأجيال القادمة من التجربة!

بل ويوجد مثال، هو نوع من الكوميديا السوداء، للهزل التاريخي، يتكرر أحيانًا في بعض الدول الصغيرة، عندما تتعرض للاحتلال، وتتدخل قوى كبرى لتحريرها، تُفاجَأ بتلك الدَّوْلَة تصنع من يوم تحررها، الذي لم تبذل فيه أدنى جهد، عيدًا للنصر، تتغنى فيه ببطولة أبنائها وشجاعة أشاوسها، الذين ربما دخل الاحتلال بلادهم ورحل عنها، قبل أن يدركوا ذلك! بل وتضيف هذا اليوم وتلك البطولات المزعومة إلى كتب تاريخها وتدرِّسه للطلبة في المدارس بكل حماس، ممَّا يذكرني برواية "مُحبّ" عندما غار أهل القرية من القُرى المجاورة التي بها قبب للأولياء، بينما هم ليس لديهم أولياء من الأساس، فبنوا قبة خالية على أمل أن يسكنها يومًا وليّ، ثم اخترعوا وليًّا بالفعل وتقربوا إليه بالقرابين والنذور!

ومن أصناف عبث المهزوم بالتاريخ، افتعال المصائب أو استغلالها لتبرير ارتكابه مصائبه الخاصَّة التي ربما كانت أشنع من ما جرى له. وأشهر نموذج لهذا النوع هو ما تفعله الحركات الصهْيَوْنيَّة، وإسْرَائيل نفسها، من ادِّعاء دائم لتعرض الْيَهُود للاضطهاد، قديمًا وحديثًا، في سعي لتبرير أي ممارسات وحشيَّة وأي اعتداءات ضدّ جيرانها! فتجد الكتابات الصهْيَوْنيَّة تزخر بالوصف الملحمي المؤثر لما فعله نبوخذ نصَّر الْبَابِليّ بالْيَهُود من سبي وتقتيل، وما ارتكبه الرُّومَان في حقهم من إلقاء في حلبات مصارعة الأسود، وما قام به هتلر من محرقة مزعومة وتجارب وحشيَّة في معتقل أوشفيتز، رغم أن ما جرى لهم من اضطهاد لا يزيد على ما جرى للأقباط على يد الرُّومَان لخروجهم عن المذهب الإمْبرَاطوري، أو لِلْمُسْلِمينَ في الأندلس على يد محاكم تفتيش قشتالة من طرد وتنصير جبري، أو للمسيحيين في اليمن على يد يُوسُف ذي نواس (الْيَهُودي!) الذي ألقاهم في خدود النيران. بالإضافة إلى ما جرى من بعض كُتَّاب التاريخ الْيَهُوديّ الذين أخرجوا شعوبًا كاملة من الجنس السامي (الآراميين، والفينيقيين، والكنعانيين)، وهم السُكان الأصليون لفلسطين ولبنان وسوريا، لأسباب لا أراها خفيَّة! هذا النوع من التلاعُب بالحقائق التاريخية، سواء بالاختلاق أو بالتضخيم المبالغ فيه لآثارها، لا يختلف كثيرًا عن من يفتعل لنفسه عاهة ليشحذ بها، وليكسب تعاطفًا يعمي الأعين عن أي كوارث يرتكبها! ويبلغ العبث أقصى درجاته من خلال فرض بعض الدول قوانين تُجرّم جنائيًّا وتحت عقوبات قاسية، أي إنكار، ولو على أساس علمي، لتلك التلاعبات التاريخية الفاضحة! هذا نوع "فظ" من العبث بالتاريخ! ولكنه نوعٌ مبرَّر واضح الأسباب والأهداف والنتائج، لا أراه يحتاج إلى تفسيرات أو تحليلات بقدر ما يحتاج إلى مواجهة

صادقة منظمة من البقية الباقية ممن يراعون للتاريخ حرمته وللحقيقة قدسيتها! ويحتاج إلى ثقة في مبدأ "يمكنك أن تخدع بعض الناس لبعض الوقت، ولا يمكنك أن تخدع كل الناس لكل الوقت!"

كل هذه الأمثلة والأنماط من تحريك التاريخ وفق الأهواء والمصالح، مِن قِبَل المنتصرين والمهزومين، تغيّر وضعه من "أمر واقع" إلى "مفعول به"، وما يُفعَل في التاريخ لا أجد له وصفًا غير أنه "عيب وحرام!"، وهو كذلك يمثل أولا إهانة لأصحاب العقول، ونَصْبًا على ناقصي الثقافة والمعرفة، في استغلال صارخ لقدرة صاحب القلم على توجيه "الجماهير الغفيرة" التي يسعى كل صاحب مصلحة في اللعب بالتاريخ ليرجحها لصالحه من خلال دس "التاريخ الزائف" لها في كل مقروء ومسموع ومرئي. تلك الجماهير التي صار تسييرها وتلقينها ما تشاء المؤسسات الحاكمة وأصحاب المصالح فنًّا وعلمًا له قواعده ونظمه ومدارسه ونظرياته، سواء كانت تلك الجماهير "جماهير محلية" ممثلة في مواطنيه، أو "جماهير عالميّة" تمثل الرأي العام العالمي. وليت هذه الصور من العبث حصرية، ولكنها، للأسف، تبقى مثالاً لا حصرًا، أو نقطة في بحر.

العابثون بالتاريخ – الجزء الثاني

الحاضر هو نتيجة تسلسل أحداث ووقائع سابقة، تسلسل بدأ في الماضي، فلو تم تقديم هذا الماضي بصورة غير متقنة، لأدى هذا بالضرورة إلى خلل رهيب في حاضر القارئ، ربما لا يُدرَك وجوده سريعًا، تمامًا كالفيروسات الخطرة التي تتخذ فترة كمون، ثم تعلن عن نفسها وتعيث فسادًا. والتاريخ لا يتسامح مع من يسيئون معاملته. والقارئ المتمرس يتضامن مع التاريخ في قضيته ولا يبدي أي تهاون مع الكاتب الذي يحس –القارئ– أنه يستهين بعقله أو لا يقدره حق قدره.

ومن أخطر صور استهانة كاتب التاريخ بقارئه استخدام الكاتب تقنية "تقديس البطل" في عمله، بمعنى أنه يقدم الشخصيَّة محور عمله في صورة مَلَك أو قديس بلا أي سلبيات أو أخطاء، ولو وُجدَت تلك الأخيرة لعزاها إلى حسن نية بطله أو إلى تعرضه للخداع والتآمر أو ربما لحاول إظهارها مظهر الأعمال العظيمة التي أساء العالم فهمها، بل ويعقِّب أحيانًا على كل فصل من العمل بمبحث صغير يذكر فيه الدروس المستفادة من هذا الموقف أو ذاك ممَّا كان بطل الكتاب محورًا له.

كأنما ليس من المقبول وجود أي عيوب لشخص فقط لأنه محور عمل تاريخي يكتبه هذا الكاتب الذي ينسى، أو يتناسى، حقيقة أن التاريخ من العلوم الإِنْسَانيَّة، التي لا يمكن أن تنفصل عن واقع أن الإنسان، أي إنسان كان، به سلبيات وإيجابيات، وأن موقعه من

عظمة الشأن أو حقارته إنما يتحدد وفقًا لنوعية وكمية مزاياه وعيوبه وطريقة توظيفه لمزاياه وتعامله مع عيوبه، لا لمجرَّد وجود عيوب به أو خلوه منها لو كان خلو المرء من العيوب أمرًا واردًا أصلاً. وهو كذلك انفصال عن طبيعة العلم كأداة يبدأ عملها في بحث الأمر الواقع بغرض تحقيق ما نحب أن يكون يومًا أمرًا واقعًا.

قد يفسر البعض استخدام هذا الأسلوب برغبة الكاتب تقديم قدوة للقارئ الشاب أو حديث السن. وهو عذر أقبح من ذنب، إذ غالبًا ما يؤدي هذا الأسلوب إلى نتائج عكسية تمامًا، فأولاً قد يدرك القارئ أن الكاتب يتحدث عن شخص مستحيل الوجود، من منطلق إيمان القارئ أن لا أحد كامل، بالتالي يفقد الكاتب مصداقيته عند هذا القارئ وقد تفقد الشخصيَّة موضوع عمله مصداقيتها بالتالي. وثانيًا قد ينبهر القارئ الشابُّ بالشخصيَّة إلى حَدِّ الشعور بالدونية عند عقد مقارنة لا إرادية بينه وبينها، وهو شيء طبيعي بالذات لمن هم في بداية مرحلة المراهقة، إذ دائمًا ما ينبهرون بنموذج البطل كامل الأوصاف، بالتالي هذا الشاب غالبًا ما سيتحول عنده البطل إلى مصدر مغذ دائم لإحساس بالنقص. وأخيرًا قد ينبهر القارئ ببطل العمل ويحاول تقليد نمط حياته دون مراعاة اختلاف الظروف الاجْتمَاعيَّة والثَّقَافيَّة والحياتية بشكل عامٍّ بينه وبين بطله الذي ربما عاش في عصر شديد القِدَم، والنتيجة هي اصطدام الصورة المثالية في ذهن الشاب بالواقع، ممَّا قد ينتج عنه إما انهيار فكرة المثل الأعلى تمامًا في ذهنه وإما تمسكه بها على سبيل العناد لا أكثر ممَّا يزيد من اصطدامه بواقع مجتمعه وربما انفصاله فكرًا وفعلاً عنه، بعكس ما تهدف إليه قراءة التاريخ.

والكارثة أن ممن يستخدمون تلك الطريقة في الكتابة أساتذة جامعيين ومثقفين كبارًا من المفترض أن يكونوا أكثر إدراكًا لعواقب استخدام هذا الأسلوب.

والأسلوب الذي لا يقل خطورة هو أسلوب "إعادة كتابة التاريخ من المنظور الشخصي فقط"، بمعنى أن يتعصب الكاتب للمصادر التي تشترك معه في الوطن والقومية وربما المذهب الدِّينِيّ، ويتجاهل أي مصادر أخرى، فقط لأنها أخرى، بالتالي تصبح زاوية نظره إلى الوقائع والأشخاص أكثر ضيقًا. هذا الأسلوب نجده يتكرر بالذات في الوقائع ذات الأطراف المتعددة، منها على سبيل المثال لا الحصر، الحروب الصَّليبيَّة، وموقف أهل السنة من دولة الفَاطميّين، وفتح العرب لمصر، وتقييم الخلاَفَة العثمانية، إلخ. فنسبة لا بأس بها من الكتابات تعرض وجهة نظر ثقافة الكاتب كأنها الحقيقة المطلقة، دون التفات إلى الآخر ورؤيته للأمور.

صحيح أن بعض كُتّاب التاريخ يرون أن من مهامهم الدفاع عن قضايا شعوبهم، لكن ألا يمكن القيام بهذا مع تقديم وجهات النظر الأخرى كافة، ما دام المؤرخ يثق بقوة حجته فما ضرر عرض حجج الآخرين؟ فلو أخذنا، مثلا، الحروب الصَّلِيبِيَّة مثالاً، هل الواقع الذي يقول إن نسبة كبيرة من جنود وقادة الجيوش الأوربِّيّة كانوا يؤمنون أنهم يحاربون من أجل نصرة الرب ورضاه، يتعارض مع حقيقة ارتكابهم مجازر شنيعة بحق اليَهُود والأورثوذوكس والمُسْلمينَ؟ هل تتناقض حقيقة أن منهم من كانت دوافعه وطنية مع واقع يقول إنه معتدٍ جاء ليحتل أرضًا ليست له؟ ثم إنه بالفعل ثمة كُتّاب حرصوا على تقديم آراء مختلف المؤرخين في كتاباتهم، فعلى سبيل المثال قام د/ قاسم عبده قاسم، أستاذ تاريخ العصور الوسطى، بترجمة العديد من المؤلفات الأوربِّيّة عن الحروب الصَّلِيبِيَّة، عارضًا بكل أمانة وجهة نظر الكتاب الأوربِّيِّين في حملات أجدادهم على الشرق، وأمين معلوف، الكاتب اللبناني، قدم صورة متكاملة الزوايا في كتابه "الحروب الصَّلِيبِيَّة كما رآها العرب"، وكذلك قام د/ سهيل طقوش، أستاذ التاريخ الإِسْلاَمي، بنقل وجهات النظر المختلفة، للمؤرخين المُسْلمينَ والمَسيحيِّينَ، في المعارك التي دارت في الأندلس بين الجيوش العَرَبِيَّة وجيوش الممالك الكَاثُولِيكيَّة، فهل أضرّ هذا بإيمان القارئ بصدق قضية قومه في هذه الواقعة أو تلك؟

ولا يقتصر الأمر على الآخر "الغريب" فقط، بل يتمد أحيانًا إلى الآخر "القريب" أي الذي يشترك معنا في دين أو لغة أو أرض، ولكنه يختلف معنا في مذهب أو فكر أو موقف سياسي، فتجد بعض الكتاب والباحثين يتجاهلونه أو يفعلون ما هو أسوأ: تفسير موقفه بشكل تحكمه العاطفة والتعصب. فنجد، مثلا، كاتبًا وأستاذًا للتاريخ الإِسْلاَمي يهاجم محمد علي باشا ويتهمه بالزندقة والماسونية والتآمر على الإِسْلاَم، دون دليل يُحتَرَم، من منطلق موقف محمد علي من الثورة الوهابية ومناصرته الدَّوْلَة العثمانية عليها، دون أن يفكر الكاتب في عرض وجهات النظر، حتى ليخرج الكاتب عن موضوع كتابه الذي يتحدث عن تاريخ الدَّوْلَة العثمانية ليفرد مبحثًا كاملاً في ذمّ محمد علي وذكر مثالبه، كأنما يستجدي كراهية القارئ لهذا الوالي الذي كان كله ذنبه أن اتخذ موقفًا لا يرضى عنه واضع الكتاب.

والمثال الذي أراه شديد البروز، تلك "الخناقة" الفكرية بين من يحب عبد الناصر ومن يميل إلى السادات، فنجد بعض أهل الفئة الأولى لا يذكرون لعبد الناصر سوى محاسنه ولا يقولون عن السادات إلا عيوب عهده، وفي المقابل نرى بعض مؤيدي العهد الساداتي

يتحدثون عن الرئيس السادات بتمجيد كامل دون التطرق إلى سلبياته كرئيس ولا يقولون عن العهد الناصري إلا المثالب والنقائص، في تجاهل لحقيقة تفرضها إنسانيّة هذا وذاك هي أن كليهما إنسان له سلبياته وإيجابياته التي تنعكس عند كل منها على أدائه وأحداث عهده ونتائجه، حتى أصبح من المألوف حين يقول أحدنا إنه يحب أحدهما أو يحترمه أن يفترض السامعون مباشرة أنه يبغض الآخر ويزدريه.. وقِس على ذلك باقي العهود.

ومن الطرق التي تمثل إخلالاً بفن عرض المعلومة التاريخية، طريقة "وتابعه قُفة" الشهيرة، وهي أن يقوم الكاتب، متعمدًا، بتقديم البطل على أنه عملاق بين أقزام، فبينما نجد فيه الإقدام والإيثار والشجاعة، نجد أن من حوله يتأخرون خطوة أو خطوات عنه، وهم دائمًا أقل منه ذكاءً وأبطأ منه إقدامًا، كأنما هو يستمد عملقته من قِصَر قاماتهم، ونلاحظ ارتباط هذا الأسلوب في كتابة تاريخ الأشخاص بالأسلوبين السابقين، بل وتداخله معهما، في شكل أشبه بما يسميه الأطباء "متلازمة الأعراض" التي تشير كلها مجتمعة لمرض واحد!

وهذا الشكل من الكتابة قد يخدع القارئ للحظات، لكنه سرعان ما يدرك أنه يحمل من الإساءة إلى البطل أكثر من ما يحمل من التمجيد، إذ يعني ببساطة أنه ليس بتلك العظمة التي أراد الكاتب إظهاره عليها وأنه لولا ضعف من هم حوله وقصور هممهم لما كان له تقدم عليهم ولبقي مغمورًا لا ذكر له ولا شأن. وهذه نتيجة طبيعية للفخ الذي قد يقع فيه الكاتب الذي قد يخشى أن يطغى ذكر إحدى شخصيات عمله على ذكر شخصيته الرئيسية، فيحاول تقليل شأن الجميع سوى بطله، وبالتالي ينتج عن هذا تشويهه لصورهم وهو عمل لا يخرج عن دائرة تزوير التاريخ، حتى لو كان بحسن نية.

تلك الأساليب الثلاثة على سبيل المثال لا الحصر، واقتصاري على ذكرها إنما سببه عدم التقائي بسواها من الأساليب الخاطئة، وهي فخ عميق لكل من القارئ، الذي قد يتأثر بها سلبًا، والباحث، الذي قد يتخذ كتبًا كهذه مراجعَ فتصيبه العدوى.

ولتجنب الوقوع في هذا "الفخ" ينبغي على القارئ، أيًا كان هدفه من قراءة التاريخ، اللجوء إلى أكثر من مصدر، والتأكد من مصداقيته، ومحاولة الإلمام بظروف كتابته العمل، خصوصًا لو كان هذا الكاتب معاصرًا للوقائع المدونة، أو كان حديث عهد بثورة أو انقلاب أو قيام نظام معارض للمرحلة التي يكتب عنها، فهذه الظروف تفسر الكثير من ما قد يقصد الكاتب تدوينه أو لا يقصده. فعلى سبيل المثال، قراءة تاريخ الأمويين من

مؤرخ عاصرهم تختلف عن قراءته لمؤرخ عباسي، وكلاهما يختلف عن القراءة لمؤرخ لا ينتمي إلى هذا ولا ذاك، وبالنسبة إلى التاريخ الحديث مثلاً، فالقراءة عن العهد الملكي من معاصر له عاش تحت رعاية القصر، لن يشبه القراءة لكاتب نشأ في ظل الثورة، وكلاهما قد يتعارض مع آخر يكتب عن الملكية بينما هو يعيش في أواخر القرن العشرين، وهكذا. وعلى أي حال، أنا أرى أن الجمع بين القراءة لهذا وذاك أثرى للذهن وأوسع للأفق، كما أنه يجعل القارئ في موضع القاضي الذي تتراصّ أمامه الأدلة والوقائع فيقبل هذا ويرفض ذاك.

كما ينبغي التأكد من مصداقية الكاتب نفسه لو أمكن، وهو شيء ليس بالعسير على القارئ المجرب، ربما هو أصعب على القارئ الجديد للتاريخ، لكنه مع الوقت يصبح ضرورة ملحّة ما دام يرغب في الحصول على حقّه في تلقّي معلومة سليمة. هذا الحق الذي لو لم يطالب به قارئ التاريخ، فربما من الأفضل له أن لا يقرأه من الأساس.

جاهلية ولكن

"الجاهلية"

هو تعبير دقيق عن الحياة الدِّينيَّة للأغلبية العُظمى من عرب الجزيرة في فترة ما قبل الإِسْلاَم، وهو تعبير قرآني المصدر يفرق بين فترة عبادة الأصنام والأوثان وتقديس القوى الخفية، وتلك الفترة التالية التي استقر فيها الإِسْلاَم في نفوس أهل الجزيرة العَرَبِيَّة وأصبح هو الدين الأول بها.

ولكن للأسف، يعمم الكثيرون هذا التعبير على كل مظاهر الحياة في تلك البقعة من الأرض، بمختلف جوانبها، منكرين بذلك حقيقة تبدو للمتأمل في أحوال بعض مناطق الجزيرة، هي أن العرب قد عرفوا –في بعض مجتمعاتهم الصحراوية– شكلاً من أشكال الحَضَارَة الراقية، وإن اختلف عن الشكل المألوف في الحضارات السابقة والمعاصرة لهم كحضارات مصر والعراق والشام واليونان. والقول بذلك لا يخالف الاعتراف بصحة وصف القرآن لتلك الفترة بـ"الجاهلية" إذ إن الوصف ينصبُّ على الدين وما يتعلق به من أمور ونشاطات، وليس بالضرورة أن نعممه على كل أوجه الحياة فقط لأن العرب كانوا آنذاك وثنيين، فحضارات الفراعنة وبابل واليونان كانت تدين بالْوَثَنِيَّة، فليس من العدل إذن أن نفرق بينها وبين حَضَارَة العرب فقط لأنهم كانوا صحراويين.

ولأنها كانت مركز الثقافة والحياة العَرَبِيَّة، فلتكن "مكَّة" هي النموذج الذي نتناوله

بالنظر والتأمل للوقوف على إجابة السؤال التالي: "هل كانت جاهلية عرب ما قبل الإسْلاَم شاملة كل حياتهم، أم أنها اقتصرت فقط على الجانب الدِّينِيّ المذكور في القرآن الكريم وما ارتبط به من ممارسات؟"

لكي نجيب هذا السؤال، علينا أن نقلِّب بين أيدينا مختلف مكونات الحياة في مكَّة، ونراجعها في ضوء ما لدينا من ميراث حضاري يمكننا من الحكم –بالعقل– على أي مجتمع إن كان متحضرًا أم بدائيًا.

I– المكونات المادية للحَضَارَة:

– النواة الأولى والتطوُّر السكاني:

فلننظر إلى مكَّة جيدًا من بداية نشأتها، فقد تَكوّن المجتمع المكي من قَبِيلَتَي جُرهُم وقطوراء اللتين استقرَّتا عند بئر زمزم مع نبي الله إِسْمَاعيل بن نبي الله إبراهيم (عَلَيْهِمَا وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ) وازداد الجميع التصاقًا بتلك البقعة عندما قام النبيان (عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ) ببناء الكعبة المشرفة.

القبيلتان سالفتا الذكر كانت حياتهما تقوم على الترحال والتجارة في أرجاء الأرض، بل إن بعض أبْنَاء عمومتهما حكموا وادي النيل لفترة، وأعني بهم قَبَائِل الهِكْسُوس البدوية، أي أنهما كانتا على عَلاَقة بمختلف المدنيات المعروفة آنذاك. أما إِسْمَاعيل وأبناؤه، فقد كانوا منحدرين من حضارتين عظيمتين: بابل، الوطن الأصلي لإبراهيم (عَلَيْه السَّلاَم)، ومصر، مسقط رأس هاجر عليها السلام. ممَّا يعني أن العَنَاصر الأولى المكونة للمجتمع المكي لم تكن عَنَاصر بدائية متأخرة، بل كانت عَنَاصر مرتبطة بأغلب الحضارات الراقية في ذلك الوقت، ومتأثرة بها بطبيعة الحال.

البنيان السكاني لمكة تَعرَّض لتغيرات وإضافات كثيرة، فموقعها المتميز بين طرق التجارة، وطبيعة أهلها المتقبلة للآخر بسهولة، وقدسيتها الخاصَّة التي أضفت عليها أمنًا محببًا إلى النفس، جعلوا منها ملجأ ومستقَرًّا لوافدين من مختلف الأماكن. فالْيَهُود الفارون من السَّبْي الْبَابِلِيّ والنَّصَارَى الهاربون من الاضطهاد الرُّومَاني وكل مستضعف في الأرض، كان يجد إلى جوار حرمها مستقَرًّا آمنًا تحت حماية ساداتها الغيورين على تقاليد الضيافة ونجدة الملهوف. وبعد نهضتها التجارية وتحولها إلى مركز تجارة الجزيرة ظهرت

بها بيوت تتبع كبار تجار الفرس والروم واليمن والحبشة وترعى أعمالهم، فضلاً عن العبيد من كل عرق ولون الذين كان كل سيد مكي يحرص على شرائهم والإكثار منهم لحمايته وخدمته. أي أن مكة كانت مجتمعًا متعدد الجنسيات والأعراق، "كوزموبوليتان" بتعبير عصرنا الحديث.

كل تلك الأعراق والثقافات تعايشت معًا وتعاونت على بناء مجتمع قوي تجاريًا وسياسيًا، في وقت كانت الأرض فيه تغلي بالنزاعات العنصرية الطاحنة. وقد ساعدت على ذلك التعايش النُظُم والقواعد التي وضعها سادة مكة عبر السنين للحفاظ على استقرار مجتمعهم وما يترتب على ذلك من رواج اقتصادي.

- حكومة مكة:

ولأن المجتمع المتمدين لا يكون كذلك إلا باجتماع العَناصر الثلاثة: الشعب والأرض والحكومة، فإن من أهم المكونات المادية التي صنعت حَضارَة مكة حكومتها.

كانت مكة تخضع في بداياتها الأولى -شأن معظم المدنيات- لنظام "الحكم الفردي للأقوى"، فبعد موت إسمَاعيل (عَلَيْهِ السَّلَامُ) حكمتها قبيلة جُرْهُم، بعد أن غلبت قطوراء في النزاع بينهما على السيطرة على مقدرات البلد الحرام، وطالت أيام حكم جُرْهُم وطغت ونهبت أموال الحرم وأحدثت في مكة من الفساد ما لم يمكن السكوت عنه، فهبّت ثورة عاتية ضدها، وطُرِدَت من مكة لتحتل قبيلة خزاعة مكانها وتصبح سيدة مكة، ولأن الأيام دول فقد جاء الدور على خزاعة ليهتزّ من تحتها مقعد الحكم، وكان هذا على يد أحد أحفاد إسمَاعيل وإبراهيم (عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) وهو قُصَيّ بن كلاب (الجد الرابع للرسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) الذي قاد قبيلته وأزاح خزاعة عن مكانتها، وجمّع قومه حوله بعد أن كانوا متفرقين فدانوا له بالولاء ولقّبوه "قُرَيْشًا"، وهي كلمة مشتقة من فعل "التقريش" أي "التجميع"، وأصبحت لقبه واسم قبيلته كذلك.

قُصَيّ يُعَدُّ أول من وضع نظامًا مُحْكَمًا لإدارة مكة، فأولاً بدأ بخطوة جريئة هي نقله ديار قريش إلى داخل محيط الحرم بعد أن كان أهل مكة يعيشون خارجه، وبذلك ضَمن لقومه درجة عالية من الأمن من غارات القَبَائل حيث إن الجميع -مهما كانت خلافاتهم- كانوا يعظمون الكعبة ويهابون دخول الحَرم مُغيرِين.

الخطوة التالية كانت ضمان سكوت قَبَائِل العرب عن سكن قريش بمحيط الكعبة، فجمع قُصَيّ كبار قبيلته وقال لهم: "والله ما أعرف للعرب مكرمة خيرًا من الطعام، فأطعموا الحجّاج واسقوهم يكفّوا ألسنتهم عنكم"! وهكذا تقرر أن يتولى سادة مكة إطعام وسقي وضيافة الحجيج من خارجها، وبهذا الشكل حقق قُصيّ لقومه مكسبًا سياسيًّا ضخمًا وميزة على سائر العرب.

بعد ذلك بدأ قُصَيّ في وضع النظام الداخلي لمكة، فجعل داره مكانًا لاجتماع الملأ لمناقشة أمور التجارة والسِّيَاسَة والحرب، وأيضًا لعقد الزيجات وإبرام الاتفاقات، وسُمِّيَت "دار الندوة" وصار حقًّا لكل رجل مَكيّ شريف بلغ الأربعين من عمره أن يدخلها ويشارك في المناقشات بها واتخاذ القرارات الهامة.

كذلك استحدث فكرة "القُبّة"، وهي خيمة من الجلد يتم نصبها عند الحرب ويجتمع فيها الفرسان وسادة قريش لوضع خطط الغارات والمعارك. وجعل للبيت الحرام مفتاحًا وحجابًا ونظامًا للخدمة وسمّاها "الحجابة"، وأصبحت وظيفتا سقاية وضيافة الحَجّاج وظيفتين محددتين بالاسم هما "السقاية" و"الرفادة"، وطوال عهد قُصَيّ وأبنائه الذين وزّع بينهم تلك المهام، عرفت حكومة مكة التطوُّر، فظهرت وظيفة "الأعنَّة" وهي بمثابة "قيادة الفرسان في المعارك"، و"السفارة" وهي مهمة يحدَّد لها رجال معينون عارفون بأحوال القَبَائِل الأخرى، يتولون التوسط بينها وبين قريش في السلم والحرب، و"المغارم" والقائم بها يكون بمثابة المُحَكِّم في النزاعات حول ديات القتلى وغرامات الاعتداءات الواقعة من حين إلى آخر، وحرص المكيون أن يكون بينهم العالمون بالأنساب ليرجعوا إليهم إذا اختلفوا في نسب طفل إلى أبيه، أو إذا رغبوا في التأكد من صحة نسب من يطلب مصاهرتهم.

تلك المهام تم تقسيمها على العائلات القُرَشِيَّة، بحيث لا تحتكر إحداها الحكم، وبهذا الشكل صار الحَلّ والعَقْد بيد جَمَاعَة أشراف مكة الذين كان كل منهم على رأس عائلة كبيرة تتولى وتتوارث وظيفة محددة، ويمكننا بذلك وصف نظام حكم مكة في ما قبل الإِسْلَام بـ"نظام المؤسسات"

– العلاقات الخارجية:

مكّة لم تكن مجرَّد بلدة منعزل في قلب الصحراء، فأولاً بقيت تربط الوافدين عليها علاقات بأوطانهم السابقة، وثانيًا كان وجود الكعبة فيها يجعل من موسم الحج اجتماعًا

كبيرًا لمختلف القَبَائِل، وأخيرًا استحدث ساداتها –وعلى رأسهم جد الهاشميين هاشم بن عبد مناف بن قُصَيّ– نظام "الإيلاف"، وهي المعاهدة الكبرى التي جعلت مكّة تتربع على قمة عالم المال والتجارة في الجزيرة.

الظروف هي ما دفعت هاشم وإخوته للتفكير في تلك المعاهدة، فلأن المسافات بين كبرى أسواق الشام والحبشة واليمن والعراق ومصر كانت شاسعة، وكانت طرقها تمر بين صحارى موحشة، كان كبار التُّجّار في المناطق المذكورة يُحجِمون عن المرور في قلب الجزيرة خصوصًا مع انتشار القَبَائِل الصغيرة الفقيرة التي احترفت قطع الطرق حلاً لوضعها الاقتصاديّ المزري. أوجد هاشم حلاً لذلك الوضع فاتّفق مع تلك القَبَائِل على أن تكف عن قطع الطريق التجاري بل وأن توفر للقوافل الحماية والضيافة عبر الطرق، مقابل أن تحمل القوافل تجارة تلك القَبَائِل مجانًا إلى الأسواق الكبرى، وتعود لها باحتياجاتها التي تعجز عن الإيفاء بها لنفسها. وسافر هو وإخوته بين ملوك الروم واليمن والحبشة وفارس وما تبعهم من دويلات عَرَبِيَّة صغيرة، واتّفقوا مع ملوكها وتجارها أن يفتحوا لهم أسواقهم مقابل أن يضمنوا هم الأمان لقوافلهم، وفقًا للاتفاق سالف الذكر مع القَبَائِل الواقعة على طرق التجارة. وبهذا الشكل راجت التجارة بين أكبر الأسواق العالميّة وأصبحت مكّة مركز التحكم فيها، وعرف العرب ذلك الفضل لقريش فازدادوا احترامًا لها.

II– المكونات المعنوية للحَضَارَة:

لم تكُن حَضَارَة مكّة مادية فحسب، بل على العكس، غلب عليها الجانب المعنوي، فعرفت ثراءً معنويًّا فكريًّا وأدبيًّا وأخلاقيًّا كبيرًا كان بمثابة مفتاح تقبل بعض أهلها –ثم كلهم في ما بعد– الإِسْلاَم بما فيه من رقي روحي لا نهائي. والمثير للتأمل أن ذلك الشّقّ بالذات من الحَضَارَة لم يكن مقتصرًا على مكة وحدها، بل شمل معظم جزيرة العرب.

– القوانين والأعراف:

لم تكُن للعرب من قوانين مكتوبة إلا بعض العهود، ولكنهم كانوا شديدي الصرامة في التعامل مع قوانينهم وأعرافهم العامة، فكان معروفًا لكل قبيلة نظم وطرق تعامل جاراتها، وكذلك النظم العامة لتعاملها جميعًا.

كانت أشهر العقوبات هي "الخَلع"، فكانت القبيلة أو العائلة تخلع من يصرّ على مخالفة نظمها وأعرافها، ويعرضها للفضيحة بين القَبَائل، فكان يقف أحد آل ذلك المارق في الأسواق الشهيرة وينادي بأن "فلانًا قد خلعناه، فلا نطالب بدمه إذا قُتِل ولا نطالَب بجريمته إذا أجرم" وكان ذلك عقابًا رادعًا لمن يفكر في مخالفة التقاليد العتيدة للعرب، ... تلك المتعلقة بالجوانب الأخلاقية.

الثقافة والعلم:

مما يُظهِر تحضر العَرَبِيّ القديم ذلك التداخل بين أدبه -بالذات الشعر- وحياته، فمساجلات الشعراء كانت معارك لا تقل أهمية عن معارك السيف والرمح، وكان الشعر بمثابة تدوين للأحداث السِّيَاسيَّة والاجْتمَاعيَّة -بكل أنواعها وأشكالها- ولذلك فإن أغلب الشعراء لم يكونوا مجرَّد شعراء مأجورين بمكافأة من هذا ومنحة من ذاك، بقدر ما كانوا يمارسون عملاً يجمع بين "التأريخ" و"الإعلام"، ولهذا فإن القبيلة التي كان يظهر بها شاعر فذ كانت تحتفي به وترعاه وتهيب بها ما حولها من قَبَائِل وعائلات، ولهذا فقد سجل لنا تاريخ الشعر أسماء لشعراء عظام رفعوا رؤوس آلهم، كحسان بن ثابت (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) والزبير بن عبد المطلب بن هاشم، والأعشى، والنابغة الذبياني، وغيرهم.

أما الأشكال الأخرى للأدب، فكانت تقوم على الخطابة والحكمة وقصص السابقين، وكانت سوق عكاظ هي الملتقى الأبرز لكل من يمارس الأدب بكل أنواعه، ومساحة للمفاضلة والمفاخرة وتبادل الخبرات والتعرف على أشكال جديدة من الشعر والخطابة.

العلوم كذلك نالت نصيبها من اهتمام العرب، صحيح أن إمكانياتهم البسيطة في ذلك الحين لم تكن لتجعلهم موضع مقارنة بحضارات عظيمة كبابل ومصر، إلا أنهم كذلك لم يكونوا على جهل مطبق بالعلوم الضرورية لحياتهم، فالطب كان له نصيب من اهتمام بعضهم، كالحارث بن كلدة الحكيم الشهير الذي طلبه كسْرَى والتمس منه النصيحة الطبية، وعرفوا كذلك علوم القيافة والفراسة، وهي ما يشبه الآن "علم الفيسيونومي- علم الملامح البشرية"، إذ كانوا يحتاجونها لحل الشجار حول نسب رضيع إلى هذا الأب أم ذاك، وللتثبت من الأنساب، وعرفوا كذلك علم قص الأثر، وهو علم شديد الأهمية يعتمد على قراءة آثار أقدام البشر والدوابّ لمعرفة تحركاتها وتتبعها، وقد برعوا فيه حتى بلغ أن بعض قصّاصي الأثر كانوا يفرقون بين أثر قدم الثيِّب من البِكر! عرفوا كذلك قراءة النجوم للاستدلال على الطريق، وعرفوا كيف يجدون آبار المياه الجوفية اللازمة لسقياهم

خلال السفر. الخلاصة أن اهتمامهم العلمي تركز على ما يعنيهم من علوم ترتبط بطبيعة حياتهم القائمة على الرعي والتجارة والتنقل هنا وهناك.

– الأخلاق والقيم:

فلنعترف أولاً أن ذلك الشّق من الحياة كثيرًا ما يتأثر بالحياة الدِّينيَّة، ولنعترف أيضا أن الوضع الأخلاقي العَرَبِيّ في ما قبل الإِسْلاَم لم يكن على ما يُرام، ولكنه كذلك لم يكن بالحيوانية التي تصورها بعض الكتابات، فلم يعدم العرب –بالذات المكيُّون– رجالاً ونساءً عرفوا الأخلاق الحميدة والتزموها، بل وكافح بعضهم الموبقات المنتشرة في المجتمع آنذاك. فقيم مثل "نجدة الملهوف" و"نصرة المظلوم" و"إكرام الضيف" كانت منتشرة بين العرب وممدوحة فيهم، أما النقائص مثل الزنا وشرب الخمر فينبغي أن نفصلها عن الأخلاق، إذ إنها "نقائص سلوكية" قد يكون مرتكبها متحليًا بالأخلاق الكريمة، بمقاييس مجتمعه، وعلينا أن نلاحظ أن أغلب من كانوا يفعلون ذلك كانوا يعتبرونه أمرًا عاديًّا لا يعيبه دين ولا أخلاق. ولكن حتى ذلك الاقتناع بطبيعية السلوك كانت تعلو أصوات تعترض عليه، فعثمان بن مظعون (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) وعبد الله بن جدعان –وهما من سادات مكّة– كانا ممن قد حرّم على نفسه الخمر قبل نزول الإِسْلاَم، وكان أمثالهما كثيرين في أنحاء مكّة، وذلك لمَا لاحظوه من أثر سيئ لها على الوعي، والزنا إن كان مقبولاً في حق الجواري والإماء فإنه لم يكن كذلك للحرائر، بدليل أن هند بنت عتبة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) حين بايعت الرَّسُول (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) على الإِسْلاَم مع نساء قريش، وأمرهن الرَّسُول أن لا يزنين، قالت متعجبة: "أوَتزني الحرة يا رسول الله؟"

ولو لم تكُن للأخلاق مكانتها العالية في مكّة ولدى العرب عمومًا ما كان المكيون ليلقّبوا الرَّسُول (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) بـ"الصَّادق الأمين"، وهو من قال: "إنما بُعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاق"، أي أن ثمة مكارم وثمة أَخلاقًا وُجِدَت، وإنما جاء الإِسْلاَم ليَتمها.

– الختام:

قد يحسب البعض أن الاعتراف بفضل الإِسْلاَم يقتضي ذمّ ما قبله بالكامل، وأن الإسلاسم دين جاء فهدم كل ما قبله وسوّاه بالأرض ثم أقام حَضَارَة من الصفر. هذا اعتقاد خاطئ، فالإِسْلاَم –في كل مجتمع دخله– كان يجد أمورًا تستحقُّ الهدم فيهدمها، وأمورًا تحتاج إلى إصلاح فكان يصلحها، وأمور أخرى يمكن أن يتبناها ويضمُّها إليه،

فكان يفعل ذلك، والدليل أن أغلب المجتمعات التي اعتنقت الإِسْلاَم لم يتغير في نظمها الكثير، بل إن مكّة ذاتها أبقى الرَّسُول (عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ) على أغلب أنظمتها من سقاية ورفادة وحجابة البيت، ولم يغير منها إلا ما كان مخالفًا للدين، أو غير ملائم للطبيعة الجديدة للدولة المركزية الناشئة وعاصمتها المَدينَة المنورة.

ولو أننا نظرنا إلى سلبيات المجتمع المكي ومجتمع الجزيرة كله قبل الإِسْلاَم، وحكمنا عليه بناء عليها أنه مجتمع جاهلي بالكامل، لا في ما يخص الدين فحسب، فإننا نظلمه ونكيل بمكيالين عندما نرفض ضمه إلى المجتمعات المتحضرة كمصر وبابل واليونان، رغم أنها كانت -آنذاك- مجتمعات وَثَنيَّة بها ما بها من سلبيات.

إن الإنصاف يقتضي تحليل العَنَاصر المكونة للمجتمع -أي مجتمع- قبل الحكم عليه، لا تعميم مصطلح يصف جزءًا منه، عليه برُمَّته.

لقد كانت مكّة -والجزيرة كلها- تعيش في جاهلية "دِينِيَّة" في ما قبل الإِسْلاَم، أما في ما عدا ذلك، فقد كانت حَضَارَة كأي حَضَارَة، فقط مع اختلاف بسيط في مظهرها، فبينما كانت أغلب الحضارات نهرية كمصر والعراق أو بحرية كفينيقيا واليونان واليمن، كانت حَضَارَة مكّة صحراوية، وهذا أمر لا يُخرِجها من قائمة الحضارات القديمة، لو أردنا إحقاق الحق.

المفسدون في الأرض – الجزء الأول

مُخْطِئ من يعتقد أن أول فساد في الأرض كان قتل قابيل لأخيه هابيل، فالفساد الحقيقي بدأ من نشأة "الفكر" الذي سمح لقابيل أن يستبيح دم أخيه. نعم، فلا أكثر فسادًا في الأرض من فكر فاسد يقلب الظلم عدلاً والباطل حقًّا والشرَّ خيرًا..

عن المفسدين في الأرض.. عن كل من أفسد عقلاً ونشر فكرًا مختلاً أدَّى به إلى إعادة مجتمعه خطوات إلى الوراء بدلاً من أن يتقدم به.. نتحدث..

تاريخ الفساد قديم، وصوره متنوعة بتنوع الشعوب والدول، والمرء يحتار في البحث عن بداية، فلا يجد إلا النماذج الحية في الذاكرة من تاريخ الحضارات القديمة.. ولأن اليونان كانت قديمًا رائدة للفكر الحر، ومُصَدِّرة للأفكار الفلسفية –البنّاء منها والهدام– فلتكن البداية منها.

I– السوفسطائيون:

البداية:

كلمة "سوفسطائي" كانت تعني –آنذاك– "المعلم"، وكانت تطلق على طائفة من المعلمين الجوالين المنتشرين في مدن اليونانِ قبل الميلاد بأربعمئة عام تقريبًا، حيث كانوا

يمارسون عملهم لقاء أجر مادي. وكانت مجالات تعليمهم متنوعة، فمنهم من يعلّم البلاغة ومنهم من يعلّم الفلسفة ومنهم من تخصص في قواعد اللغة.. إلخ. في ذلك الوقت كانت المدن اليونانية -بالذات أثينا- تشهد ثورة فكرية عارمة على الأفكار التقليدية المتوارثة وعلى كل ما هو ثابت وراسخ في ضمير اليونانيين الذين انتشر بينهم تيّار قوي يدعوا إلى هدم كل الأسس الدِّينيَّة والأخلاقية والسِّيَاسيَّة التي نشأ عليها المجتمع، من أجل إعادة بنائه من جديد فقط بما تقبله العقول الثائرة المتمردة. مشكلة تلك الدعوة أن ظاهرها جذاب، بينما هي في الحقيقي تهدد بدمار المجتمع، فهدم كل ما بُنِيَ عليه -بلا استثناء- يعني هدم أسسه وإقامة حاجز بين ماضيه ومستقبله، بالإضافة إلى صعوبة اتفاق الثائرين على مبادئ واحدة يبنون عليها المجتمع الجديد، ممَّا يعني أن تلك الحركة بدلاً من أن تكون حركة تجديدية لما هو موجود، ترفض ما لا يناسب المجتمع وتقبل فقط ما يتلائم مع المرحلة القادمة منه، أصبحت حركة هدامة تعيد مجتمعها قرونًا إلى الوراء، إلى ما قبل اتفاق أفراده على القيم والأسس التي أقاموه عليها من البداية. معول الهدم نال من النظام الأرستقراطي للحكم فهدمه وأحل محله النظام الديمقراطي، ثم وصل إلى قواعد العلم فشكك فيها وأهدرها، ونال بعد ذلك من الآلهة فسخر منها ورفضها، كل هذا كان يكون مفيدًا، لولا وصول التيّار إلى الأخلاق، ممَّا أشاع حالة من الفوضى الأخلاقية في المجتمع الذي انتشر فيه الانحلال والفساد خصوصًا بين الجيل الناشئ المتبني لتلك الفكرة.

السوفسطائيون التقطوا تلك الثورة على الثوابت وقرروا إذكاءها وركوب موجتها، فانشَؤوا فكرهم الفلسفي الذي اشتهروا به على مر التاريخ. وظهر بينهم الرواد في هذا الفكر وأشهرهم "بروتاجوراس و"جورجياس و"بروديكوس و"هبياس"، وأخذوا على عاتقهم مهمة تعليم الشباب طرق الوصول لتحقيق أعلى المكاسب السِّيَاسيَّة والوصول إلى أرفع المناصب من خلال تعليمهم طرق اللعب بالألفاظ وكسب السجالات الحوارية من خلال البراعة في البلاغة والقدرة على قلب الحقائق باستخدام المهارات اللغوية، بحيث يكسب تلميذهم النقاش لا لقوة حجته وعدالة قضيته بل فقط لقدرته على استخدام اللغة وتصويراتها البلاغية وفصاحته بها في إقناع الآخرين بما يقول. وكان هذا أمرًا مفيدًا -من الناحية النفعية البحتة- في ظل النظام الديمقراطي الثوري الناشئ الذي اختلَّت فيه مقاييس الصواب والخطأ ومعايير صلاحية هذا الفرد أو ذاك لهذا المنصب أو ذاك.

- **الفكر:**

كان فكر السوفسطائيين ببساطة يقوم على أن الإنسان هو مقياس كل شيء. فبعد أن كان الناس يؤمنون أنهم يعرفون الأشياء من خلال الحواس التي تراها أو تسمعها أو تشمُّها أوتلمسها، والعقل الذي يترجم ما تتلقاه الحواسُّ إلى إدراك لها ولطبيعتها، قال السوفسطائيون بأن الإنسان هو الذي يحدد ماهية الشيء فضلا عن وجوده من الأساس، فأنت إن رأيت شيئًا فهو موجود وإن لم يره غيرك، وإن لم تره فهو غير موجود حتى لو أجمع العالم كله على رؤيته، و لم يجعلوا تلك الفكرة منطبقة على الماديات فقط، بل عمَّموها وجعلوها تشمل -في الأساس- المعنويات من حق وباطل وعدل وظلم، فجعلوا الإنسان مقياسًا لهذه الأشياء، فمن ير في أمر ما عدلاً فليفعله حتى إن رآه آخرون ظلمًا، وإن رأى لنفسه حقًّا في فعل ما، فهو الحق حتى إن قال غيره إنه باطل ما دام لديه قوة فرض هذا "الحق" وعلموا تلاميذهم أن يجيدوا الدفاع عن الشيء ونقيضه بنفس الحماسة بحيث يكسبون القضية على أساس التلاعب بالكلمات بشكل يربك خصمهم ويقنع الحكم بأن ما يقال هو الحق المطلق ولو كان باطلا، حتى إن أحد أساتذتهم (وهو جورجياس) قال: "ليس من الضروري أن تعلم شيئًا عن موضوع النقاش لتجيب عن السؤال المطروح عليك، بل يمكنك كسب المحاورة من خلال بلاغتك وفصاحتك"، ممَّا يعكس طريقة تفكيرهم.

- **الفساد والسقوط:**

الفكر السوفسطائي أدى إلى موجة عاتية من اختلال المعايير في المجتمع اليوناني القديم، وهدَّد الثوابت الأخلاقية والقيم الحضارية لهذا المجتمع بالضياع، ونشر حالة من الفوضى بين شبابه الذين استهوت دعاوى السفسطة جهالهم وجذبتهم إليها بما فيها من وعود براقة بتحقيق أعلى المكاسب الشخصيَّة دون وجه حق. كما هدد المجتمع بانتشار الجريمة والظلم المتبادل بين من يعتبرون أنفسهم مقاييس حصرية للحق والعدل والخير، فقط لأنهم يؤمنون بذلك دون سند أو دليل. تلك الأخطار أثارت خوف العقلاء والمحافظين من اليونانيين، بالذات الأثينيين، فثاروا على السوفسطائيين وطاردوهم في كل مكان وأحرقوا كتبهم، بالذات رائد المدرسة السوفسطائية "بروتاجوراس الذي شكك في آخر كتبه في وجود الآلهة فخرج عليه أهل أثينا وأحرقوا كتبه، ممَّا دفعه إلى الفرار منهم إلى صقلية، ولكن المركب الذي استقله جرفته عاصفة قوية وحطمته، فغرق. وبتلك الثورة العارمة لصالح التقاليد والقيم الأخلاقية، دُمِّرَ اتجاه السوفسطائية تمامًا وانهار.

II- مأساة سُقراط:

وكما شهدت اليونان رجالا نشروا الفساد الفكري بين شبابها، شهدت من حاول إصلاح ما أفسده السوفسطائيون، فدفع حياته ثمنًا لجهل المتعصبين على تقاليدهم القديمة، والرافضين لأي فكر تجديدي مثمر.

- البداية:

بعد هزيمة السوفسطائية، حاول سقراط أن يصلح ما أفسده ذلك التيار المدمر، من اقتناع الكثيرين أنهم حكماء فقط لأنهم يجيدون اللعب بالكلمات. فكانت فلسفته تعتمد على المحاورات وطرح الأسئلة على مدعي الحكمة واحدًا تلو الآخر حتى يصل المدعي لمرحلة العجز عن الإجابة فإما أن يعترف بجهله ويطلب العلم من جديد، أو أن يُفضَح عناده وادِّعاؤه ويعلم الناس حقيقته. كان سبب قيام سقراط بذلك هو ما هاله من انتشار من يدَّعون الحكمة ومن يحسبون أنفسهم حكماء، فخشي من تَعرُّض مجتمعه لهزة فكرية مدمرة جديدة، فبدأ يتحرك في الأسواق والشوارع والأماكن العامة ويستوقف مدّعي الحكمة ويحاورهم ويغلبهم واحدًا تلو الآخر.

- طريقته وأفكاره:

كانت طريقته تعتمد على إعلانه أنه جاهل يطلب العلم والحكمة من الحكماء، ويذهب إلى الرجل المعروف بالحكمة ويطلب منه أن يناقشه في تلك المسألة أو تلك ليستفيد -سقراط- من حكمة محدثه وعلمه الغزير. فيقع الرجل في الفخ ويبدأ في الحديث، وكلما قال شيئًا أثنى سقراط على حكمته وطرح سؤالاً قويًا عن هذا الشيء، وهكذا حتى يتعب الرجل ويعترف بجهله. وكان سقراط يرفض أن يوصف بالحكيم، فيقول عن نفسه -عن اقتناع- إنه جاهل ينشد العلم وإنه مجرَّد محب للحكمة يبحث عنها، إيمانًا منه أن هذه هي الطريقة الوحيدة لنيل العلم الحقيقي والحكمة العالية.

ولكن سقراط بدأ في التطرق بكلامه إلى السِّيَاسَة.. فأثار عليه حفيظة أعدائه واكتسب منهم المئات!

- أعداء سقراط:

قام سقراط بمهاجمة فكرة الديمقراطية، حيث استنكر أن يصل الزُّرَّاع والصُّنَّاع إلى الحكم وهم غير متخصصين في السِّيَاسَة ولا عاملين بها ولا خبرة لهم بشؤونها، وهاجم

كذلك الحكم الأرستقراطي حيث استنكر احتكار فئة بعينها للحكم، ممَّا أثار ضده عداوة أنصار الاتجاهين، بالذات الديمقراطيون الذين ما إن انتصروا في صراعهم ضدّ النظام الأرستقراطي حتى قرروا الانتقام من سقراط.

الديمقراطيون تحالفوا ضده مع من فضح جهلهم من مدعي العلم والحكمة، وكذلك مع المحافظين المتشددين الذين خشوا أن يكون سقراط داعيًا سوفسطائيًا جديدًا، وقرر المتحالفون تقديمه للمحاكمة بثلاث تهم: إنكار الآلهة، الدعوة إلى آلهة جديدة، إفساد عقول الشباب.

- المحاكمة والنهاية:

وُجِّهَت التهم الثلاث إلى سقراط وكان بريئًا منها بحق، فبالنسبة إلى اتهامه بازدراء الآلهة، فقد كان سقراط يقدس آلهة اليونان ويتحدث عنها بالخير، وبالنسبة إلى تهمة الدعوة إلى آلهة جديدة، فقد كان سببها قوله إنه ليس مخيرًا وإنما مسيَّر يستمع لصوت داخلي يأتيه، وليس في كلامه ما يدعو إلى آلهة غير آلهة الأوليمب. أما تهمة إفساد الشباب فكان على العكس يحاول إصلاحهم بعدما أفسدهم السوفسطائيون.

جرت المحاكمة بعد أن مثّل الأدعاء عليه ثلاثة من أعدائه: "ميليتوس" و"لايكون" و"أنيتوس"، وكان هذا الأخير من زعماء الديمقراطيين الراغبين في التخلص من سقراط. وبدلاً من أن يطلب سقراط الرحمة من القضاة، قدم حججه بقوة وأشار إلى أن موقف قضاته شائن حين يحاكمون رجلاً يريد إصلاح مجتمعه، فغضب القضاء وحكموا بإدانته، وقضوا بإعدامه بالسُّمِّ بناءً على طلب المدعين ضده.

تم حبس سقراط تمهيدًا لإعدامه، وعرض عليه أتباعه تهريبه خارج السجن والبلاد كلها، وكان هذا آنذاك شديد السهولة نظرًا إلى انتشار الفساد وسهولة رشوة الحراس. ولكن سقراط الذي كان ينادي باحترام القوانين رفض أن يخالف مبدأه إنقاذًا لحياته، وخضع للحكم الذي نُفِّذَ فيه بعد ثلاثين يومًا من محاكمته.

- الخلاصة:

كل من قصة السوفسطائيين وسقراط تعكس جانبًا للفساد، فالقصة الأولى كانت لأناس نشروا الفساد في مجتمع محافظ بُنِيَ على التقاليد والقيم والفضيلة، فهاجمهم

المجتمع وأنقذ شبابه منهم. والقصة الثانية لرجل حكيم نبيل حاول أن يسهم في إصلاح مجتمعه، فعامله ذلك المجتمع بأشرس وأعنف طريقة ممكنة فقط لأنه (المجتمع) تشدد في رفض التجديد واعتبر أن كل صاحب فكر حر، ساعٍ للهدم والتدمير.

بمعنى أدق، فإن مجتمع أثينا الذي حارب المفسدين وعلى رأسهم بروتاجوراس السوفسطائي، تشدد في موقفه حتى لم يعد يفرّق بين مصلح ومفسد، ممّا جعله يقضي على رجل مصلح هو سقراط، وبالتالي تحول هنا المجتمع نفسه إلى مفسد لنفسه وعدو لذاته، في موقف يدفعنا إلى تأمل ما يطرأ على المجتمعات من تغيرات حادة يمينًا ويسارًا، فتارة هي مصلحة تحارب المفسدين، وأخرى هي مفسدة تعادي المصلحين..

وللأسف، فإن الإنسان يصر على تبنّي أخطاء أسلافه. فمذهب السوفسطائيين (السفسطة) ما زال الغالب على أسلوب البعض في تفاعلهم مع المشكلات والمناقشات، فيُلبسون الحق رداء الباطل ويلونون الباطل بألوان الحق، ممًا يجعل المرء يحار فيهما فيفقد المجتمع معاييره للصواب والخطأ.

ومأساة سقراط ما زالت تتكرر إلى يومنا هذا، فكم من مصلح حاربه قومه فقط لأنه جاء بجديد، دون أن يفكروا إذا كان ذلك الجديد لصالحهم أم لغير ذلك، معتقدين أنهم إنما يحمون مجتمعهم من التيَّارَات المدمرة للتقاليد التي تحولت لديهم إلى أوثان هم عليها عاكفون.

إن عالم اليوم هو التلميذ الذي تعلم جرائم الماضي –أستاذه– فتفوق عليه..

مصادر المعلومات:

١- فلاسفة أيقظوا العالم: د/ مصطفى النشار.

٢- قصة الفلسفة اليونانية: د/ زكي نجيب محمود، د. أحمد أمين.

المفسدون في الأرض - الجزء الثاني

أن تعتبر نفسك واحدًا من "شعب الله المختار"، أن ترى أنك وبني قومك بشر لكم حقوق وتطلعات ومن سواكم "أغيار" لا حقوق لهم على الإطلاق، أن يُصبِح مبدؤك أن "الكل أعدائي.. الكل يريدون محاربتي والقضاء عليّ ولكي أحمي نفسي يجب أن أعاملهم بأعتى أنواع الأذى والخداع وتزييف الحقائق"، أن تحوّل دينك من رسالة سماوية عليا راقية نزّلها الله ليجعل من الإنسان كائنًا أرقى، إلى عنصرية وتعصب وتحفز ورفض دائم للآخر... ماذا يكون هذا إلا فسادًا جديدًا في الأرض؟

- نقطة التحول:

عندما غزا نبوخذ نصّر -الملك البَابِلِيّ- مملكة يهودا، دمّر أورشليم وخرّب الهيكل وأحرق التوراة وقسّم اليَهُود المأسورين ثلاثة أقسام: قسم استعبده وقسم قتله والقسم الأخير حمله معه إلى بابل في ما يُسَمّى "السَّبْي البَابِلِيّ" تلك التجرِبة القاسية -وما سبقها من تجارِب عنيفة مع الآشوريِّين والمِصْرِيِّين من قبل- أحدثت في عقلية نسبة ضخمة من اليَهُود تغييرًا جوهريًّا بقيت آثاره العميقة حتى الآن.

الخوف الدائم من الآخر، الافتراض المطلق لسوء نيات المحيط، الاستعداد للإيذاء لمجرّد الشك، استباحة الخداع والغش والإضرار بالآخرين لمجرّد أنهم كذلك، الوحشيّة المفرطة في استخدام العنف مع الخصم، كلها صفات سعى رجال الدين اليَهُود -آنذاك-

لنشرها بين قومهم، اعتقادًا منهم أنهم بذلك يُحدثون في الشخصيَّة الْيَهُوديَّة التغيير المنشود ليصبح الشعب الْيَهُوديّ أكثر قدرة على التفاعل مع محيطه، خصوصًا بعد أن هزم قورش (مؤسس الدَّوْلَة الفَارِسيَّة) مملكة بابل وحرر الْيَهُود ونقلهم إلى أرض فلسْطين مجددًا. ومن المعروف أن تلك المنطقة كانت –لفترة طويلة جدًّا– ممرًّا هامًّا لجيوش الممالك الكبرى وساحة للمنافسة بين دول العراق ووادي النيل ومنطقتَي الشام والأردن، الأمر الذي أدركه كبار رجال الدين والسِّيَاسَة الْيَهُود ورأوا أن السبيل الوحيد للتعامل معه هو تعديل الشخصيَّة الْيَهُوديَّة بحيث تصبح أكثر تشككا وعدوانية واستعدادًا للتعامل مع الآخرين بكل حدة ودون أدنى رادع عن استخدام أعتى ألوان العنف والتآمر.

ذلك التفكير كان متطرفًا للغاية وغير مُبَرَّر، والدليل أن من بين الدول المجاورة لمملكة يهودا دولاً كانت تشغل مواقع متميزة مطموع فيها بشكل دائم بل وتعرضت بشكل مستمر لغزوات وهجمات، كالمملكة الْمِصْريَّة مثلاً أو المدن الفينيقية، ومع ذلك، لم يكن من سياسات حكومات تلك الدول أن تزرع في شعوبها ذلك النوع العنيف من "جنون الاضطهاد" الذي زرعه زعماء المملكة الْيَهُوديَّة في شعبهم.

– شعب الله المختار، والأغيار:

الْيَهُود كانوا من بداية بعثة موسى (عَلَيْه الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ)– لهم، يؤمنون أنهم شعب الله المختار، وقد كانوا كذلك بالفعل، فقد كانوا وحدهم يؤمنون بالله في عالم اعتنقت فيه الشعوب مئات الآلهة من دونه، عزَّ وجلَّ.

وقد تعددت التفسيرات لنظرية "شعب الله المختار"، فمنهم من قال إنها بمثابة "أمر إلهي من الله الذي اختار الْيَهُود الذين اختيروا"، ومنهم من فسَّرها بأنها تكريم من الله لليهود وتفضيل على العالمين، وآخرون قالوا إنها مصير مكتوب على ما يسمى بأمة الْيَهُود. التفسيرات الثلاثة كانت تعني –لأي شخص عاقل– أن الاختيار يؤدي بشكل تلقائي ومنطقي إلى مسؤولية على أكتاف المختارين أن يكونوا عوامل نهضة للإِنْسَانيَّة، ولكن التلاعب والنظرة الضيقة للأمر جعلا كبار الْيَهُود يأخذون من الاختيار شقَّ التشريف دون شقِّ التكليف، ونشروا بين شعبهم فكرة أن "الْيَهُود لا تنطبق عليهم أحكام التاريخ" وبالتالي فإن من حقهم أن يفعلوا كل ما يرون أنه في مصلحتهم دون خوف من إدانة تاريخية تسري على غيرهم إذا أخطأ.

الفساد الفكري لم يكن في مجرَّد وجود الإيمان باختيار الله للشعب الْيَهُوديّ، ولكن في

تفسير وتعريف المتطرفين من الْيَهُود لذلك الاختيار. فبعد أن كان يعني وضع المسؤولية الإلهية عليهم لنشر عبادة الله بين الأمم، أصبح يعني لهم التعصب للذات واحتقار من سواهم -أو من سماهم الْيَهُود بـ"الأغيار" (جوييم)- واستباحة العدوان على دم ومال وعرض هؤلاء الأغيار، باعتبارهم "كائنات أقل منزلة من الإنسان الْيَهُودي" وبعد أن كان تكريم الله للنفس البشرية والأمر بصونها مستمَدًّا من إنْسَانيَّة صاحبها بغضِّ النظر عن جنسه ودينه وعِرْقه، أصبح يقتصر فقط على من كان يهوديًا، ممّا جعل العدوان على دم ومال وعرض غير الْيَهُوديّ عملاً غير محرَّم، بل ربما كان مطلوبًا ومأمورًا به حسب فتوى بعض أحبار الْيَهُود.

ولأنهم اعتبروا أنفسهم الممسكين بمفاتيح اللعبة، سعى كبراء الْيَهُود للتلاعب بالقوانين بحيث تفرق في الجزاء بين العدوان الواقع من يهودي على يهودي ومن يهودي على أحد الأغيار، بحيث تشدد العقاب على النوع الأول وتخففه -أو قد ترفعه تمامًا- عن النوع الثاني.

ولكي يكون لتلك العملية الكبرى في تزوير الدين سند شرعي، وضع بعض رجال الدين الْيَهُود -في أثناء فترة السَّبْي الْبَابِليّ- تفسيرًا للأوامر الإلهية التوراتية والموسوية بشكل عام أطلقوا عليه اسم "التلمود"، وهو لفظ مستمد من الكلمة العبْرِيَّة "لامد" تعني "الدرس والتعلم"، اختلفت نسخه من حيث المساحة والتناول ولكنها اتّفقت من حيث احتوائها على الكثير من المواد التي تكرس التعصب الدِّينِيّ والعرقي وتزرع روح العنصرية في شخصيَّة الْيَهُوديّ المؤمن بالتلمود الذي تعتبره نسبة لا بأس بها من الْيَهُود كتابًا أكثر قدسية من التوراة ذاتها!

ذلك التزوير في صميم الدين الْيَهُوديّ، متلازمًا مع ما لرجال الدين من مكانة في مجتمعات الشرق القديم بشكل عام، وكذلك مع الاتجاه الطبيعي لليهود للتعلق بالروحانيات والميل إلى التديُّن خلال أزمة سبيهم وما تلاها، أديا إلى عملية تغيير نفسي وفكري ضخمة في شخصيَّة معظم الْيَهُود، بقيت آثارها حتى يومنا هذا ولكن بصور أكبر وأعمق.

- **الدَّوْلَة الوظيفية:**

معظم الْيَهُود، في ما بعد مرحلة السبي، أصبحوا شخصيات مصابة بالبارانويا، تنتظر دائمًا الأذى وتتوقعه من الآخرين وتتوجس منهم. ممّا جعل للجماعات البشرية الْيَهُودِيَّة

سمات خاصّة، سواء كانت في شكل دول مستقلة أو شبه مستقلة، أو كانت في شكل جَمَاعَة تعيش جزءًا من بنيان دولة.

وما كان سائدًا في العالم القديم هو شكل الدَّوْلَة اليَهُودِيَّة كدولة وظيفية، أي دولة تنشأ وتعيش في ظل حماية دولة أو دول أكبر، أسهمت في بناء ودعم تلك الدَّوْلَة لكي تؤدي وظيفة واضحة.

هذا ما كان من مملكة يهودا في ما بعد التحرر من السبي، فخلال عهود الصراع بين ورثة الإسكندر الأكبر –السلوقيّين في الشام والبطالمة في مصر– لعبت الدَّوْلَة اليَهُودِيَّة دور الخادم المطيع لكلتا الدولتين الكبيرتين، حسب تَفَوُّق كل منهما، فإذا ارتفعت أسهم البطالمة هُرع إليهم كبار اليَهُود مقدمين فروض الطاعة والولاء، وإذ تفوق السلوقيُّون سارع نفس الكبار لإعلان خضوعهم التامّ لهم. وتطور الأمر بشكل أكبر خلال عهد سيطرة الرُّومَان على الشرق القديم، فقد لعبت الدَّوْلَة اليَهُودِيَّة دور الجندي المُخْلص للسادة في روما، وذلك بضرب جيرانها لصالح الرُّومَان ليسهل على هؤلاء الأُخَر احتلال المنطقة دون مقاومة تُذكَر.

ذلك الدور المدمر للمملكة اليَهُودِيَّة لم يكن –بالتأكيد– العامل الأساسي في سقوط الشام ووادي النيل تحت الاحتلال الرُّومَاني البشع، ولكنه كان عاملاً يشير إلى مدى سوء نيات تلك الجَمَاعَة البشرية واستعدادها للغدر بجيرانها "الأغيار" ظنًّا بزعمائها أنهم بذلك ينقذون "الشعب المختار من "الأغيار الآخرين"، أي أن الأمر كان يجري من منظور "ضرب الأغيار بالأغيار ذلك الدور كان نتيجة طبيعية للعبث الفكري المنظم بمعتقدات اليَهُود، من قبَل كبار علماء دينهم، وجعلهم يؤمنون بأن كل شيء مباح مع الآخرين ما دام يحقق مصلحة الشعب اليَهُوديّ الراقي.

– الثمن:

ولكنّ لتلك السِّيَاسَة ثمنًا باهظ دفعه الشعب اليَهُوديّ. فذلك الدور الذي فرضه كبارهم على شعبهم خلق حالة من "توقف التاريخ" فبخلاف جيرانهم، لم ينتج اليَهُود –آنذاك– ثقافة حضارية كما فعل المْصْريُّونَ والفينيقيون والبَابليُّونَ والأنباط، بل اقتصر دورهم على ضرب الآخرين والتعرض للضرب منهم، ممَّا وطَّد الفكرة السائدة عنهم وقتها كجَمَاعَة لا تجيد سوى التدمير والقتال لأجل الآخرين، أي أن زعماء اليَهُود حوّلوا شعبهم بالكامل إلى مرتزقة لصالح غيرهم، وبدلاً من أن يتعاونوا مع جيرانهم لطرد المحتل

الرُّومَاني وخلق عملية تبادل حضاري شرقي كبيرة –كما كان يفعل هؤلاء الجيران– صحوا بمثابة معول هدم للأمم المجاورة، بل ولأنفسهم، فمعنى تحولهم لـ"دولة وظيفية" هو أنهم اختاروا ربط وجودهم بوظيفة محددة، طالت فترتها أو قصرت، مصيرها الانتهاء. وهذا ما حدث، فبعد أن لعبت مملكة يهودا الدور الكبير في ضرب البطالمة والسلوقيين خلال فترات ضعفهم وصعود نجم الرُّومَان) وكذلك إضعاف الأنباط، وبعد أن استقرّ النسر الرُّومَاني على الشرق بشكل كامل، أصبح الشعب الْيَهُوديّ في فِلَسْطِين مجرّد عالة على روما التي أدارت وجهها عنه بالتجاهل أولاً، ثم كشّرت له عن أنيابها وأحدثت في الْيَهُود مجازر ومقاتل عنيفة وانتهى الأمر بأن طرد الرُّومَان الْيَهُود خارج أرض فِلَسْطِين وحرّموها عليهم، حتى فتحها العرب في عهد عمر بن الخطاب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) وسمحوا للعائلات الْيَهُوديَّة بالعودة إليها.

– الخيط الممتد:

كل تلك الكوارث التي حلّت بالشعب الْيَهُوديّ قديمًا كانت نتيجة طبيعية للتزييف الذي تعرضت له معتقداته على يد قادته، تلك الجريمة التي امتدّ أثرها في شكل خيط طويل عبر التاريخ إلى يومنا هذا وأصبح جزءًا من ثقافة نسبة ضخمة جدًّا من الْيَهُود. ورغم أنهم عاشوا في سلام في عهد الحَضَارَة الإِسْلاَميَّة الممتدة من الصين والهند وسيبيريا إلى الأندلس والمغرب، فإن ذلك الجرح الغائر الذي أحدثه بعض الأحبار في بابل خلال سنوات السبي، بقي أثره متوارثًا لدى بعضهم. فصحيح أن العهد العَرَبِيّ الإِسْلاَمي قد شهد اندماج الجماعات البشرية كلها –بما فيها الْيَهُود– في نسيج الدَّوْلَة، ومدى إسهام الْيَهُود العرب في بناء الحَضَارَة وصدق رغبتهم الاندماج والذوبان في البنيان الحضاري العَرَبِيّ، إلا أن الفكرة المتطرفة لـ"الشعب المختار والأغيار" بقيت كورم سرطاني كامن ينتظر اللحظة المناسبة للتوحش والخروج، كأي فكر متطرف لأي جَمَاعَة بشرية أو دِينيَّة أيًّا كانت. فالتاريخ يعلمنا أن التطرف لا يموت، بل يكمن.

ذلك الخيط وجد لنفسه غزلاً ينسجه عندما انطلقت فكرة الصهْيَوْنيَّة الْيَهُوديَّة وفكرة بناء الدَّوْلَة الإِسْرَائيليَّة الجديدة، كدولة وظيفية أيضًا رعتها دول كبرى هدفت من خلال تأسيسها إلى خدمة أغراض معينة. وكأنما لم يتعلم الذين نادوا بقيام الدَّوْلَة، من الْيَهُود، الدرس القديم. ولأن العرب من "الأغيار" فقد استباح الصهاينة أن يفعلوا كل شيء وأي شيء من أجل دعم هدفهم، من احتلال الأرض العَرَبِيَّة بحجج واهية من نوعية "أرض

بلا شعب لشعب بلا أرض"، وتغيير هوية تلك الأرض لطمس أدلة كذب القائلين بأن فلسطين "أرض بلا شعب"، وإخراج تقارير مفتراة تتهم -زورًا- الحكومات العَرَبيَّة، في ما بعد ١٩٤٨، باضطهاد مواطنيها من الْيَهُود وتنفيذ مجازر بحقهم، والقيام بعمليات تخريبية في الدول المجاورة، واستخدام القوة الغاشمة لضرب السكان الأصليين للأرض المحتلة.

كل تلك الجرائم يعتقد منفذوها أنها "حلال" ما دامت "بحقنا نحن الأغيار" نعم. هناك واقع عسير التصديق يقول بأن الصهْيَوْنِيّ الذي يدير مذبحة أو ينفذ عملاً تآمريًا أو تخريبيًا يؤمن بشرعية ما يقوم به (!) وبأنه يخدم قضية عادلة مستعدًّا للموت في سبيلها.

لا أقول إن كل الْيَهُود يؤمنون بتلك الأفكار الهدّامة -لا قديمًا ولا حديثًا- بل إن من بينهم الآن من قام لمقاومة تلك الآفات الفكرية بعد أن أدرك خطورة أثرها على الْيَهُود والإِنْسَانيَّة كلها، كالبروفيسور الأمريكي الْيَهُوديّ "جوئل بنين" أو كالمفكر الإِسْرَائيلي "د. إِسْرَائيل شاحاك"، وغيرهما. ولكن لأن صوت التطرف لا يحب أن يُسمع سواه، فقد انطلقت الأبواق الصهْيَوْنيَّة تهاجمهما هما وكل من يفكر مثلهما، وتتهمهما بخيانة الْيَهُوديَّة وعصيان أوامر الله، في قلب متبجح للحقائق!

﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزر أُخْرَى﴾ هكذا قال الله تعالى، لكن للأسف، يصر بعض البشر أن يخلقوا بحماقاتهم أوزارًا وهم يريدون -عامدين- أن يحملها أبناؤهم.. وذلك التعصب والتطرف الصهْيَوْنِيّ الدموي المدمِّر هو حصاد تلك البذرة السامة التي زرعها بعض أحبار الْيَهُود في بابل منذ آلاف السنين، ليحمل وزرها أبناؤهم وأحفادهم عبر العصور!

مصادر المعلومات:

موسوعة الْيَهُود والْيَهُودِيَّة والصهْيَوْنِيَّة: د/ عبد الوهاب المسيري.
٢- اليد الخفية: د/ عبد الوهاب المسيري.
٣- الجماعات الوظيفية الْيَهُودِيَّة: د/ عبد الوهاب المسيري.
٤- الصهْيَوْنِيَّة والنازية ونهاية التاريخ: د/ عبد الوهاب المسيري.
٥- الديانة الْيَهُودِيَّة وتاريخ الْيَهُود: د/ إِسْرَائِيل شاحاك.
٦- البداية والنهاية: ابن كثير.
٧- محمد والَّذين معه: عبد الحميد جودة السحار.
٨- الْيَهُود في تاريخ الحضارات الأولى: جوستاف لوبون.
٩- تاريخ الْيَهُود في بلاد العرب: د/ إِسْرَائِيل ويلفنسون.
١٠-تاريخ يهود النيل: جاك حاسون.
١١-أساطير الْيَهُود: لويس جنزبرج.
١٢-الْيَهُود في فِلِسْطين في العصرين البَطْلَمِيّ والسلوقي: د/ هاني عبد العزيز جوهر.
١٣-الشرق الأدنى في العصرين الهلليني والرُّومَانِيّ: د/ أبو اليسر فرح.
١٤-يهود العالم العَرَبِيّ، دعاوى الاضطهاد: د/ زبيدة محمد عطا.
١٥-الْيَهُود في العالم العَرَبِيّ: د/ زبيدة محمد عطا.
١٦-أهل الذِّمَّة في مصر: د/ قاسم عبده قاسم.
١٧-الأسطورة والحكاية الشعبية في العهد القديم: د/ كارم محمود عزيز.

المفسدون في الأرض – الجزء الثالث

الجزيرة العَرَبِيّة–ما قبل البعثة المحمدية:

جزيرة العرب، تلك الأرض المباركة التي شرّفها الله بأن جعل فيها كعبته المشرفة، داهمتها الْوَثَنِيَّة. مئات الأصنام والأوثان والمعبودات من دون الله عزّ وجلّ، أو بالإشراك معه، في وضع يؤلم كل ذي عقل وفكر سليمَين.

ومكّة.. ذلك البلد المكرّم، صارت منارة [هل يشبّه مصدر الشرك والْوَثَنِيَّة بالمنارة؟] للشرك والْوَثَنِيَّة بعد أن كانت الحصن الأخير للتوحيد..

فمن السبب؟

– البداية:

عندما أُسِّسَت مكّة، كان سكانها هاجر وإِسْمَاعيل وأَبْنَاءه (عَلَيْهِمْ [وَعَلَى نَبِيِّنَا] الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ) وقَبِيلَتَي "جُرهُم" و"قُطَوراء" حدث تزاوُج وتمازج بين كل هؤلاء ممّا أنتج المجتمع المكي الأول في صورته القديمة. ولأن مكّة –آنذاك– كانت صغيرة المساحة قليلة الموارد، فقد وجدت القبيلة أن على بعض أبنائها الهجرة من البلدة المباركة التي ضاقت على أهلها، والسعي في الأرض وإقامة مجتمعات جديدة.

كانت تلك أولى الهجرات الكبرى من مكّة إلى أطراف جزيرة العرب، وخرج

مهاجرون وقد حملوا معهم حجارة من الكعبة تذكارًا لوطنهم الأم وبيتهم المعظم، و نطلقوا إلى الأرض العَرَبِيَّة الواسعة حيث أقاموا قَبَائِل كبيرة وأسس بعضهم ممالك ودويلات، وتناسلوا في مهجرهم وأتوا بأجيال جديدة لا تعرف عن مكة سوى أنها رض الأجداد. تلك الأجيال سرعان ما انتشر فيها البعد عن التديُّن والطابع الأصيل حياة العَرَبِيَّة، فرأى المشايخ وأصحاب الرأي الذين شهدوا تلك الهجرة الأولى لقَبَائلهم ناشئة أن يُخْرِجوا لأبنائهم الحجارة التي انتزعوها من الكعبة، ليذكّروهم بأصلهم نبيل، فأخرجوها ووضعوها في أماكن معظمة، وأخذوا يطوفون بها. ولكن كما يقال، فإن الطريق إلى الجحيم مفروش بالنيات الطيبة!

فقد كان ذلك الطواف على سبيل التعظيم لا أكثر، ولكن من قرّروه نَسُوا أن الكعبة تُطاف لا لقدسية أحجارها بل لقدسية موقعها. كانت تلك ثغرة عميقة في محاولة إحياء تديُّن التي قام بها شيوخ قَبَائِل العرب الأولى، لذا فسرعان ما أتت أجيال توهمت أن تلك الحجارة إنما تُعبَد لذاتها، فبدأت أول عبادة لحجر في الجزيرة العَرَبِيَّة. تلك كانت بداية!

- البذرة الأولى:

ولكن قبل أن نركن إلى ذلك التفسير المبدئي لدخول الْوَثَنِيَّة إلى جزيرة العرب في ما بعد رسالة إبراهيم (عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ) علينا أن نضع يدنا على البذرة الأولى لذلك الانحياز الصارخ عن دين الله.

فقد كانت المنافسة على أشدها في مكّة بين قبيلة جُرْهُم بقيادة مضاض بن عمرو، وقبيلة قطوراء بقيادة السميدع، كلتاهما تسعى للسيطرة على الزعامة السِّيَاسِيَّة والتجارية لمدينة، بل والدِّينِيَّة أيضًا، فسعت جُرهُم لاصطناع أصل لنفسها بأن نسبت نفسها إلى جَدٍّ أكبر اخترعته وزعمت أنه كان أحد ملائكة السماء ثم أذنب فنزل منها في هيئة البشر وأتوا هم من نسله. وصاروا يتفاخرون على أهل مكّة وهم يطوفون الحرم قائلين "لاهُمَّ (اللهم) إن جُرهُمًا عبادُكا.. القوم طَرْفٌ وهمُ تِلادُكا"

فلما تَصَدَّت قطوراء لذلك البغي العظيم حاربتها جرهم ودارت بينهما معركة ضارية انهزمت فيها قطوراء وقُتِلَ زعيمها السميدع واستمرت جرهم على بغيها، حتى جاءها يومٌ طُرِدَت فيه من مكّة بالقوة بعد أن ضج أهل البلد الحرام بذلك العدوان على مقدسات الله.

ولكن للأسف، لم يمنع هذا انتشار العبث بالمقدسات وتحويل دين التوحيد إلى وَثَنِيَّة مطلقة، بل أجّله فقط، فإن كان ذلك التحول قد تأخر في مكة، فقد كان سريعًا للغاية في ما سواها من بقاع جزيرة العرب.

– استيراد الآلهة:

موقع الجزيرة فرض على العَرَبِيّ القيام بدور كبير في حركة التجارة الدولية، فكانت قوافله تذرع طرق الشام واليمن ومصر وفينيقيا والعراق، وكانت تعود محمَّلة لا بالأموال والبضائع فحسب، بل بالثقافات المختلفة، بالذات الدِّينيَّة.

فقد أخذ العرب عن المِصْرِيِّين تقديس أرواح الأسلاف، وهذا بتقديس الصالحين من المتوفَّيْن والتوسل بهم في الدعاء، والذي تحول تدريجيًّا إلى عبادة لهؤلاء الأشخاص أنفسهم، كذلك أخذوها عن أسلافهم القدامى الذين عبدوا "وَدًّا وَسُوَاعَ وَيَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا"، وأخذوا عن البَابِلِيِّينَ تقديس النجوم والاعتقاد في تأثيرها على مجريات الأحداث.

أما عن الآلهة أنفسها، فمعظمها مأخوذ –كذلك– عن حضارات أخرى، ولكن تم تغيير اسمه وبعض صفاته ليتلاءم مع الطبيعة العَرَبِيَّة. فـ"مناة" هي في الأصل الإلهة البَابِلِيَّة "مامنتو"، وكانت –على الأرجح– إلهة للقدر والموت، و"العُزَّى" هي –في أقوالٍ– أفروديت، وفي أقوال أخرى "إيزيس"، وكان اسمها أولاً "العزيزة" ولكن العرب كانوا يميلون إلى التفخيم فسمَّوها "العُزَّى" أي "الأكثر عِزَّة"، و"هُبَل" إله الشعر وأعظم آلهة قريش تقديسًا، هو في الأصل "أبوللو" إله الشعر اللاتيني... وهكذا، كان سادات العرب يعودون من أسفارهم بتماثيل يأمرون قومهم بعبادتها، أو يبتكرون آلهة جديدة، وينسجون حولها الأساطير، فيجعلون بعضها بنات الله، كمَنَاة والعُزَّى، أو يجعلون أحدها زوجته، كاللات، ويقولون إنهن يُعبَدن مع الله للتقرُّب إليه!

ولأن العَرَبِيّ بطبعه يميل إلى النمط القَبَلِيّ في الحياة، وما يتبع ذلك من تبعية شبه مطلقة لسيد القبيلة، فقد كان من السهل على سادات القَبَائِل تغيير عقائد قومهم خصوصًا مع ما للعَرَبِيّ من ميل إلى البحث في أصول ما يحيطه من أشياء، وكانت تلك الآلهة وما يرتبط بها من أساطير للخلق والتحكم في الظواهر والأحداث تمثل للعَرَبِيّ البدوي تفسيرات مباشرة لأسئلته. فكان الأمر بمثابة صفقة بين طرفين، الأول هو رجل القبيلة العادي الذي ينال غايته في معرفة أصول الأشياء، والآخر –وهو المستفيد الأكبر– هو سيد القبيلة الذي

يكتسب من نشره عبادة الأصنام بين قومه مكانة دينيّة عالية، فضلاً عن المكاسب المادية الناتجة عن القرابين والنذور المقدمة للآلهة.

– السادة:

كل إلَه عُبِدَ من دون الله في جزيرة العرب كان وراءه سيد يريد من نشر عبادته تحقيق غرض ما.. فإساف ونائلة أول من وضعهما عند الحرم كان "قُصَيّ بن كلاب"، و"ظلام بن سعد" هو أول من وضع العُزَّى للعبادة، ونجم "الشِّعْرَى" أول من قدّسه كان "وجرة بن غالب الخزاعي" كلهم كانوا سادات لقومهم، إلا أن من تَفوَّق عليهم في تلك اللعبة الوثنية كان "عمرو بن لحي الخزاعي"، وهو أول من جعل الأصنام تُعبَد في مكة!

فعمرو بن لحي كان من قبيلة خزاعة التي كانت –آنذاك– تسيطر على مكّة، وكان أثرى قومه وأكثرهم عزًّا ومنَعَةً وأعلاهم كلمة، وكان يحب من حين إلى آخر أن يوطد سطوته بأن يضع التشريعات لأهل مكّة. تلك التشريعات لم تكن لأمور حياتية جدّية ذات فائدة، بل كانت في ما يتعلق بالإبل والأنعام، وكانت شديدة العبثية والسفه، فقد شرَع أن الناقة التي تولد بعد عشر نوق إناث ليس بينهن ذَكَر تُسَمَى "السائبة" فلا يُركَب ظهرها ولا يُجَز وبرها ولا يشرب لبنها إلا ضيف، وإذا أنجبت أنثى سُميَت المولودة بـ"البَحيرَة" وشُقَّت أذنها وصار وضعها كما هو وضع أمها. والشاة لو أنجبت عشر إناث في خمسة بطون ليس بينهن ذَكَر سُمِّيَت "وَصِيلَة" ويكون ما ولدت من حقِّ ذكور أصحابها دون إناثهم إلا المّيْتة منها (وكانوا يأكلونها) فيشترك في أكلها الذكور والإناث. أما فحل الإبل فإذا نتج له عشر إناث ليس بينهن ذَكَر صار ممنوعًا رُكوبُ ظهره أو جَزُّ وبره وتُرِكَ يرعى ويجامع ولا يُنتَفَعُ به في غير ذلك وسُمي "الحام"، وقد أنزل الله تعالى في ذلك ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ (المائدة–١٠٣).

تلك التشريعات العبثية فرضها عمرو بن لحي على أهل مكّة، وانتشرت بعد ذلك بين العرب. ولكن هذا لم يَكفه، فقد سافر إلى الشام والعراق لتجارة فوجد قومًا يعبدون صنمًا فسألهم عنه فقالوا: "هو صنمنا إذا انقطع المطر توسلنا إليه فنمطر، وإذا حاربنا دعوناه فننتصر"، فأخذ صنمًا منهم ونصبه في قلب مكّة وأمر أهلها بعبادته –وهو "هُبَل"– ثم يقال إنه بعد ذلك أعاد إحياء عبادة آلهة قوم نوح "وَدٍّ وسُوَاعٍ وَيَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرٍ"، وكان أول من أمر بعبادة إساف ونائلة (اللذين نقلهما قُصَيّ بعدَ ذلك إلى الحرم)، وهكذا

صار أول من بدّل دين إبراهيم (عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ) بقلب مكّة، وتبدلت تلبية الحُجَّاج من "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لا لبيك" إلى "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إلا شريكٌ هو لك، تملكه وما مَلَك" وقد أخبر الرَّسُول (عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ) أنه رأى، في معراجه إلى السماء، عَمْرًا بن لحي يَجُرُّ أمعاءه في جهنم.

- رجال الدين:

ولأن لكل دين رجالَه، فقد ظهرت الوظائف الدِّينيَّة، كالسَّدَنة، وهم خُدَّام الإله والواسطة بينه وبين العباد، وكانت مكانة السادن حسب مكانة إلهه، فكانت لسَدَنة الكعبة الصدارة، ثم سَدَنة الآلهة الكبرى كهُبَل واللات والعُزَّى، ثم سدَنة باقي الآلهة. كذلك ظهرت "الكهَانة"، والكهنة هم رجال ونساء يدَّعون اتصال الأسباب بينهم وبين الآلهة والجن وسائر القوى الخارقة، فيتنبؤون بالمستقبل والمجهول –بمعاونة الجن غالبًا– ويتحدثون بالسجع والرموز، ويحكمون في ما يجري بين العرب من نزاعات وما يغمض عليهم من أمور. وجعلوا عند الأصنام "القداح"، وهي جعبة بها سهمان مكتوب بأحدهما "افعل" والآخر "لا تفعل" فإذا أراد المرء أن يقضي أمرًا استشار إلهه بضرب القداح، فإما أن يخرج سهم "افعل" وإما أن يُحجِم عمَّا أراد! وظهرت وظيفة "الناسئ"، وهو رجل كانت وظيفته أن يحلل أحد الأشهر الحُرُم مقابل تحريم أحد الشهور الحلال، وهذا وفقما تقتضي مصلحة قبيلته إذا أرادت قتالاً أو ثأرًا من قبيلة أخرى. فكان هذا من أشنع أنواع العبث بأشهر الله الحرم.

تلك الوظائف حرص سادة العرب على توطيد مكانتها حفاظًا منهم على مكانتهم السيادية بحكم إشرافهم عليها من حيث الإنفاق عليها وحماية عبادتها.

كذلك ظهرت بدعة جديدة بين العرب هي "الحمس"، وهم سكان مكّة ومحيط الحرم من قريشًا وخزاعة، فقد كانوا يفرضون على أنفسهم طقوسًا غريبة في أثناء موسم الحج كأن لا يمخضوا اللبن أو يصنعوا الزبد أو يغزلوا الوبر والشعر أو أن يستظلوا به، وفرضوا على الناس أن يطوفوا بالكعبة في ثياب خاصَّة صنعها الحمس، أو أن يطوفوا عرايا، فعلى حد قولهم "لا يصح أن نطوف في ثياب قارفنا فيها الذنوب"، فكان أكثر الفقراء يطوفون بالكعبة –رجالاً ونساءً– عراة! وكان الرجل من الحمس إذا عاد إلى بيته في أثناء الإحرام لم يدخله من بابه بل من ظهره! إلى آخر تلك السفاهات التي شرّعها سادات العرب ليذهبوا بالعقول ويصبحوا هم المتحكمين بها.

- المقاومة:

تلك البدع لم تمرَّ دون محاولات من بعض العقلاء لمقاومتها، فقد رفض الكثيرون عتناق تلك الخرافات وتمسكوا بدين إبراهيم. وكان من أبرز هؤلاء الذين اعتنقوا الحنيفية وسعوا للإصلاح "زيد بن عمرو بن نفيل" (أبو الصحابي سعيد بن زيد (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) الذي قسم أن لا يسجد لصنم أو يأكل ما ذُبِحَ تحت وثن أو يلبي بتلبية الشِّرْك، وحاول نشر مذهبه بين قومه فحاربوه واضطهدوه وطردوه من مكة فعاش شريدًا في الصحراء حتى تعرَّض له بعض قطاع الطرق فقتلوه، فتنفس سادات مكة الصعداء، ولكن إلى حين.. فممَن عاصروا تجربة زيد بن عمرو بن نفيل، وتألموا لنبأ قتله، فتى من بني هاشم كان أصحاب الفراسة موقنين أن سيكون له شأن.. اسمه "محمد بن عبد الله بن عبد المطلب"، وكان (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كلما تذكر زيدًا بن عمرو، بعد البعثة، ترحَّم عليه وذكره بخير وعده من المؤمنين.

- الخلاصة:

تغيير دين إبراهيم (عَلَيْهِ السَّلَامُ) كان جريمة مسلسلة توارثها زعماء العرب ليتمكنوا من خدمة أغراضهم الدنيوية في السيطرة على قومهم، فكان فسادًا منظمًا ضرب بجذوره في أرض الجزيرة، ولهذا فقد كانوا أول من حارب دعوة التوحيد عند ظهورها.

وللأسف، فرغم انتشار دين الله، فإن الْوَثَنِيَّة لم تذهب بكل أحمالها، بل بقيت آثار في الإيمان بالخرافات وتقديس قبور الأولياء واتخاذ المساجد عليها وانتشار أعمال الدجل والشعوذة والاعتقاد في قوى أخرى إلى جانب الله، تنفع وتضر. ونظرة واحدة لما يجري عند أي مقام لأي من أولياء الله الصالحين (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) المدفونين في مصر، تجعلنا ندرك أن الْوَثَنِيَّة لم ترحل بعد.

فالفساد العقلي إذا أراد أن يمتد إلى العقيدة، فإنه يجد لنفسه ألف شكل يتنكر به.. وألف باب يدخل منه.. ما بقي في الناس السفه والجهل.

مصادر المعلومات:

١- البداية والنهاية: ابن كثير.
٢- موسوعة تاريخ العرب: عبدعون الروضان.
٣- تاريخ العرب القديم: د/ توفيق برّو.
٤- جزيرة العرب قبل الإِسْلاَم: برهان الدين دلّو.
٥- موسوعة أساطير العرب: د/ محمد عجينة.
٦- تاريخ الشعوب الإِسْلاَميّة: كارل بروكلمان.
٧- محمد والذين معه: عبد الحميد جودة السحار.
٨- فجر الإِسْلاَم: أحمد أمين.
٩- تاريخ قريش: د/ حسين مؤنس.

المفسدون في الأرض - الجزء الرابع

فتنة سوداء عاصفة، تلك التي اجتاحت المُسْلمينَ بعد اغتيال عمر بن الخطاب وتولي عثمان بْن عَفَّان (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) الخلاَفَة. فتنة دامية حمل فيها المسلم السلاح في وجه أخيه، بعد أن كانت الأسلحة لا تُرفَع إلا على الفُرس والروم وأعداء الإسْلاَم. فتنة أيضًا في الدين، جعلت فيه ما ليس فيه من تأليه لبشر وإدماج للأفكار الْوَثَنِيَّة في صلب العقيدة! فتنة.. أجمع الكل أنها نتيجة مؤامرة من هؤلاء الأعداء سالفي الذكر، وإن لم يتفقوا على تصور واضح لها فإن اسمًا واحدًا تَرَدَّد بشدة تحت أصابع الاتهام، اسم "عبد الله بن سبأ"!

- البداية:

تُوُفِّي عمر وجاء عثمان، فارق كبير بين الأول والثاني، وأمرٌ طبيعي أن تكون لكل منهما سياسته ورؤيته في الإدارة والحكم. وسياسة عُثْمَان بْن عَفَّان (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) كان لها كثير من المعارضين، وهُم بين غير مقتنع ببعض مظاهر تلك السِّيَاسَة، كعليّ بْن أبِي طالب وأبي ذر الغفاري (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا)، ومن يرون أن الإمام عليًا بن أبي طالب (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ) أحق بولاية أمر المُسْلمينَ، كسلمان الفَارِسِيّ وسعد بن أبي وقاص، (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا). ولكن تلك المعارضة لم تخرج عن حدود الاختلاف الطبيعي في الرأي بين رفاق رحلة الكفاح الطويلة لرفع كلمة الإِسْلاَم، ولم تصل إلى مرحلة "رفض ولاية عثمان" أو الدعوة إلى الخروج عليه. كانت معارضة عاقلة تفاعل معها أمير المؤمنين عُثْمَان بْن عَفَّان بحكمة ورُقِيّ، كما يجب للمعارضة أن تكون، وكما يجب للحاكم أن يفعل.

ولكن تلك الصورة الجميلة تَلوَّثَت بدم عُثْمَان بْن عَفَّان الذي قتله بعض الغوغاء الذين تمردوا عليه وانتهكوا حرمة المَدينَة المنورة (عاصمة الدَّوْلَة) فدخلوها بسلاحهم وحاصروه ومنعوا عنه الماء واقتحموا داره وسفكوا دمه وأدخلوا على الدَّوْلَة الإِسْلاَمِيَّة سُنَّة الجرأة على قتل الخلفاء!

تلك الجريمة تمَّت بتنظيم وتنسيق كبير، لعب فيه "عبد الله بن سبأ" دورًا رئيسيًّا.

- عبد الله بن سبأ وجرائمه:

وعبد الله بن سبأ يهودي يمني من أُمٍّ حَبَشِيَّة، ولهذا كان يقال له "ابن السوداء"، ادَّعَى اعتناق الإِسْلاَم ليتمكن من الكيد له على المَستويين الأمني والعَقَديّ.

من حيث تآمره على أمن الدَّوْلَة الإِسْلاَمِيَّة، قام ابن سبأ بجولة في مدينتَي الكوفة والبصرة (في العراق)، وجولة مماثلة في مصر، لحشد المتعاونين معه من المتمردين على حكم عُثْمَان بْن عَفَّان، وإقناعهم بضرورة تصعيد المعارضة لنقطة الثورة المسلحة ضده. مسعى ابن سبأ كان عسير التحقق لولا وجود أرض خصبة له.

فابن سبأ أجاد اختيار من وجّه إليهم خطابه الخطير، فقد وجَّهه إما إلى الناقمين على قريش تسيُّدها للدولة الإِسْلاَمِيَّة، وإما إلى الرافضين لبعض ما استحدث عُثْمَان بْن عَفَّان من سياسات وقرارات إدارية، وإما إلى من يحملون ضغائن شخصيَّة تجاه الخَليفَة، بالإضافة إلى أن كل هؤلاء كانت النسبة الأعلى منهم ممن ليست لهم صحبة للنبي (عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ) فكانت هيبة الصحابة عندهم أقلَّ من غيرهم، وإلا ما كانوا ليفكروا مجرَّد التفكير في رفع السلاح في وجه صاحب رسول الله وصهره وخَلِيفَة المُسْلمينَ!

كان أكثر عنصر استغله ابن سبأ ومن تعاونوا معه في تلك المؤامرة الكبرى، ذلك الخلاف الكبير في الآراء بين بعض كبار الصحابة وعُثْمَان بْن عَفَّان، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا. فعليّ بْن أبي طالب (كَرَّمَ الله وَجْهَهُ) كان يعارض اعتماد عثمان شبه الكامل على أقاربه في ولايات الدَّوْلَة، وعمرو بن العاص (رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ) كان يعارض سياساته في إدارة مصر، وأبو ذر الغفاري (رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ) كان يرفض انتشار الترف ومظاهر الثراء العريض بين الصحابة، وغيرهم كثير اختلفوا مع الخَلِيفَة، لكن ما لم يفهمه الكثيرون ممن خرجوا مع ابن سبأ، هو أن تلك الخلافات لم تخرج عن نطاق اختلاف الرؤى و لم تكن تعني أنهم يدعون إلى الثورة عليه أو خلعه أو قتله، مهما بلغت حدَّة الخلاف، وأن من الطبيعي جدًّا أن يختلف رفاق الكفاح في ما بينهم، بل هو أمر صحّيٌّ وفيه سَعَة للمؤمنين ما بقي الخلاف في نطاق

الأمور المرنة التي تختلف باختلاف رؤية صاحبها.

بن سبأ قام بعملية تكثيف لذلك الخلاف وجعل المتمردين يرونه في شكل دعوة صريحة من الصحابة المذكورين، ومن وافقهم الرأي، للخروج على الخَلِيفَة بخلعه أو قتله، بل وظهرت رسائل مزورة تحمل توقيعات كبار الصحابة وزوجات الرَّسُول (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) تدعو الناس إلى خلع عثمان وتعلن إهدار دمه! تلك الرسائل تزامنت مع جولات عبد الله بن سبأ في البلاد واستعداد من لاقاهم للخروج والتوجه إلى المَدِينَة لفرض رؤيتهم بقوة السلاح! أكبر دليل على زور تلك الرسائل وكذبها هو أن الصحابة الواردة أسماؤهم بها كانوا أقوى الناس دفاعًا عن حياة الخَلِيفَة عندما حوصر في بيته، وكانوا كذلك أشرس المطالبين بالقصاص له بعدما قُتل.

أما الجريمة التي ارتكبها ابن سبأ في حق العقيدة ذاتها فكانت الأكبر بحق! فقد بدأ يتسلل لأوساط المتعصبين للإمام عليّ بْن أبي طالب (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ) ويدس بينهم أفكارًا فيها تحريف للعقيدة، كانت هي بداية نشأة المذهب الشِّيعِيّ في بلاد الإِسْلَام.

فأولاً جاء ابن سبأ بفكرة "رجوع النبي"، فقال: "عجبتُ لمن يقولون بعودة عيسى بن مريم ولا يقولون بعودة محمد"، وقال إن تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ (القصص-٨٥) هو أن الرَّسُول (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) سيُبعث محمدًا ويعود ليعيش ويحكم بين المؤمنين! كما اختلق فكرة "الوصاية" وهي بقوله إن لكل نبيّ وصيًّا، أي لكل نبي رجلاً يخلفه في قومه، وقال إن عليًّا وصيُّ محمد.

لم يتوقف ابن سبأ عند اختلاق هاتين الفكرتين اللتين لاقتا قبولاً من المتعصبين للإمام علي، دون أن يكونوا على علم سليم بالدين، بل تمادى وقال بحلول روح الله تعالى في عليّ بن أبي طالب (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ) ممَّا يعني ألوهيته! مُقحمًا بذلك بعض مكونات الديانة الفارسيَّة القديمة التي كان لها وجود قديم في مسقط رأسه اليمن -آنذاك- من حلول روح الإله في البشر، وأفكار تناسخ الأورواح، إلى آخر تلك الأفكار الوَثَنِيَّة التي سعى ابن سبأ جعلها تتسلل إلى العقيدة الإِسْلَامِيَّة.

- مأساة عثمان:

دعوة ابن سبأ لاقت رواجًا في المدن التي جال فيها، فخرج المتمردون منها وهم يُظهرون رغبتهم زيارة البيت الحرام ومسجد النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ثم فاجؤوا الجميع بدخولهم المَدِينَة وإثارتهم الفوضى ومجاهرتهم بالخروج على الخَلِيفَة، وكادت تحدث

بجزرة مسلَّحة بينهم وبين أهل المَدينَة والموالين لعُثْمَان بْن عَفَّان، لولا تدخُّل عليٍّ بْن أبي طالب ووساطته بينهم وبين أمير المؤمنين وسعيه لوصول أطراف الخلاف إلى حل وسط. وبالفعل، نجح في ذلك حيث تحاور الطرفان -الخَليفَة والثوار- ووصلوا إلى اتفاق يرضاه الجميع حول نقاط الخلاف المثارة، مثل اعتراضهم على بعض الولاة، ومطالبهم بشأن بعض السياسات المالية للدولة، إلخ، وأخيرًا خرجوا من المَدينَة وتوجهوا إلى بلادهم.

ولكن للأسف، ما كاد الصحابة يتنفسون الصعداء لانتهاء الأزمة، حتى فوجئوا بالمتمردين يعودون إلى المَدينَة ويرفعون السلاح في وجه أهلها ويحاصرون بيت عُثْمَان بْن عَفَّان معلنين إهدارهم دمه! كان السبب المعلن أن هؤلاء الناس قد وقع في أيديهم رسول من الخَليفَة لولاة البلدان التي أتوا منها، برسائل يأمرهم فيها بقتل هؤلاء المتمردين فور وصولهم إلى بلدانهم، فعدُّوا ذلك غدرًا يخرق الاتفاق المبرم ويجعلهم في حلٍّ من الالتزام به.

حتى الآن غيرُ مُثبَت إن كانت تلك العودة مدبَّرة مُسبَقًا، ممَّا يعني أن الاتفاق المعقود توًّا كان مجرَّد مناورة، أو أنها كانت ارتجالية، خصوصًا أن الثوار قد أمسكوا بالفعل بغلام لعثمان (رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ) معه رسالة مزورة باسمه فيها ما قالوا. ولكن المُثبَت والأكيد أن تلك الرسالة قد كُتِبَت بغير علم الخَليفَة، ممَّا يعني أن أصابع المتآمرين قد بلغت درجة مخيفة من التسلل إلى حَدِّ إرسال غلام الخَليفَة على أحد جِماله برسالة خطيرة كهذه! ومرة أخرى تشير الأصابع إلى عبد الله بن سبأ والمتعاونين معه في مؤامرته تلك.

والملاحَظ أن دور ابن سبأ في الأحداث لم يظهر إلا بعد ذلك، فطوال تلك الفتنة القوية لم يرد اسم ابن سبأ أو يظهر وجهه في الصورة للصحابة، بل كان يتحرك بدهاء شديد من وراء ستار معتم. كما أن تركيز الصحابة آنذاك لم يكُن على كشف مصدر القلاقل بقدر ما كان مُنْصَبًّا على وقف العجلة المتسارعة للفتنة المهددة بتدمير الدَّوْلَة الإِسْلَاميَّة الناهضة توًّا!

وللأسف، نجح المتآمرون في تلك المرحلة من خطتهم، وقُتِلَ أمير المؤمنين عُثْمَان بْن عَفَّان في منزله بعد أن تسلل بعض الخارجين عليه من السور وضربوه بالسيوف وهو صائم يقرأ القرآن.

- ظهور الشِّيعَة:

المرحلة التالية لخطة ابن سبأ في ضرب الإِسْلَام تمثلت في الفِرقة التي أسَّسها وهم

"السبئية"، وهي أول فرقة منشقّة عن الإسلام السليم تظهر، وكانت أفكارها منصبّة على الطعن في الشيوخ أبو بكر وعمر وعثمان (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) والتعصُّب للإمام علي (كَرَّمَ الله وجهه) إلى حَدّ تكفير من لا ينادي بإمامته وأحقيته بالخلافة بعد النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ). ثم بلغوا حدّ ادّعاء ألوهية الإمام علي، وعودة الموتى إلى الحياة مرة أخرى قبل يوم القيامة، ورجوع النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إلى الحياة مرة أخرى.

وعندما تولى الإمام علي الخلافة، جاهر السبئيون بدعوتهم، مما جعله يتصدى لهم بقوة. ويأمر بإحراق بعضهم عقابًا لهم على ما أحدثوا في العقيدة، والمثير أن من حُكِمَ عليهم بذلك كانوا -في أثناء احتراقهم- يشيرون إلى الإمام ويقولون له إنهم تأكدوا أنه هو الله لأن الله وحده من يُحرِق بالنار!

هذا كان مصير أتباع الدعوة الدِّينيَّة لابن سبأ، أما عنه هو فقد نفاه الإمام إلى المدائن، والبعض يقولون إنه لم يُنفَ بل قُتِل. في تلك النقطة اختلاف، ولكن المتفَق عليه أن عبد الله بن سبأ قد اختفى تمامًا بعد معاقبة الإمام للسَّبَئِيَّة، وإن لم يختف مذهبه الذي أخذ يتسع ويستفحل، ويتبناه بعض المغالين في التعصب للإمام علي (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ) حتى ظهرت فرق الشِّيعَة العصيَّة على الحصر!

والمثير -كذلك- أن أئمة الشِّيعَة -بالذات الاثنا عشرية- يُنكِرون وجود شخصيَّة عبد الله بن سبأ من الأساس، ويقولون إنها شخصيَّة أسطورية اختلقها السُّنِّيون ليطعنوا في المذهب الشيعي!

- خلاصة:

السؤال الآن: من كان وراء ابن سبأ؟ إن أصابع الاتهام تشير إلى جهات عدة، فالأصل اليهوديّ لابن سبأ يشير إلى احتمال وجود دور لليهود في تلك اللعبة، خصوصًا مع قرب عهدهم بالهزائم المتكررة على يد المُسْلمينَ خلال فترة الصراع الإسْلاَمي اليَهُوديّ في المدينة وخيبر. والبعض يشير إلى دور الفُرس في الأمر، خصوصًا أنه بدأ بعد جريمة اغتيال عمر بن الخطاب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) بيد رجل فَارِسِيّ هو أبو لؤلؤة، وكذلك لوجود عَنَاصر فارسيَّة في اليمن -موطن ابن سبأ- ولوجود آثار من ديانة الفُرس في الأفكار الدِّينيَّة السَّبَئِيَّة. و لم تبعد أصابع الاتهام عن الروم الذين كانوا قد تَلقَّوا توًّا أعتى الهزائم على يد الجيوش الإسْلاَميَّة، وكانوا -بالتزامن مع الفتنة- يحاولون احتلال مصر مجدَّدًا.

من المؤكد أن عدد المستفيدين من تلك الفتنة الكبرى كان كبيرًا! ومن المؤكد كذلك أنها كانت مخططة ببراعة ومنفذة بدقة تشي بأن الأمر أكبر من مجرَّد تخطيط لرجل واحد، وأنه أمرٌ دُبِّرَ مُسبَقًا بدهاء كبير وسرِّية شديدة!

ومما يشي بحجم تلك المؤامرة، أن الأمة ما زالت تعيش ذيولها إلى الآن، فما فعله ابنَ سبأ بالعقيدة نرى نتيجته الآن في ذلك الصراع السُّنِّيّ الشِّيعِيّ المرير الذي عانى منه المُسْلمُون والعرب على مر تاريخهم، وما زالوا يقاسونه في وقت تتهددهم فيه الأخطار من كل جانب. وكذلك نرى آثاره في أن منذ مقتل عثمان رُفِعَت من بيننا -عربًا ومسلمين- رهبة حرمة الدم، فتجد العَرَبِيّ يجترئ على قتل أخيه والمسلم يتساهل مع حرمة دم المسلم، كأنما كان مقتل عثمان إشارة البداية للْمُسْلمينَ أن يكونوا أكثر "شجاعة" في انتهاك حرمات دمائهم التي حرَّمها الله تعالى إلا بالحَقّ! ولأن الحاضر ما هو إلا صورة متطورة من الماضي، فإن ما بتنا فيه ليلة مقتل عثمان.. نصحو فيه اليوم.. وإلى ما شاء الله!

مصادر المعلومات:

البداية والنهاية: ابن كثير.

موسوعة تاريخ العرب: عبدعون الروضان.

٣- علي إمام المتقين: عبد الرحمن الشرقاوي.

موسوعة عظماء حول الرَّسُول: خالد عبد الرحمن العك.

تاريخ المذاهب الإسْلاَميَّة: محمد أبو زهرة.

الفرق والجماعات الدِّينيَّة: د/ سعيد مراد.

٧- رجال حول الرَّسُول: خالد محمد خالد.

اليد الخفية: د/ عبد الوهاب المسيري.

تاريخ الخلفاء الراشدين: د/ محمد سهيل طقوش.

١-لله ثم للتاريخ: حسين موسوي.

المفسدون في الأرض – الجزء الخامس

عندما يكون الحديث عن نوع جديد من الفساد يتمثل في ممارسة أعتى أنواع القتل والتعذيب وضرب المقدسات باسم السلطة وحماية الدَّوْلَة. عندما يُقَنَّن العدوان على النفس التي حرّم الله المساس بها إلا بالحَقّ ويتحول إلى أمر مُبَرَّر وواجب لحفظ النظام. عندما يكون الخوف هو العَلاَقة الوحيدة بين الحاكم والمحكوم، وعندما نتحدث عن الرجل الذي فعل كل هذا.. فنحن –بالتأكيد– نتحدث عن "الحَجَّاج بن يُوسُف الثقفي رجل بني أمية القوي وسيفهم البتّار.

هو من أكثر الشخصيات التاريخية إثارة للجدل. أقلِّيَّة رأته مظلومًا مُتحَمَّلاً عليه من المؤرخين، وأغلبية أجمعت على أنه أعتى الظالمين وأن عهده كان نكبة على دولة العرب والمُسْلمينَ وعلى الإِنْسَانيَّة كلها.. ولأن أعمال المرء هي التي تقيّمه، فإن كفة القائلين بالرأي الثاني هي التي ترجح.. إذ إنه –أي الحَجَّاج– فعل من الفظائع ما لا يمكن تجاهله، ونحن إذ ننظر إليه نجد أنفسنا ننظر إلى شخصين مختلفين. فهو من جانب، رجل صوّام قوّام مُصَلٍّ، خاشع في الصلاة دامع العين عند ذكر الله، مشجِّع على التفقُّه في الدين ودؤوب على إرسال السرايا والجيوش للغزو في سبيل الله. ومن جانب آخر، سفَّاح سفَّاك للدماء جريء على الظلم والبطش يمكنه أن يذبح مئات الأبرياء دون أن يطرف له جفن. شخصيَّة لا يحتاج عرضها إلى مؤرخ بقدر ما يحتاج إلى محلل نفسي لهذا الرجل الذي نشر نوعًا خطيرًا من الفساد الفكري يتمثل في مبدأ "كل شيء مباح لحماية الأمن والنظام"

ولو كان الثمن أرواح الأبرياء وأمنهم ذاته"! ذلك المبدأ الذي استمر إلى يومنا هذا، ولكن بصور وأشكال مختلفة.

- صعود الحَجَّاج:

كان الحَجَّاج رجلاً من قبيلة ثقيف التي تعيش بالطائف، يعمل معلِّمًا للأطفال، يعلمهم القرآن الكريم والأحاديث الشريفة. لكنه شعر أن الطائف تضيق على طموحاته العريضة، وأسهم في شعوره هذا سوء تصرف ولاة الطائف الذين عينهم عبد الله بن الزبير (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) الذي كان قد أعلن نفسه خَليفَة على الحجاز والعراق.

هؤلاء الولاة كانوا يسيئون معاملة أهل الطائف بشكل زرع في نفس الحَجَّاج يقينًا أنه لن ينال حقه في الاحترام إلا إذا أصبح من ذوي السطوة والقوة، فهاجر إلى دمشق عاصمة خلفاء بني أمية الذين كانوا ينافسون ابن الزبير على السيادة على الحجاز وأرض العراق. وبالفعل، سافر الحَجَّاج وانضم إلى شرطة الخَليفَة الأموي عبد الملك بن مروان، الذي كان يشكو تراخي رجال شرطته وافتقارهم إلى الضبط والربط، فاستغل الحَجَّاج ذلك وأظهر لزملائه من البأس والالتزام ما زرع في قلوبهم هيبة منه ودفع رئيسهم "رَوح بن زنباع" إلى ترقيته وتقديمه للخَليفَة الذي استشعر مواهبه القيادية فجعله من قواد حربه ضد أعداء السلطة. وهكذا، أصبح الحَجَّاج -وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره- أحد كبار رجال الدَّوْلَة الأموية.

- جبروت الحَجَّاج وجرائمه:

بدى الحَجَّاج، من البداية، غلظة قلب شديدة في إدارته لما وُكلَ إليه من مهام. فحين وُكلت إليه مهمة تجنيد أهل الشام في الجيش أعلن بشكل صريح أن على كل قادر على حمل السلاح الخروج مع الجيش وإلا قُتِلَ وحُرِقَت داره. ولكي يثبت جديته قام بقتل رجل لم يستطع تنفيذ الأمر لمرضه بالفتاق، بل وكان يبادر بقتل أي شخص يُبدي ولو جزءًا بسيطًا من أمر يوجهه أو قول يعلنه، بغضّ النظر عمّا إذا كان هذا الشخص شابًا أو شيخًا مريضًا أو رجلاً من العُبّاد أو الفقهاء. وكان يقول -ويقسم- إنه لو أمر الناس بالخروج من أحد أبواب المسجد فخرجوا من الآخر، لحَلَّت له دماؤهم وأموالهم!

بل ولم يكن يَقفُه عند حدّه كون خصمه أحد الصحابة أو التابعين، فعلى سبيل المثال، كان الحَجَّاج -خلال ولايته على الحجاز- يتعمد الإساءة إلى أنس بن مالك (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ومضايقته واضطهاده كل حين هو ومن سواه من الفقهاء والصالحين. فقد كان يؤمن -

كما أعلنها قبل ذلك- أن هؤلاء يحدّثون الناس عن سيَر الخلفاء الراشدين فيجعلونهم يقارنون بينهم وبين خلفاء بني أمية، فيستصغرون شأن الأمويين. وذلك كان يجعل من سياسته أن يهين الصالحين وأهل الحديث ليمنعهم من التحدث إلى الناس بالحَقّ.

وكان أكثر كلامه في خطبه لمن تَوَلّى أمرهم، كأهل العراق -بعد أن وضع الأمويون يدَهم عليه- تهديدًا ووعيدًا. فقد قال في خطبته لأهل العراق حين عُيِّنَ واليًا عليهم: "يا أهل الكوفة (عاصمة العراق).. إني لأرى رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، وإني لأنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى!" هذا فضلاً عمّا جاء في خطبته الشهيرة تلك من "وصلة" طويلة من السَّبِّ واللَّعْنِ والذَّمِّ في رعيته وتهديدهم بكل شنيع من العقاب.. ممّا ينطبق عليه بشدة قول "أول القصيدة كفر"!

ولم يتوقف بإساءاته وبذاءة لسانه عند عوامِّ الناس، بل امتد بذلك إلى أنبياء الله، فوصف نبي الله سليمان (عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ) بأنه "حسود" تعليقًا على دعائه ربَّه أن يهب له مُلكًا لا ينبغي لأحد من بعده!

وكانت فيه جرأة على الإفتاء في الدين بما ليس له به علم بل وفرضه بقوة السلاح وتحت التهديد بالقتل. فقد أفتى بعدم جواز قراءة القرآن على قراءة الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود (رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ) وكان يقول إنه لو وجد مصحفًا به القرآن على القراءة المذكورة لكشطه ولو بضلع خنزير، ثم يتبع قوله هذا بسب ابن مسعود والقول بأنه كان ليقتل عبد الله بن مسعود لو كان حيًّا.

أما الجريمة الأكثر شهرة للحَجّاج فقد كانت ضرب الكعبة المشرفة بالمنجنيق عندما حاصر مكة المكرمة وتحت إمرته جيش الشام الأموي، من أجل أسر عبد الله بن الزبير (رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ) وتوطيد مُلك بني أمية في الحجاز، بعدما وطّده في الشام والعراق.

كان ابن الزبير قد اتخذ مكّة عاصمة لخلافته ورفض مبايعة بني أمية لأنه رأى فيهم مغتصبين للحكم ومغيرين للنظام الإسْلَامي لسياسة المُسْلِمينَ. فقام عبد الملك بن مروان -الخَلِيفَة الأموي الخامس- بإرسال الجيوش لطرد رجال ابن الزبير من العراق ومكة والمَدِينَة. كان عبد الله بن الزبير قد تحصَّن في مكة وشحنها بالرجال والسلاح، فأمر الحَجّاج جيشه باتخاذ المواقع للحصار من فوق الجبال المحيطة بمكة. وقام بنصب المجانيق على قمم الجبال لقصف البلد الحرام! وبالفعل انطلقت القذائف الصخرية والمشتعلة نحو البلدة المُقَدَّسَة وبلغت الكعبة التي أصابتها الشروخ واشتعلت فيها النيران. كل هذا بجرأة

بالغة وعين لا تطرف. وعندما هوت صاعقة على أحد المجانيق فأحرقته وقتلت بعض العاملين عليه شعر المقاتلون أن تلك الصاعقة غضب من الله لانتهاك حرمة بلده الحرام، فسارع الحَجَّاج بالقول إن تلك الصاعقة علامة على رضا الله لا سخطه، مبررًا ذلك بأن هابيل وقابيل ابنَي آدم (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) عندما قرّب كل منهما قربانًا لله ورضي الله عن قربان هابيل، أرسل من السماء لسانًا من نار فالتهمه، فتلك الصاعقة لسان النار الذي يعلن رضا الله عمَّا يفعل جيش الحَجَّاج! وهو قول لا يصدر إلا عن رجل بلغت جرأته على الله ومقدساته درجة مخيفة!

استمرَّ ضرب مكَّة واشتد الحصار وبدأ أتباع ابن الزبير يتخلون عنه حتى صار وحده، لكنه أصرَّ على الصمود فاقتحم الحَجَّاج وجيشه الحرم المكي وقتلوا عبد الله بن الزبير وقطعوا رأسه وصلبوا جسده منكسًا ليعلن جريمة جديدة وحشيَّة للحَجَّاج.

تلك الفعلة الشنعاء –على فظاعتها– لم تكُن أشدَّ ممَّا اعتاد الحَجَّاج من سفك لدماء الناس، التي يقول الدين إنها أكثر حرمة من مكَّة ذاتها! فقد كان غشومًا مسارعًا للخوض في الدم والقتل والاعتقال لمجرَّد الشبهة، حتى إنه حين مات كان قد بلغ عدد قتلاه مئة وعشرين ألف نفس، وعدد من في سجونه ثمانين ألف مسجون منهم ثلاثون ألف امرأة! وهي أرقام ضخمة في زمننا هذا فما بالنا بزمن الحَجَّاج حيث كان عدد الناس أقل!

– ما قيل عن الحَجَّاج:

ولأن الحَجَّاج كان "حالة" صارخة شديدة الشذوذ نفسيًّا وسلوكيًّا، ولأن أفعاله كانت قد بلغت خطورة مخيفة، فقد أثار أقاويل الناس. بل إنه ذُكِرَ في الأحاديث قبل حتى أن يولد! فقد نبأ الرَّسُول (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) أن قبيلة ثقيف سيخرج منها "مُبيرٌ" أي "مُهلِك قاتل" وقال الإمام عليٌّ بْن أبي طالب (رَضيَ اللهُ عَنْهُ وَكَرَّمَ وَجْهَهُ) إن ثقيفًا سيخرج منها فتًى يقال له يوم القيامة "اكْفِنَا إحدى زوايا جهنم"، وقال عنه أيضا في ما جاء في الحديث إنه سيأتي من ثقيف فتًى لا يدع معصية إلا ارتكبها ولو كان بينه وبينها باب لكسره. كما قال عنه الخليفة عبد الملك بن مروان إن بينه وبين إبليس نسبًا، وقال عنه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): "لو جاءت كل أمة بخبثها وجئناهم بالحَجَّاج لكفيناهم" بل وقد قال عنه أبوه نفسه –قبل أن يتولى الحَجَّاج أيًّا من وظائف السلطة– إنه –أي أباه– ليرى الله جعله جبَّارًا شقيًّا.

– نهاية الطاغية:

بينما هو يعيش نشوة انتصاراته وأوج قوته، فاجأ المرض الحَجَّاج بن يُوسُف، فسقط سريعًا أمامه، وعاش أواخر أيامه يتعذب من آلام مرض موته، ويقال إن جوفه أصابه التعفن حتى كان الدود يعيش فيه. وكان كلما تَلَوَّى أَلَمًا يقول: "أصابتني دعوة سعيد بن جُبَير وسعيد بن جبير رجل من فقهاء مكّة من التابعين، قتله الحَجَّاج لخروجه عليه. فدعا عليه ابن جبير قبل موته، فضلاً عن آلاف الدعوات واللعنات التي استنزلها عليه كل من أحرقتهم نار طغيانه.

– شكل جديد من الفساد:

كان الحَجَّاج يمثِّل "حالة" فريدة من نوعها، لأنه كان يجمع التناقضات في القول والفعل. وهذا هو نوع الفساد الذي كان يمثِّله. فتلازم ما به من عنف ودموية وجرأة على المحرمات مع ما كان يظهر منه من عفَّة يد عن مال الدَّوْلَة وخشوع صادق في الصلاة وبكاء عند زيارة القبور وذكر الموت وأمر الآخرة، ومسارعته لإرسال المجاهدين للفتوحات في الهند والصين، يجعل المرء يحار في أمره، ويفتن ضعاف العقول والتفكير فيحسبونه على حق في ما يفعل ويبرِّرون جرائمه بأنها من "ضرورات السِّيَاسَة وحفظ أمن الدَّوْلَة" الأمر الذي يعني أن ضرر فكر الحَجَّاج ومنهجه في السِّيَاسَة لم يقف عند حدّ "الواقعة التاريخية الشاذَّة"، بل إنه يتجاوز ذلك ليصبح "مدرسة في السِّيَاسَة وصاحب منهج في الحكم" يبرِّر بعد ذلك للكثيرين أن يخوضوا في أعتى أنواع الطغيان والقمع بجرأة ظنًّا منهم أن الحَجَّاج ممن يُقتَدَى بهم في تلك الأمور.

كان الحَجَّاج يعتبر أن ما يفعله يقع تحت بند "الواجب" الذي لا يتم حفظ أمن البلاد إلا به، ففي ذلك الوقت كانت حركات التمرُّد التي قادها الخوارج على أشدها، وكانت الحركات الاستقلالية من بعض قادة الجيش الأموي في أوجها، وكان ابن الزبير يسيطر على جزء كبير من الدَّوْلَة الإِسْلاَمِيَّة. فكان الحَجَّاج يرى أن تلك الظروف تقع تحت وصف "الطوارئ" و"الضرورات التي تبيح المحظورات"، فكان ينفذ سياسته الدموية لا بشكل عشوائي انفعالي بل بصورة منهجية منظمة، أي أنه –بمعنى أدقّ– كان يعرف جيدًا ما الذي يفعله وكيف يفعله ولماذا يفعله، منفذًا سياسةً مُعَدَّة مُسبَقًا في ذهنه، ورؤية صاغها بعناية وهو يعتبر نفسه مجتهدًا إذا أصاب له أجران وإذا أخطأ فله أجر واحد!

هذا هو شكل الفساد الذي يمثِّله الحَجَّاج، فهو ممن يصفهم علم الإجرام بأنهم "مجرمون

ذَوُو عقيدة"، وهم أخطر أنواع المجرمين، فهم يرتكبون جرائمهم وهم يؤمنون داخليًا أنهم على حق. والأخطر حين يصل أمثال هؤلاء إلى المناصب الأمنية أو السيادية، فعندئذ يصبح الفارق الوحيد بينهم وبين المجرم في الصورة التقليدية له هو أنهم يحملون صفة رسمية بينما هو لا يحمل.

هكذا كان الحَجَّاج.. وللأسف، لم يكُن الحَجَّاج الأول والأخير.. فمن بعده أتى آلاف مثله... فهو -كما قلتُ- ليس مجرَّد شخص، بل هو مدرسة...

مصادر المعلومات:

البداية والنهاية: ابن كثير.

٢- علم الإجرام والعقاب: د/ رمسيس بهنام.

٣- ما وراء التعذيب: بسمة عبد العزيز.

٤- تاريخ الشعوب الإِسْلاَمِيّة: كارل بروكلمان.

٥- الحَجّاج بن يُوسُف الثقفي في الميزان: محمد ناصح مؤيد العظم.

٦- موسوعة عظماء حول الرَّسُول: خالد عبد الرحمن العك.

٧- موسوعة تاريخ العرب: عبدعون الروضان.

٨- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي.

٩- رجال حول الرَّسُول: خالد محمد خالد.

١٠- الجريمة: محمد أبو زهرة.

١١- الأحكام السلطانية: الإمام أبوالحسن الماوردي.

١٢- النظام السِّيَاسِيّ للدولة الإِسْلاَمِيّة: د/ محمد سليم العوا.

١٣- خلفاء الرَّسُول: خالد محمد خالد.

١٤- عمر بن عبد العزيز: عبد الرحمن الشرقاوي.

١٥- تاريخ قريش: د/ حسين مؤنس.

١٦- الطغاة والبغاة: د/ جمال بدوي.

١٧- أبْنَاء أبي بكر الصديق: عبد الحميد جودة السحار.

المفسدون في الأرض – الجزء السادس

دائمًا يوجد ذلك "الآخر"، حتى إن لم تحبه فأنت مُلزَم بتَقَبُّل وجوده في الحياة ما دام لا يؤذيك. هذا أمر يعرفه الجميع.. ولكن.. هتلر والنازيين كان لهم رأي آخر! عن النازية –أبرز مفاسد القرن العشرين– نتحدث.. لن نتحدث عن "التَوَسُّع النازي"، أو "نزعة احتلال العالم" فقد كانت نزعة موجودة بنفس الدرجة لدى كل الدول الاستعمارية، لكننا سنتحدث عن تلك النزعة العنصرية في الفكر النازي، التي كانت وقودًا لمختلف الدعاوى العنصرية البغيضة التالية لها عبر العقود التالية وحتى يومنا هذا!

– النازية في رَحِم أورُبَّا:

قبل أن نتحدث عن مثالب النازية علينا أن ندرك أمرًا هامًا، هو أن الفكر النازي هو الابن الطبيعي للفكر الأورُبِّيّ في ما بعد الثورة الصناعية وفترة توسع الاستعمار الأورُبِّيّ في آسيا وإفريقيا منذ منتصف القرن التاسع عشر والثورة العلمية المصاحبة لمطلع القرن العشرين. ففي تلك الفترة كان الفكر الأورُبِّيّ قد أصيب بتغيرات كبيرة تركز أغلبها على ما يخص تعريف "الإنسان"، فبعد أن كان هذا الأخير غاية في حَدِّ ذاته للرعاية والحماية والتنمية، أصبح –بالنسبة إلى رجال الحكم والمال– مجرَّد "طاقة بشرية" أو "مورد بشري" يتساوى مع أي مصدر آخر للطاقة و"القوة" و"المال"، تلك المساواة أدَّت بدورها إلى تغيير قيمة الإنسان، فلم تعد آدميته مصدرًا لقيمته بل أصبح المصدر الوحيد لذلك هو "إنتاجه" أو "ما يضيفه من ماديات على المجتمع"، الأمر الذي عَنَى أن أيَّ إنسان لا

يمثل وجوده في الحياة مصدرًا للمنفعة المادية هو ببساطة "شيء لا لزوم لوجوده الأفضل التخلص منه توفيرًا لما يستهلك من مساحة وغذاء وموارد"! تزامن هذا مع الثورة في علم الأجناس وتوابع نظرية "النشوء والارتقاء" للعالم تشارلز داروين، وما صاحب ذلك من نمو وانتشار النظريات العنصرية التي بدأت تقَسم الأجناس البشرية إلى أجناس راقية وأخرى منحطّة. وأدّى التزاوُج الطبيعي بين تلك الأفكار وفكرة تحويل الإنسان إلى "شيء نفعي فحسب" إلى النظر إلى بعض الأجناس –تحديدًا تلك التي احتلّت أورُبًا بلادَها– على أنها بلا أهمية ومن الأفضل التخلص منها حيث إنها تمثّل عالة على "الرجل الأبيض الراقي"، أو تسخيرها لخدمته فحسب بالسُّخرة أو بالحدّ الأدنى من معطيات الحياة.. أما إعطاؤها الحقّ في الحياة لذاتها لمجرّد أنها مخلوقات بشرية فهو أمر مستنكر حيث إن "بشرية" تلك الجماعات البشرية (كالزنوج والصُّفر والهنود الحمر) ناقصة ما دامت لا تحقق للعالم نفس الفائدة "المادية" التي يحققها الرجل الأبيض! من رَحِم هذه "الأورُبًا" خرجت النازية!

– عن الفكر النازي:

شرح الفكر النازي يطول، لهذا فلن أتناوله كله، وعلى أي حال فما يهمنا منه هو وجهه القبيح، وهو الغالب عليه –بحق– لهذا فسأركز عليه فحسب.

تبدأ ولادة الفكر النازي المرتبط بكل ما هو عنصري ومتعصب إلى تلك المرحلة من حياة أدولف هتلر التي ترك فيها الجيش بعد انتهاء الحرب العالميّة الأولى.

تجربة هتلر مع الحرب والهزيمة خلقت داخله مرارة كبيرة في أربعة اتجاهات: الأول كان اتجاه الدول المنتصرة التي تعمدت –بالفعل– أن تذل ألمانيا وتكسر كبرياءها، والثاني كان في اتجاه رجال الحكم الألمان الذين رآهم هتلر غير أهل للمسؤولية، والثالث كان موجّهًا إلى التيَّارَات السِّيَاسَة المعارضة في بلاده، كالاشتراكيين والشيوعيين، وهذا لأن دعوتهم عمال مصانع الذخيرة لتنفيذ إضراب عن العمل –للمطالبة بحقوقهم– تزامنت مع أكثر أوقات الحرب خطورة وأشدّها حرجًا، أما الاتجاه الأخير فكان موجّهًا إلى العَنَاصر ذات الأصول غير الألمانية من سكان ألمانيا، كاليَهُود والسُّلاف والغجر، باعتبار أن وجودهم كان بمثابة الشوائب التي غيرت تركيبة الشعب الألماني وأفقدته عَنَاصر تميُّزه وتفوقه.

تلك المرارات كان يشاركه فيها عدد كبير من أبْنَاء الشعب الألماني، فالإذلال القاسي

لذي تعرضت له الأمة الألمانية كان بمثابة السّماد المقوّي لنبتة الشعور بكراهية "الآخَر سواء كان هذا الآخَر هو مَن أذلَّ ألمانيا، أو مَن صمت وهو يشاهد إذلالها، أو حتى لم يُصبْه ما أصابها وكفى! هنا اعتبر هتلر -ومن فكروا مثله- أن ما جرى كان مؤامرة على "الجنس الألماني العظيم" لتحطيم "قدرته الطبيعية على التفوق"، أي أنهم فسروا ما جرى بهم بأنه نزعة عنصرية من الأمم الأخرى، فتفجر منهم ما يُسَمَّى بـ"العنصرية المضادة" ضدّ كل ما ليس ألمانيًا خالصًا.

من الطبيعي أن الأمم المقهورة تنشأ لديها نزعة تمسك بالهوية الأصيلة المكونة لأساسها، ولكن هتلر والنازيين بالغوا في ذلك وتعاملوا بمنطلق "بارانويدي" عنيف حوّلهم من ضحايا إلى مجرمين. فقد قاموا بتصنيف كل ما ليس جرمانيًا آريًا أصيلاً بأنه إمّا "عنصر يشوِّه بنية المجتمع" كالغجر والسلاف، وإمّا "عنصر ضارٌّ بالمجتمع" كاليَهُود. وتطور الأمر ليطال الألمان "غير النافعين للمجتمع" كالمعاقين وأصحاب الأمراض المزمنة والمتوارثة، و"المارقين عن المجتمع" كالمجرمين والشواذ جنسيًا وأصحاب الأفكار المغضوب عليها، كالاشتراكيين والشيوعيين" كل هؤلاء السالف ذكرهم كانوا -في نظر النازيين- عَنَاصر مرفوضة، ينبغي التعامل معها بسرعة وحزم لـ"تنقية" المجتمع منها!

بمعنى أدقّ.. اختصر النازيون "الإنسان" في: الرجل الألماني المنتمي إلى الجنس الآري، شريطة أن لا يكون يهوديًا ولا من أصل غير ألماني ولا معاقًا ولا شاذًا ولا مجرمًا ولا مريضًا بمرض مزمن أو وراثي أو ميئوس منه.. بمعنى أدقّ.. أسقط النازيون الإنْسَانيَّة -بجرة قلم- عن ملايين البشر، بمنتهى البساطة! المثير أن تلك الأفكار لم تكُن تقتصر المساحة المراد تطبيقها فيها على مساحة الدَّوْلَة الألمانية فحسب، بل كانت تمتد إلى كل الشعوب التي تتحدث الألمانية أو تنحدر من أصول جرمانية، أو لها عَلاَقة بالتاريخ الجرماني، أي أنَّهم كانوا يتحدثون عن أُورُبَّا كلها تقريبًا!

- مصادر الفكر النازي:

تلك الأفكار الشاذَّة لم تكُن بدعة للنازيين، بل كانت لها بدايات لدى بعض المفكرين والمثقفين الألمان. فالموسيقار فاجنر (١٨١٣-١٨٨٣) دعا في كتابه "أضواء على اليَهُود في الموسيقى" إلى تخليص الحياة الثَّقَافيَّة الألمانية من اليَهُود لأنهم -على حدّ قوله- قد هيمنوا عليها، وطالب بحرمانهم حقوقهم السِّيَاسيَّة، والمستشرق الألماني بول أنطول دو لاجارد (١٨٢٧-١٨٩١) طالب بطرد اليَهُود والسلاف من ألمانيا، والمؤرخ هنريش

فون ترايتشكه (١٨٣٤– ١٨٩٦) اعتبر أن اليَهُود الألمان "عَنَاصر غريبة"، هذا فضلاً عن العالم الألماني د.إ. فيشر –أستاذ التشريح– الذي اعتبر غير البيض كائنات أدنى ودعا إلى منحهم فقط الحد الأدنى من الحماية اللازمَ فحسب للبقاء. هؤلاء المفكرون –وغيرهم من الألمان أصحاب الأفكار العنصرية– كانت أفكارهم المصدر الرئيسي لأفكار هتلر الذي كان يقرأ كتاباتهم ويعتنق أفكارهم، أي أن هتلر والنازية –ببساطة– كانا الصورة "المادية" للكلام "النظري" الموجود في كتابات هؤلاء المفكرين، وممارساته كانت التطبيق العنيف لأفكارهم!

– ممارسات نازية:

لم يتوقف النازيون عن مرحلة الفكرة، بل سارعوا –فور توليهم السلطة– وبشكل تدريجي إلى تطبيق أفكارهم عمليًا.

فتم عمل برنامج حكوميٍّ منظم ومُعَدٍّ بدقَّة للقيام بعملية "فرز" للألمان، فمن تنطبق عليه "مقاييس الصلاحية" يعتبر ألمانيًا أصيلاً ويحظى بـ"شرف" المواطنة. أما من لا يمر من المصفاة النازية ضيقة الفتحات فالويل له!

فتلك الفئة الأخيرة قام النازيون بتقسيمها، فالمشوَّهون والمعاقون جسديًا وذهنيًا والمرضى بأمراض مستعصية أو مزمنة أو وراثية، كان يجري التخلص منهم بلا نقاش أو في أفضل الأحوال تعقيمهم [إعقامهم] (منعهم من الإنجاب) كيلا يلوثوا "الجنس الآري" بمزيد من أشباههم، وكانت جثث بعضهم تُرسَل إلى العلماء النازيين لفحصها وتشريحها باعتبار أنهم مصدر ثري للأجساد المعتلة المرغوب في كشف أسباب اعتلالها لحماية الأجيال الآرية القادمة من العطب! كان هذا التعامل اللا إنساني مع هؤلاء المساكين ينطلق من مبدأ أنهم مجرَّد "مستهلكين" للثروات لا يفيدون المجتمع، مِمَّا كان يعني ضرورة التخلص منهم، ونفس المبدأ القاسي تم تطبيقه في ما بعد –خلال الحرب العالميَّة الثانية– على الميئوس من شفائهم من جرحى الجيش النازي! أما المنتمون إلى أعراق غير ذات أصول ألمانية –كاليَهُود والغجر والسلاف– فقد وجدوا أنفسهم في معسكرات الاعتقال الكبيرة، حيث كان يتم تقسيمهم إلى فئات. فأقوياء البنية كانوا يوضعون في معسكرات العمل بالسُّخرة لصالح المؤسسات الصناعية الألمانية باعتبارهم طاقة مجانية، ومتوسطو القوة كان يتم وضعهم في معسكرات عمل مماثلة في ظروف إنْسَانيَّة أسوأ بحيث يتم إضعافهم بالعمل الشاق وسوء التغذية حتى يموتوا ببطء، والضعاف تمامًا كان

يجري التخلص منهم فورًا. نسبة من هؤلاء كان يتم إرسالهم إلى معامل التجارب الطبية لعلماء النازيين بقيادة الدكتور يُوسُف مينجيل، حيث كان يتم إجراء التجارب عليهم، خصوصًا تلك المتعلقة بتحمُّل الألم والظروف القاسية. فقد كان يتم إجراء عمليات جراحية كاملة –بعضها كان بترًا للأطراف– لبعضهم دون تخدير لدراسة مستوى إحساسهم بالألم. وكان منهم من يوضع في ثلاجات شديدة البرودة، فضلاً عمَّن كانوا يملؤون مثاناتهم بالمياه لدراسة مستوى ألمها، ومن كانوا يجربون فيهم أسلحة الجيش من رصاصات وغازات قاتلة. الفئة الوحيدة التي كانت في مأمَن من تلك الممارسات هي الفئات المفيدة للمجتمع الألماني بشكل لا يمكن الاستغناء عنه. فالزعماء النازيون كانوا يعلمون أن بعض ضباطهم على علاقات عاطفية، بل وعائلية، بيهود وسلاف، ولكنهم –الزعماء– تغاضوا عن ذلك نظرًا إلى بعض الفوائد الناتجة عن وجود هؤلاء "الأغيار" في المجتمع الألماني، سواء كانت فوائد متمثلة في مواهب خاصَّة لدى بعضهم يصعب إهدارُها، أو خدمات يقدمونها للنظام النازي يصعب الحصول على مثلها من غيرهم. فكان يتمُّ التغاضي عنهم، بل وأحيانًا كان يتمُّ محو ماضيهم غير الألماني وتحويلهم إلى مواطنين ألمان خالصين، خصوصًا مَن امتلكوا منهم بعض أو كل الصفات المميزة للآري الأصيل، كالملامح والثقافة ونمط الحياة! أي أنه حتى النازية كانت لديها بعض "المرونة" مع أعدائها ما دام ذلك يخدمها! حتى إن الألمان –كي لا يُغضبوا حلفاءهم اليابانيين بالنظرة النازية العنصرية إلى الجنس الأصفر، اعتبروا أن الجنس الأصفر جنس آري بصورة "شرفية"! الجدير بالذكر أن القائمين على تلك الأفعال –من القائد الأعلى إلى أصغر منفِّذ– كانوا يمارسون ذلك بشكل روتيني خالٍ من المشاعر والانفعالات باعتبارهم "موظفون" يقومون بتنفيذ أوامر رؤسائهم. هكذا بالفعل –رغم صعوبة تصديق ذلك– ولكنه حقيقي. كانوا يقومون بأبشع الممارسات باعتبارها "عملاً"، مجرَّد عمل.. حتى إن جميع عمليات التعذيب والقتل والإبادة الجماعية والتجارب غير الإنْسَانيَّة كانت تسمَّى بأسماء ومصطلحات لا تمتُّ بصلة إلى أسمائها الحقيقية، وليست فيها إشارة من بعيد أو قريب إلى أفعال العنف من قتل وإيلام وإيذاء بدني أو نفسي. حتى إن الجنود النازيين كانت لديهم أوامر بعدم إساءة معاملة المعتقلين حتى في أثناء اقتيادهم إلى أفران الغاز! وأي ضابط أو جندي يُضبط في أثناء ممارسة سلوك إنساني كان يُعاقَب بصرامة ويُقصَى عن مهمته، سواء كان ذلك السلوك إيجابيًا كالتعاطف والإشفاق، أو سلبيًا كالعنف أو إقحام السادية الشخصيَّة في "عمله". كانت تلك نقطة هامَّة ركز عليها علماء النفس النازيون

لضمان تحييد مشاعر جنودهم وضباطهم عن أي مشاعر يمكن أن تفسد ذلك العمل الدقيق الذي كان يخضع لإدارات ومعاملات مكتبية منظمة بدقة!

- رد الفعل:

لو تغاضينا عن توسعات ألمانيا على حساب جيرانها كسبب كاف لتكسب عداء العالم، فإن دول أوروبا وأمريكا لم تخش النازية لذاتها، فنفس تلك الممارسات كانت تمارس -بشكل أو بآخر- من كل دولة أوروبية في بعض مستعمراتها أو كلها، وأمريكا كان لها الباع الطويل في الإبادة المنظمة للهنود الحمر. لكن ما أفزعهم حقًّا هو أن ما مارسوه هم تحت أسماء مستعارة مارسته ألمانيا باسمه الحقيقي، وما فعلوه بستار أنيق قامت به بشكل فجٍّ، وما قاموا به مع "غيرهم" في آسيا وإفريقيا قام به النازيون مع "الرجل الأبيض" في قلب أوروبا! لهذا فقد اتسم تعاملهم معه بتنسيق قلَّما يتم بينهم، وقسوة نادرًا ما يستخدمها الرجل الغربي ضدّ شبيهه. فانهالت غاراتهم دكًّا في المدن الألمانية مسقطة مئات الآلاف من القتلى، وتتابعت عملياتهم المخابراتية لتجنيد العملاء من داخل ألمانيا للقضاء على هتلر وأعوانه، وبالفعل مال ميزان القوى -لأسباب يطول شرحها- لصالح الحلفاء منذ عام ١٩٤٢ وانتهت الحرب سنة ١٩٤٥ باجتياح القوات المتحالفة للأراضي الألمانية وانتحار هتلر وكثير من رجاله، ثم مرحلة المحاكمات الشهيرة للزعماء النازيين.

- الخلاصة:

التجربة النازية تعتبر -بحق- أقسى تجربة في تاريخ أوروبا، فهي أولاً جعلتها تفيق على حقيقة أن أفكارها وممارساتها في مستعمراتها يمكنها أن تجد لها مكانًا في قلبها! وثانيًا كانت النازية بمثابة انطلاقة للتيارات العنصرية المماثلة في العالم الغربي، كمنظمات النازيين الجدد في أغلب دول أوروبا، ومنظمة "كلوكلوكس كلان" العنصرية في أمريكا، بل والحركة الصهيونيّة في ما بعد الحرب العالميّة الثانية.

نعم، كانت التجربة النازية عاصفة حركت الغرب -بل العالم كله- وكانت جريمة وفسادًا كبيرًا في الأرض ارتكبه هتلر وأعوانه، ولكن هذا لا يمنع أن المجرم الأكبر في النهاية -والذي يفوق هتلر ذاته إجرامًا- هو من صنع الظروف الملائمة لولادة ونمو النازية!

مصادر المعلومات:

١- الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ: د/ عبد الوهاب المسيري.
٢- إنطلاقة الرايخ الثالث: عساف.
٣- كفاحي: أدولف هتلر.
٤- هتلر في الميزان: عباس محمود العقاد.
٥- الجمعيات السرية: نورمان ماكنزي.
٦- موسوعة الحروب: هيثم هلال.
٧- القانون الدولي الإنساني. ٠/ محمد فهاد الشلالدة.

المفسدون في الأرض – الجزء السابع

حاكم لمصر.. تربع على عرشها فأعاد فيها سيرة فرعون وقال للناس: "أنا ربكم الأعلى!" أطلق جنونه من عقاله فأفسد في البلاد ونغص معيشة العباد.. عن ذلك الرجل نتحدث.. عن الخَلِيفَة الفَاطِمِيّ المجنون.. عن الحاكم بأمر الله...

الحاكم بأمر الله، تَرَبَّع على كرسيّ الخلاَفَة وهو في الحادية عشرة من عمره، بعد وفاة والده "العزيز بالله الفَاطِميّ"، ولكنه لم يتولَّ الحكم فعليًّا إلا بعد ذلك بنحوٍ أربع سنوات، بعد أن اغتال الأوصياءَ عليه وأصبح حاكمًا منفردًا. ولأننا لسنا في محلٍ لسرد السيرة الكاملة للحاكم بأمر الله وإنما لإظهار مواطن فساده حكمًا وفكرًا وسلوكًا، فسأتطرق مباشرة إلى ما أحدثه من فساد في أرض مصر.

– الاغتيال كسياسة وما ترتب عليه:

من بداية حكمه بادر الحاكم بتدبير اغتيال أهم وصيَّيْن عيَّنهما أبوه –قبل موته– ليُعِينَاه على الحكم، وهما الخادم برجوان، والشيخ الحسن بن عمار شيخ قبيلة كتامة المغربية الموالية للفَاطميّين والتي كانت قد أقامت في مصر. كان اغتيالهما رغبة من الحاكم في التفرُّد بالحكم، رغم صغر سنِّه المفرط (١٥سنة). وقد أتبع قتل شيخ "كتامة" بعملية تقتيل منظمة في كبار رجال تلك القبيلة التي طالما كانت اليد الباطشة لآبائه وأجداده، مدمِّرًا بذلك قوة كبيرة كانت تحمي ملكه.

لم تكُن تلك الحوادث عابرة، بل كان سياسةً له أن يقرِّب القواد والسِّيَاسِيّين ويستفيد

من خبراتهم، حتى إذا تعاظمت سطوتهم خشيهم فدسَّ عليهم من يقتلهم، ممَّا حوَّل الاغتيال عند الحاكم بأمر الله إلى سياسة حكم مرتبطة بعهده، توارثها بعد ذلك خلفاؤه خصوصًا في القسم الأخير من العهد الفَاطميّ، ممَّا أسهم في إضعاف دولتهم وهزّ استقرار مصر بشكل دائم بحكم انغماس الطَبقة الحاكمة في المؤامرات، وما ترتب على ذلك من إهمال أحوال البلاد وتعريضها للمجاعات والانهيارات الاقْتصَاديَّة المتالية. أي أن مجرَّد اتخاذ الحاكم بأمر الله سياسة التخلص المستمر من رجاله كلَما علوا، أدى إلى عملية "تتابع للنتائج" أدت في النهاية إلى مرور مصر بعدد من أشنع أزماتها الاقْتصاديَّة حيث بلغ القحط خلال بعض تلك الأزمات أن أكل الناس الكلاب والقطط والميتة! بينما كان يمكن تجنيب مصر كل هذا لو ترك الحاكم رجاله يركزون في أعمال الحكم وسياسة الدَّوْلَة العمل على صالح الرعية بدلاً من التآمر خوفًا على أنفسهم من القتل!

- العبث:

قد يثير التندُّر ذكر بعضَ أوامر الحاكم بأمر الله، كمنع زرع وأكل الملوخية، وأمر أصحاب الدكاكين بإغلاقها بالنهار وفتحها بالليل، ومنع النساء من الخروج من البيوت، ولكن الواقع أن تلك الأوامر العبثية -لو دققنا النظر في ما وراءها- تعكس إصابة المؤسسة الحاكمة ببعض الآفات المدمرة.

فهي أولاً تجعلنا ندرك -مباشرة- أن الحاكم الذي أصدرها ما هو إلا طفل يلهو، ولو وضعنا تلك المعلومة جنبًا إلى جنب مع ما سبق ذكره من دأب الحاكم على التخلص من العَناصر القوية في دولته، فإننا سنجد نتيجة خطيرة هي أن مؤسسة الحكم تعاني خواءًا صارخًا، فضلاً عن انفصال شديد بين ما تراه هي ضروريًا من قوانين وأوامر وما يحتاجه الشعب بالفعل! ففي بلد مثل مصر، يتذبذب فيه حال الاقتصاد وفقًا لمنسوب النيل، وتتعرض فيه البلاد لتهديدات الفرنجة من الشمال وتمردات قَبَائل السودان وهجمات الأحباش في الجنوب، وينتشر فيها التمزق الطائفي بحكم تخبط السياسات الدِّينيَّة للحكام الفَاطميّين الشِّيعَة، في بلد كهذا، من المؤكد أن آخر ما تحتاجه أوامر بقلب الليل نهارًا أو بمنع تلك الأكلة أو هذه!

ثم إن نشر تلك الأوامر الهزلية والعمل على تنظيم تطبيقها ومراقبته ومعاقبة الخارجين عليها يتطلب من حكومة البلاد جهدًا ومالاً ووقتًا كان الأوْلى صرفها في ما فيه صالح الرعية، ممَّا يعني أن في مجرَّد إصدارها إهدارًا لطاقات الدَّوْلَة، وهو أحد أوجه فساد

الحكم. بالإضافة إلى حقيقة تتضح من تعليمات وقوانين كهده، هي أن من يحكم البلاد قد بلغ مرحلة من الانفصال عن الواقع السّياسيّ والاجتماعي لدولته درجة جعلته يعتبر أن الملوخية وفتح المحالّ بالليل أو النهار من مسائل الأمن القومي.

أما آخر مضارّ ذلك العبث فقد تمثلت في التضيق على الناس، فمن المؤكد أن قلب الليل نهارًا بالنسبة إلى الدكاكين كانت له مضارّه المادّيّة على من يتعارض ذلك الأمر بالنسبة إليهم مع احتياجاته المعيشية التي لا تُقضى إلا بنهار، وحبس النساء في بيوتهن أدّى إلى إضرار شديد بمن كانت منهن بلا رجل يقضي لها حوائجها، بالذات لو كانت عجوزًا أو مُقعَدة...

- دموية ووحشيّة:

ولأنه زوّج جنونه بسلطته، فقد ولّد هذا وتلك دموية ووحشيّة مفرطتين، ظهرت مظاهرهما في مسلسل قتله لكل من يخشى -لمجرّد الشك- خروجه عليه، أو في أنه كان إذا غضب لم يعفُ و لم يصفح، بل يبادر بتوقيع أشد العقاب في الحال.

وقد امتدت تلك النار إلى عامّة الشعب، فقد كان الحاكم يحب الطواف في الشوارع على حماره ليرى أحوال الناس، وقبل أن يظنّ القارئ أن في ذلك الخروج مظهرًا من "صلاح" الحاكم، أسارع بتنبيهه أن ذلك كان وبالاً على الرعية. فقد كانت عقوبات الحاكم بأمر الله لمخالفة تعليماته -أو القوانين بشكل عامٍّ- غير متناسبة من حيث قسوتها المفرطة مع الجرم.

فالسرقة عنده كانت عقوبتها الشنق بلا هوادة، وكذلك إنكار المّدين وجود مال للدائن عنده، عاقب عليه بأن شنق المّدين على باب بيته، وعندما أمر بعدم خروج النساء من بيوتهن ومنعهن من الذهاب إلى الحمّامات الشعبية -حيث اعتدن الاستحمام والتطهر هناك- ووجد بعض النسوة قد خالفنه ودخلن حمّامًا، أمر بإغلاقه عليهن حتى متن فيه مختنقات. أما الطامّة الكبرى فقد كانت في ما يتعلق بالغش التجاري، فقد كان الحاكم يصطحب معه في جولته عبده الأسود "مسعود" وكان حين يطوف بالدكاكين في الأسواق ويجد رجلاً يغشّ في تجارته يأمر مسعودًا أن يفعل بالتاجر فعل اللواط على الملأ في التوّ والحال!

وحشيّة عقوبات الحاكم بأمر الله قللت من معدل الجرائم، حتى إن الناس كانت تجد الدنانير الذهبية ملقاة أرضًا فتتركها حيث هي خوفًا من الاتهام بالسرقة، ولكنه مع ذلك

لم يحقق الأمان المنشود، فقد أمَّن الناس بعضهم بعضا في نفس الوقت الذي سكنهم فيه الرعب من حاكمهم!

أما الجريمة الكبرى فكانت حين أراد بعض أهالي مدينة الفسطاط السخرية من الحاكم فصنعوا دمية على هيئة امرأة بالحجم الطبيعي، وجعلوا في يدها ورقة بها سباب في الخَليفَة ووضعوا الدمية في طريق يمر به يوميًّا. فعندما رآها وقرأ الورقة أمر بقتل المرأة، ثم أدرك أنها دمية فعاد إلى قصره وأرسل عبيده السودان يحرقون المَدينَة ويدهمونها ويعتدون على بيوتها. فهجم العبيد على البيوت ونهبوها وقتلوا أهلها واغتصبوا النساء، وأحرقوا ثلثي البلد، فرأى الجنود الأتراك –وكانوا من أهم عَنَاصر جيش الفَاطميّين– ذلك فتعاطفوا مع الشعب وخرجوا إلى الشوارع للدفاع عن الناس ضدَّ عدوان عبيد الخَليفَة. ووقف الخَليفَة في أعلى مكان بقصره يشاهد ما يجري في البلد وهو يُظهِر البكاء ويقول بـ"براءة": "مَن أمر هؤلاء العبيد بفعل هذا؟"، ويُظهِر التأييد للجند الأتراك في دفاعهم عن العامَّة بينما هو يرسل السلاح سرًّا إلى عبيده ويحثُّهم على المزيد من القتل والتدمير!

– انتهاكات في حق أهل الذِّمَّة:

وأهل الذِّمَّة لم يسلموا من أذى الحاكم، فقد كانت أوامره المفاجئة المتعنتة تداهمهم كالقضاء! فقد أمر يومًا أهل الذِّمَّة في مصر باعتناق الإِسْلاَم وإلا قتلهم جميعًا، في مخالفة صارخة لمبدأ "لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ" الذي أقرَّه القرآن ودعمته السُّنَّة، ثم بعد ذلك بفترة وجيزة ألغى أمره وسمح لمن أسلموا كرهًا أن يعودوا إلى أديانهم، فعاد معظمهم. ثم كان أحيانًا يهدم كنائس النَّصَارَى ومعابد اليَهُود ويحولها إلى مساجد، ويعود بعدها يهدم تلك المساجد ويعيدها كما كانت معابد وكنائس. كما أمر أهل الذِّمَّة جميعًا بأن يعلِّقوا في أعناقهم رموزهم الدِّينيَّة لتميزهم عن المُسْلمينَ، وجعل لتلك العَلاَقات أوزانًا محددة، كانت ثقيلة جدًّا على العنق بشكل آذى الذِّمِّيِّين الذين أمرهم بارتداء تلك الأثقال حتى عند الدخول إلى الحمامات!

– اضطهاد أهل السُّنَّة:

الفَاطميّون كانوا شيعة رافضة، ولكن الحكام بأمر الله بالذات كان أشدَّهم تعصُّبًا لمذهبه وبغضًا للسنِّيِّين، ففي عهده شاع انتهاك حقوق أهل السُّنَّة بشكل صارخ. فقد شدد الحاكم الأمر بكتابة سباب الصحابة "أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير وعمرو بن العاص ومُعَاوِيَة" (رَضِي اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ) على جدران المساجد

وفوق الأضرحة والقبور، وأمر بسبهم من فوق المنابر في الخطب والصلوات، وعاقب مَن أظهر حبَّهم بالتشهير والصلب. ثم امتدَّ عبثه إلى الصلوات فمنع صلاتي الضُحى والتراويح، وغيَّر مواقيت الصلاة فجعلها حسب المزولة العَرَبِيَّة لا التوقيت الشمسي، فكانت صلاة الظهر تقام في الساعة السابعة والعصر في التاسعة، وهكذا! صحيح أنه قد أمر بعد فترة بإبطال نسبة لا بأس بها من تلك الأوامر، ولكنَّ مجرَّد استباحتها والتشدُّد في تطبيقها يُظهِر عمق فساد فكره.

- الحاكم الإله:

منذ عام (٤٠٣هـ-١٠١٣م) بدأ الحاكم بأمر الله يدخل في مرحلة من التصوُّف والزهد، فأمر بإبطال مظاهر السيادة الخليفيَّة له، كالمواكب ودقّ الطبول، وارتدى الثياب الخشنة وأظهر الورع والتقوى، رغبة منه التقرب إلى الشعب المصْرِيّ المعروف بالتأثر بتلك المظاهر. تزامن ذلك مع قدوم بعض أتباع المذهب الشِّيعِيّ الإِسْمَاعِيلِيّ إلى مصر، فتأثروا بما يظهره الحاكم من مظاهر التقشف والورع، فمن هنا بدأت مرحلة تأليهه! ظهر بين هؤلاء رجل اسمه "حسن بن حيدرة الفرغاني" ادَّعى أن الحاكم بأمر الله هو تجسيد بشري للإله، وأسقط اسم الله وأنكر النبوَّة والتشريعات والتنزيل السماوي، ووقف في قلب جامع عمرو بن العاص وأعلن ذلك، فهاج عليه الناس وقتلوه. ثم تلاه رجل اسمه "محمد بن إِسْمَاعيل الدرزي" وكانت دعوته تقول بأن الحاكم بأمر الله هو خالق العالم وأنه تجسيد الإله، وجعل له كتابًا كالقرآن سماه "الدستور"، فأعجب به الحاكم وقرَّبه منه وجعله أعلى رجال دولته والمتحكم في الوزراء والقادة. وكان الحاكم قد أمر الناس عند سماع اسمه -أي اسم الحاكم بأمر الله- في الخطب وهم جلوس أن يقوموا تعظيمًا له، وإن سمعوها وهم وقوف أن يسجدوا له، وكان الرجل منهم إذا لقي الحاكم يحييه بقوله: "يا محيي يا مميت يا واحد يا أحد"، وكانت تلك الأوامر هي السبب في صنع أهل الفسطاط دمية المرأة سالفة الذكر.

الفقهاء وأهل مصر، ثاروا على "محمد بن إِسْمَاعيل الدرزي" وطالبوا الحاكم بتسليمه لهم لمعاقبته، فساعده الحاكم على الهرب إلى جبال لبنان وأمده بالأموال وأمره بنشر الدعوة في الشام، فسافر إلى مدينة "بانياس الشامية وبدأ دعوته التي أصبحت نواة للديانة المعروفة بـ"الدرزية" المنتشرة الآن في لبنان وسوريا، والتي تقول بألوهية الحاكم بأمر الله وعودته في آخر الزمان. وهم حتى الآن منتشرون في الشام، ومنهم شخصيات

ـ ـرة، كالفنانين فريد الأطرش وأسمهان، وكسلطان باشا الأطرش الثائر السوري خلال ـ حتلال الفرنسي للشام، والسِّيَاسيّ اللبناني وليد جنبلاط والإعلامي السوري فيصل ـقـسم.

وكانت المهزلة الكبرى حين حاول الحاكم نقل الحج من مكَّة إلى مصر، فحاول سرقة جساد الرَّسُول (عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ) والخليفتين أبي بكر وعمر (رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا) ونقلهما إلى مصر وبناء مشهد لهم يطاف حوله بدل الكعبة! ولكن –بالطبع– انفضح تدبيره وفشل.

– نهاية الطاغية:

امتدَّ أذى الحاكم إلى الجميع بلا استثناء: أهل الذِّمَّة والمُسْلمينَ، الرعية والطبقة حاكمة، وحتى أخته "سِتّ المُلك" اتهمها في شرفها وكاد يقتلها لأنها كانت تحاول ردَّه عن جنونه وتنبيهه خُطورة أفعاله على الدَّوْلَة، فسارعت بتدبير قتله مع بعض رجال لقصر. وفي يوم، وبينما كان الحاكم بأمر الله راكبًا حماره على جبل المقطم ينظر في نجوم –لاهتمامه بالتنجيم وقراءة الغيب– بادره بعض العبيد بسيوفهم فقَطّعوه. وعندما طالت غيبته بعث رجاله من ينظره فوجدوا ملابسه ممزَّقة دامية ولم يجدوا له جسدًا. وأعلنت أخته موته ونوديَ بابنه "الظاهر لإعزاز دين الله" خَليفَة تحت وصاية عمته "ستّ المُلك"، لأنه كان صبيًّا صغيرًا.

تلك نهاية كانت تليق بشخصيَّة جنونية متألهة كالحاكم، ولتزداد جنونية الصورة فإن المؤمنين بألوهيته –آنذاك– قد أنكروا موته وقالوا بعودته في آخر الزمان، تمامًا كما نقول نحن بعودة السيد المسيح عيسى بن مريم (عَلَيْهِمَا الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ).

الحاكم كان فسادًا وجنونًا يمشي على قدمين، ذهب ورحل إلى حيث ألقت.. ولكن للأسف، ترك جنون العظمة والقوة الغاشمة وتأليه الذات سُنَنًا توارثها قوم آخرون.. فالأسماء تختلف، ولكن الأفعال قد تتشابه!

مصادر المعلومات:

١- تاريخ الفَاطميّين: د/ محمد سهيل طقوش.
٢- ملامح القاهرة في ألف سنة: جمال الغيطاني.
٣- تاريخ المذاهب الإسْلاَميَّة: الإمام محمد أبو زهرة.
٤- الفَاطميّة دولة التفاريح والتباريح: جمال بدوي.
٥- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي.
٦- الفرق والجماعات الدِّينيَّة: د/ سعيد مراد.
٧- بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس.
٨- أهل الذِّمَّة في مصر: د/ قاسم عبده قاسم.
٩- البداية والنهاية: ابن كثير.

المفسدون في الأرض – الجزء الثامن

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ. وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ صدق الله العظيم (سورة يس ٦٠–٦١).

هكذا قال الله تعالى.. قالها –عزَّ وَجَلَّ– صريحة قوية، أن الشيطان لنا "عدوٌ مُبين"، أي ظاهر العداوة، ولكن البعض تعمدوا مخالفة ذلك الأمر الإلهي القوي، وحوَّلوا "العدو المُبين" إلى إله تُقام له الصلوات ويُسَبَّح باسمه آناء الليل وأطراف النهار.. انشقوا عن كل الديانات السماوية وقدّسوا الشيطان فأهدروا قرونًا من الصراع بيننا معشر أبْنَاء آدم وبين إبليس ونسله باعتبارهم إياه الإله والمعبود والرفيق الحميم، فهل من فساد في الأرض أكثر سفهًا من ذلك؟ عن "اليزيدية" نتحدث...

في قلب الشرق العَرَبِيّ الإِسْلاَمي، تحديدًا في فارس والعراق، ظهروا.. وعاشوا، وما زالوا –للأسف– يعيشون.. هم الذين أقاموا الشيطان معبودًا وقدَّموا له الصلوات.. وانشقُّوا عن صف المُسْلمينَ.. مؤسِّسين واحدةً من أخطر العقائد السرية المنبثقة عن حركة "الزندقة"، وهي الحَرَكة السِّيَاسيَّة الدِّينيَّة التي دبَّرَتها بعض العَنَاصر الفَارِسيَّة التي لم تتقبل فكرة الاندماج في النسيج العَرَبِيّ الإِسْلاَمي، فتظاهرت باعتناق الإِسْلاَم لتضربه من الداخل من خلال إقحام محتويات الديانات الفَارِسيَّة القديمة عليه من جهة، وتدبير المؤامرات الداخلية لإثارة الحروب الأهلية والانشقاقات من جهة أخرى. وتلك الديانة السرية –اليزيدية– كانت الأكثر إثارة للمؤرخين. فرغم أنها لم تكن الأخطر فقد كانت

الأكثر سرية وكان أتباعها وقادتها الأكثر براعة في التكتم على أمرهم، ممَّا يجعلنا نَتَخَيَّل مدى الضرر الذي كان من الممكن أن يُحدثوه للدولة الإِسْلاَمِيَّة لو لم ينكشف أمرهم تحت النور! صحيح أنه لم يتمّ كشف أي مخططات لهم ضدّ الدول التي ظهروا بها، ولكن توقيت انكشاف أمرهم وتعاظمه، وتكرار ذلك عبر العهود المختلفة، كان يتزامن مع فترات حرجة بشكل يوحي بتعمُّدهم إثارة القلاقل والتوترات السِّيَاسيَّة والطائفية.

– الشيطان.. في الديانات القديمة:

عبادة القوة الرامزة للشرّ –أيًّا كانت– هي عبادة شديدة القدَم. فالفراعنة عَدُّوا "ست" إلَهًا للشر بين آلهتهم الكثيرة، والآشوريون عبدوا "آشور" إله الحرب، والهنود صلوا لـ"كالي" إلهة الموت والدمار... كل تلك الآلهة كانت رموزًا للكيانات الشريرة الضارَّة لتلك الحضارات، ولكنها لم تُمَثِّل لعابديها المُثُل العُليا ولا الرموز الطيبة، بل عُبِدَت اتقاءً لشرّها، وحين سما الفكر الإنساني، وازداد إدراك المبادئ الراقية مال الإنسان –في رحلة بحثه عن الله– إلى قَصر التقديس على الرموز الطيبة النافعة فحسب، بينما أصبحت رموز الشرّ والأذى أهدافًا للعناته. تلك الخطوة الراقية توَّجَتها الرسالات السماوية الثلاث بالتفرقة بين الله تعالى كخالق أعلى هو مصدر كل الصفات الطيبة، والشيطان كمخلوق مارق يسعى لإيذاء الإنسان من خلال إفساد علاقته بخالقه عزَّ وجَلَّ.

ولكن ظهر في الشرق القديم –في ما قبل البعثة المحمدية– تيَّار فكري ديني يقول بالمساواة بين قوى الخير وقوى الشرّ بحيث تحوّل الشر من أمر عارض استثنائي –مصيره الزوال مهما طال عهده– على قاعدة سيادة الخير للعالم، إلى أمر واقع متساوٍ من حيث الوجود والسيادة مع الخير. فقَسَّم أتباع هذا الفكر الكون إلى عالَمين: عالَم النور وعالم الظلام، وقالوا بتساويهما في المساحة المكانية والزمنية. تلك الفكرة قد تبدو للوهلة الأولى حقيقة، ولكنها ليست كذلك، فالواقع يقول إن الله هو الخير وهو الأقوى بحكم كونه –عَزَّ وَجَلَّ– هو الخالق، بينما الشيطان هو الشرُّ وهو الأضعف مهما بلغت قوته لأنه لا يتساوى مع الله. بينما ما قاله هؤلاء هو ببساطة مناداة بالإيمان بتساوي الشيطان مع الإله في القوة وتحويل الشيطان من مخلوق متمرد على سيده إلى سيد يعادل الخالق في القوة وحرية الإرادة.

هكذا جاء في بعض الديانات الفَارِسيَّة القديمة، كالزرادشتية (المجوسية) التي قسمت العالم بين إلهين: "أهورامزدا" إله عالَم النور، و"أهريمن" إله عالم الظلام، وجعلت الحياة

عبارة عن صراع أبدي بينهما، وجاء المفكر الفَارِسي "ماني" بديانته "المانوية" المنسوبة به، ليؤكد تلك الفكرة التي وجدت طريقها عبر الحدود والتقاء الحضارات إلى مختلف بقاع الأرض، وعصورها!

- البداية:

هي فرقة دينيَّة مصنفة من قِبَل جمهور المُسْلِمينَ كفرقة غير مسلمة -كالبهائيين والدروز- ولا يوجد رأي ثابت في نشأتها، وهذا لشدة غموض تاريخها وتناقض رواياته ولشدة التزام أتباعها بالتكتم والسرية حول كل ما يخص عقيدتهم. ولكن المتفق عليه أنها وُجِدَت في الشكل المعروف للمؤرخين في ما بعد القرن السادس الهجري، مع انتشار تيَّارَات التصوُّف في الشرق العَرَبيّ.

القصة الأقدم في ما أمكن معرفته من تاريخ اليزيدة تبدأ برجل صالح عابد وزاهد اسمه "الشيخ عدي بن مسافر"، انتقل من مدينة بعلبك اللبنانية إلى العراق، حيث تتلمذ على يد العالم الكبير "الإمام أبوحامد الغزالي" وتعرف إلى القطب الصوفي "عبد القادر الجيلاني" وتأثر بهما، ثم سافر إلى منطقة "لالش" في جبال العراق -تحديدًا المنطقة الكردية- حيث تَنَسَّك على قمة أحد الجبال واعتزل العالم وعاش زاهدًا متعبدًا حتى مات، وبقي أبناؤه وأحفاده يَرِثُون عنه القيادة الروحية للمنطقة التي سكنها، واحدًا تلو الآخر.

زُهْد الشيخ عُدَيّ جعل الناس يتعلقون به، ولكن للأسف دارت الأيام وشاب ذلك التعلقَ مبالغات في وصف كرامات الشيخ تطورت إلى حَدّ مخالفة الشرع، وشجّع ذلك أحد خلفائه ليعبث بالدين، ويعيد من جديد بعث الديانات الفَارِسيَّة القديمة سالفة الذكر، وينشر تقديس كل من يزيد بن مُعَاوِيَة بْن أَبِي سُفْيَان (ومن هنا جاء اسمهم) وكذلك تقديس الشيخ عدي باعتباره المبعوث المقدس الذي قام بإحياء الدين من جديد، أما الطامّة الكبرى فكانت في إيمانهم بأن من أرسله هو عزازيل، الذي نعرفه باسم إبليس ويعرفونه باسم "طاووس مَلَك"! نعم، كانوا يقدّسون إبليس، ويؤمنون أن الله تعالى حين خلق الكون وَكَل إدارته وتسييره لسبعة ملائكة على رأسهم "عزازيل/إبليس" الذي يقول اليزيديون إنه تاب عن خطيئة عدم السجود لآدم وإن الله تعالى قَبِلَ توبته -حيث كان عذر الشيطان أن الله تعالى حين خلقه جعل فطرته عدم السجود لمخلوق- فعفا عنه ونصّبه كبيرًا للملائكة. ورفضوا القول بأنه شيطان حتى حرّموا مجرّد نطق الكلمة على أتباع دينهم وقالوا إنه المَلَك الأعظم الذي خلق نفسه بنفسه. صحيح أنهم لم يسوُّوه بالله

تعالى لكن مجرَّد قولهم باستعانة الله بمخلوق في الخلق وتقدير المصائر هو شركٌ بين. اما عن اتخاذهم يزيد بن مُعَاوِيَة إمامًا، فهو أمر غير معروف سببه، وإن كان البعض يرجح أن ذلك كان بمثابة تحدٍّ للسيادة العَبَّاسيَّة والفكر العام للمُسْلمين الذين يكنُّون المشاعر السيئة ليزيد لدوره في مقتل الحسين بن علي (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) فقال اليزيديون إن من لم يقُل بإمامة يزيد دمه وماله حلال، ووصفوه -يزيدًا- بأنه التجسيد البشري لعزازيل، أو طاووس مَلَك الذي نسبوا إليه تنزيل كتابهم المقدس "مصحف رش" الذي يمتلئ بالتمجيد للشيطان والوعيد لمن يرفضون ذلك بالويل والثبور!

- أصول من الديانات القديمة:

المدقق في "اليزيدية" يلاحظ مدى التطابق بينها وبين الديانات الفَارِسيَّة القديمة -تحديدًا الزرادشتية- من حيث المعتقدات وتسوية الشيطان بالله في حقوقه على العباد. فقد آمن اليزيديون بتناسخ الأرواح وانتقال الروح من الجسد بعد الموت إلى جسد آخر للتكفير عن الذنب في الحياة السابقة. كما آمنوا بانقسام العالَم إلى عالَمي الظلام والنور، واعتقدوا في نظرية "الحلول" وهي حلول روح الله أو الملائكة في بعض الناس. وقدّسوا العَنَاصر الكونية الأربعة (الهواء والماء والنار والتراب) تمامًا كما كان الزرادشتيون -وأتباع الديانات الآسيوية القديمة غالبًا- يفعلون.

- عقيدة سرية:

تلك الملاحظة تقودنا إلى سؤال هامٍّ: كيف وجدت تلك العقائد المندثرة منذ قرون سابقة لظهور تلك الديانة طريقها إلى من صاغوا وصنعوا هذا الدين الجديد، ومن آمنوا به؟

والإجابة الوحيدة المنطقية هي أن تاريخ نشأة تلك العقيدة يسبق تاريخ ظهورها بكثير، إذ إنها ظهرت علانية في فترة حرجة من تاريخ المُسْلمينَ، تهددت خلالها الحَضَارَة الإِسْلاَميَّة بهجمات المغول والصَّلِيبِيّين، بينما بقيت خفية طوال تلك السنوات حيث كان مجرَّد إعلان أتباعها عن أنفسهم يهددهم بالإبادة التامة من قِبَل الخلفاء العَبَّاسيِّين والقادة والولاة الغيورين على المقدسات من العبث. ولكن قادة تلك الديانة ينكرون حداثة أمرها، وينشرون الأكاذيب حول كونها ديانة أقدم من الديانات السماوية كلها، ويدّعون أن أتباعها تظاهروا باعتناق الإِسْلاَم خوفًا من الإبادة، واستقالاً للجزية. وهي كذبة مكشوفة، فأولاً لم يكن المُسْلمُون يعتدون على من يرفض اعتناق الإِسْلاَم، واتسع نطاق أهل الذِّمَّة ليشمل أديانًا غير سماوية كالصابئة والمجوس وبعض ديانات البربر.

وثانيًا م تكن الجزية أبدًا بالمبلغ الذي يُعجز عن دفعه، فضلا عن أن الفقير كان يُعفى منها. ثم إن ما في ديانتهم من تأثرات بالإِسْلاَم يوحي بحداثة عهدهم عنه، فقد اتخذوا بئرًا مقدسة في إحدى مناطق وجودهم وسموها "زمزم" كتلك التي في مكّة، وسموا أحد كتبهم "المصحف" وكانت لهم صلوات وطقوس تعبُّدية شبيهة بتلك الإِسْلاَميَّة، فضلاً عن قيامهم بختان أطفالهم ودفنهم موتاهم بالطريقة الإِسْلاَميَّة... لهذه الأسباب، وأكثر، يتفق معظم المؤرخين على أن فكرة قدَم عهد اليزيدية بالشكل الذي يدّعيه أتباعها عبارة عن أكذوبة، وأكثر التواريخ قدمًا تقول بظهور عقيدتهم في ما بعد سقوط الدَّوْلَة الأموية مباشرة. والمثير أنهم برعوا في تطبيق مبدأ "التقية" الذي يتبعه الكثيرون من أبْنَاء العقائد السرية أو ذات الطقوس الخاصة، وهو مبدأ يقوم بادّعاء اعتناق الإِسْلاَم علنًا مع الحفاظ سرًّا على العقيدة الأصلية.

- أوقات حرجة:

ولتكتملَ نظرية المؤامرة، فإن من المُلاحَظ أنهم كانوا يتعمدون إظهار أمرهم خلال أشد الفترات حساسية في التاريخ العَرَبِيّ. فالظهور الأول لهم كان في مرحلة كان فيها العرب والمُسْلمُون ممزقين وسط صراع العَبَّاسيِّين من بغداد مع الفَاطميّين من القاهرة، وكانت الجيوش الصَّليبيَّة تطرق أبواب العالم الإِسْلاَمي بعنف. ثم أعادوا البروز في الساحة تزامنًا مع الاجتياح المغولي. وبروزهم للمرة الثالثة كان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، خلال عهد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني. كان السلطان -آنذاك- يحكم معظم العالم العَرَبِيّ الإِسْلاَمي الذي كانت تتهدده الأطماع الأورُبّيّة. وكان يكافح بكل طاقته لتأسيس تكتل إِسْلاَمي ضخم يقف أمام كل من دول أوربَّا الطامعة في بلاد الشرق، وروسيا المتطلعة إلى الوثوب على تركيا ذاتها، واليَهُود الصهْيَوْنيّين الذين كانوا قد بدؤوا سعيهم العملي للحصول على حقّ تأسيس دولة في فلسْطين... وسط كل تلك المآزق السِّيَاسيَّة، أبرز زعماء اليزيدية مشكلتهم من خلال محاولتهم الاتصال بالغرب من خلال إرسالية تبشيرية أمريكية، سعوا من خلال الاتصال بها إلى دفع الدول الغربية للضغط على السلطان لمنحهم ما زعموا أنه حقوقهم في المواطنة، وكل هذا فقط لأن السلطان ورجال حكومته كانوا يريدون أن يؤدّي اليزيديون الخدمة العسكرية أسوة بسائر طوائف رعايا الدَّوْلَة العثمانية. تَصرُّف أعضاء تلك الطائفة بهذا الشكل في ذلك التوقيت يُعَدُّ خيانة صريحة للدولة، ويؤكد نظرية وجود شيء غير مريح في سرية كيانهم والغموض المحيط به.

- **الخلاصة:**

قد يسأل البعض: ما وجه الفساد الذي يمارسه قوم اختاروا لأنفسهم أمرًا؟

والإجابة هي أن الجماعات البشرية ليست جزرًا معزولة، فكل منها يؤثر ويتأثر بالآخر.. وإن كان الناس متنوعين في العقائد والأديان، فإن "صمام الأمان" بينهم هو اتفاق كل تلك الأديان على تمجيد الخير ونبذ الشر وعدم تدبير المؤامرات في الخفاء. أما أن تعتنق إحدى تلك الجماعات الإِنْسَانيَّة عقيدة تخالف الفطرة البشرية السوية الرافضة للشرِّ، فتقدِّس الرمز الأول لكل الشرور والخطايا وتعتبره الحامي والمعين وصاحب الأمر والنهي، فهذا يمثل أولاً تهديدًا للسلام العامِّ بين أهل الأديان المختلفة، وثانيًا هو أمر يعني أن وجود تلك الجَمَاعَة في قلب أي مجتمع هو بمثابة قنبلة موقوتة، إذ إن معايير الخير والشرِّ عندها ستكون مختلفة عمَّا تتفق عليه ضمائر البشر.. وإنها -في أي وقت- قد تنقلب على مجتمعها في تلك اللحظة التي يقع فيها خلاف عملي حول مفهوم ما هو "خير" وما هو "شر" والدليل هو أن الدَّوْلَة العَرَبِيَّة الإِسْلاَمِيَّة لم تَسْلَم عبر العصور من جماعات مماثلة ذات عقائد مُختلِّة ارتكبت أعتى الجرائم، كجَمَاعَة القرامطة التي اعتدَت على الكعبة ذاتها واقتلعت منها الحجر الأسود ولم تُعِدْه إلاَّ بعد ٢ سنة، أو كجَمَاعَة "الحَشَّاشين التي روَّعت الشرق بأسره لقرون بجرائم الاغتيال المتتالية.. كل ما في الأمر أن جَمَاعَة "اليزيدية" لم تَحْظَ بالقوة العددية أو التسليحية ولا بالقيادة القادرة على أن تسبب ضررًا ماديًّا.. وإن بقيت فقط علامة على أن الإنسان قد يرتدُّ إلى الخلف قرونًا كثيرة بفكره وعقله، فيقدِّس رمزًا للشرِّ بعد أن كانت الحضارات الأولى قد تعلمت نبذه منذ زمن بعيد!

مصادر المعلومات:

١- البداية والنهاية: ابن كثير.

٢- تاريخ اليزيديين: جون س. كيست.

٣- الفرق والجماعات الدِّينيَّة: د/ سعيد مراد.

٤- المدخل في تاريخ الأديان: د/ سعيد مراد.

٥- اليزيدية وفلسفة الدائرة: عبد الناصر حسو.

٦- طاووس مَلَك اليزيدية: ليدي درور.

٧- الدَّوْلَة العثمانية: د/ محمد سهيل طقوش.

٨- موسوعة تاريخ العرب: عبدعون الروضان.

٩- الله: عباس محمود العقاد.

بين البارحة واليوم – الجزء الأول

معظم ما نعيشه اليوم –نحن العرب– إنما هو صورة مطوَّرة ممَّا عاشه أسلافنا. وأغلب نظم السِّيَاسَة والحكم والأحوال والمشكلات الوطنية والقومية التي تشغل الحيِّز الأكثر أهمية من حياتنا ليست بالمستحدثة، إنما هي سُنَن الأولين، جاءتنا بثوبٍ مختلف خارجيًّا فحسب. عن هذا نتحدث، عن بعض ما عاشه أجدادنا من أحوال الدول والسياسات والحكم وعشناه نحن بشكل ربما يختلف من حيث الشكل ولكنه يتفق من حيث المضمون.

– اليوم:

كلمة "الحياد" في عالَمنا الآن تجد لنفسها مساحة في الكتب أكثر ممَّا تجد في العالم الواقعي، خصوصًا في الصراعات بين الدول الكبرى. فكل منها تَجُرُّ أتباعها –طوعًا وكرهًا– إلى ساحة الصراع، ثم تعود إلى مقعدها تراقب وتحرك من بعيد، بحيث يتحول ظاهر الأمر إلى صراع بين أتباع تلك القوى العملاقة، بينما باطنه صراع العمالقة في ما بينهم، ولكن بشكل يوفِّر دماء السادة وأموالهم ويحفظ أمنهم وفي النهاية لا يحقق إلا مصالحهم. هكذا العالم اليوم، وهكذا كان أمس البعيد. تحديدًا في الشرق العَرَبِيّ، عندما كان يوجد سيدان لتلك اللعبة: الفُرس، والروم.

– الفُرس والروم.. العملاقان:

بعد أن انقسمت الإِمْبِرَاطُورِيَّة الرُّومَانِيَّة إلى قسمين: شرقي (بِيزَنْطَة) وغربي (روما)،

وجد قياصرة بِيزَنْطَة أنفسهم قد ورثوا ذلك العداء والتنافس الشرس مع الإِمْبِرَاطُورِيَّة الفَارِسِيَّة. تلك الأخيرة كذلك أدركت أنها أمام دولة فتيَّة قوية لا يُستهان بها، انتقلت إليها العَنَاصر القوية من روما المحتضَرة. كان كل ذي عينين يدرك أن الصراع لا بد سيأتي بأسرع وأشرس الصور الممكنة. ولأن كلاً منهما تعلم أن دخولها في حرب مباشرة مع دولة عملاقة ملاصقة لها يعني أنها ستعيش في حالة طوارئ وحرب وتوتر دائمين فقد كان هذا يعني تهديد المصالح السلمية لكل منهما -من تجارة وزراعة وصناعة- بالبوار وإفراغ مزراعها ومصانعها من الأيدي العاملة بها في حالة اضطرارها إلى تعبئة الجيش وشحنه بالجند.

الأمر الثاني الذي أقلق كِسْرَى وقيصر كان وجود قوتين عَرَبِيَّتين لا يُستهان بهما إلى جوار كل من فارس وبِيزَنْطَة، ففي الشام كان "آل جفنة" يحكمون مملكة الغساسنة وفي العراق كان "آل لخم" يملكون دولة المناذرة، وكانت الشام هي المدخل الواسع إلى بِيزَنْطَة بينما كان العراق بوابة فارس، فكان على الحاكمين -البِيزَنْطِيّ والفَارِسِيّ- أن لا يستهينا بوجود هاتين الدولتين وما قد تسببه أطماع أي منهما من مشكلات لجارها العملاق إذا تطلعت إلى غزو حدوده أو أغرتها قوتها بالطمع في عاصمته ذاتها، وكان هذا أمرًا مألوفًا في ذلك العصر.

أما الهدف الثالث فكان التغلغل في الجزيرة العَرَبِيَّة التي كانت تمثل ثروة بشرية ضخمة يمكن استخدامها وقت الأزمات، كما كانت تتوسط طرق التجارة بين الهند والصين في الشرق، ومصر والحبشة في الغرب، فضلاً عن اليمن في الجنوب، ومن يسيطر على تلك المنطقة يصبح هو السيد الأوحد لشبكة طرق التجارة العالميَّة.

إذن، كان لكل من الفرس والروم ثلاثة مطالب هامَّة: الأول هو توفير الطاقة البشرية والمال والسلاح والجهد المبذول من كل منهما لمحاربة الآخر، والثاني هو شغل المملكتين العَرَبِيَّتين، والقَبَائِل العَرَبِيَّة المنضوية تحت كل منهما، عن فكرة غزو حدود فارس أو بِيزَنْطَة، والأخير هو السيطرة على جزيرة العرب. وكان الحل الذهبي هو "التبعية السِّيَاسِيَّة"

- غساسنة ومناذرة:

هما في الأصل إخوة، فأصول كل منهما يمنية من مملكة سبأ، وقد جاء انتقال كل منهما، الغساسنة إلى الشام والمناذرة إلى العراق، بعد أن سقطت دولة سبأ بانهيار سَدِّ

مأرب وما نتج عن ذلك من تدمير واسع للمملكة العظيمة السابقة.

ولكن لأن الأطماع السِّيَاسَة لا تعرف صلة الدم، فقد كان من الطبيعي أن يصطدم طموح الغساسنة بأهداف المناذرة وأن تصبح الحرب بينهما قاب قوسين أو أدنى.

من هنا نشأ العداء بين الدولتين، وكانت هذه فرصة كل من فارس وبِيزَنْطَة لتجنيد حليف لها يحارب عنها فيوفر عليها الدم والعناء وينشغل عن شيطانه الموسوس بغزوها بالإضافة إلى قيامه بدور "مخلب القط" لها بين قَبَائل الجزيرة. من هذا المنطلق تحركت بِيزَنْطَة فتحالفت مع ملوك الغساسنة وبادرت فارس ففرضت سيطرتها على سادة المناذرة، وتحول الصراع الفَارِسيّ البِيزَنْطِيّ إلى صراع غساني مناذري، بالذات في عهد الإمْبِرَاطُور البِيزَنْطِيّ الكبير جستنيان، والملك الفَارِسِيّ الشهير كِسْرَى أنوشروان، فبدأت بين الغساسنة والمناذرة سلسلة من الحروب والمعارك الدامية، لم تبخل فيها كل دولة عظمى على تابعها العَرَبِيّ بالدعم بالسلاح والمال ليتمكن من توسيع نطاق سيطرته مِمَّا يعني بالتالي اتساع مساحة سيطرة سيده على الأرض وما بها من خيرات، وعلى المناطق الاستراتيجية المطلة على حدود خصمه. حرب شديدة الشراسة دارت بين أَبْنَاء الأصل الواحد واللغة الواحدة، الدم فيها دمهم والخيل خيلهم والنصر لاسم كِسْرَى أو لاسم قيصر!

- الدين:

الشعوب الشرقية -بطبيعتها- يشغل الدين في حياتها وضميرها مساحة ضخمة، وهذا ما أجاد البِيزَنْطِيُّونَ استغلاله، فقد انتشرت العقيدة المَسِيحيَّة بين الغساسنة تأثرًا بالوجود الكثيف للعقيدة والثقافة المَسِيحيَّة بالشام، وساعد هذا في ربط مزيد من العلاقات بالروم البِيزَنْطِيّينَ الذين كانوا يعتبرون أنفسهم رعاة المَسِيحيَّة في الشرق، وربما في العالم كله. ذلك الخيط التقطه الفُرس، فساندوا انتشار المذهب النسطوري بين المناذرة، وهو المذهب المضاد للمذهب الأرثوذكسي الرسمي للرُّوم، مِمَّا يضيف بعدًا دينيًّا إلى الحرب بين الغساسنة والمناذرة.

التأثر الدِّينِيّ لم يتوقف عن الأتباع المباشرين فحسب، بل امتد إلى عمق الجزيرة، فقبيلة تميم اعتنقت المجوسية -الدين الرسمي لفارس- واعتبرت نفسها بذلك أرقى العرب، واليمن انتشرت فيه المَسِيحيَّة بالذات بعد الغزو الحَبَشِيّ المدعوم من بِيزَنْطَة، وكان نَصَارَى الجزيرة يعتبرون أساقفة الشام التابعين لقيصر هم مرجعيتهم الدِّينِيَّة، حتى

إن أحد نَصَارَى مكّة -عثمان بن الحويرث- زار قيصر في القسطنطينية وطلب منه أن يولّيه حاكمًا من قِبَله على مكة، وكاد ذلك يتم لولا الرفض العنيف للمكّيّين أن يصبحوا تحت إمرة غيرهم.

- عمق العلاقات:

تلك العلاقات بلغت من العمق أن تداخلت المصالح بشكل يصعب انفصامه، فالمناذرة ارتبطوا بالفُرس إلى حَدٍّ أن أي وفد عَرَبِيّ يرغب في الدخول على كسْرَى كان عليه أولاً أن يمر على ملوك "آل لخم" ليسهّلوا له ذلك، والأمر مماثل بالنسبة إلى من كان يرغب في التوجه إلى القسطنطينية، فقد كانت بوابته الأولى هي قصر ملك "آل جفنة" كما بلغ الولاء بين الأتباع والسادة أن أصبح السادة يستعينون بأتباعهم حتى في صراعاتهم الداخلية وصدِّ الأخطار غير ذات العَلاقة بالصراع الغساسني المناذري. فأحد ملوك فارس -بهرام بن يزدجرد الأول- استعان بصديقه المنذر بن النعمان، ملك المناذرة، ليستعيد عرشه، فأرسل معه المنذر ثلاثين ألف جنديٍّ عَرَبِيٍّ أعانوه على نيل حقِّه، كما كانت في الحيرة -عاصمة المناذرة- كتيبة فَارِسيَّة اسمها "الشهباء" مكونة من ألف مقاتل، تعمل تحت إمرة ملك المناذرة وتضمن ولاءه لكسْرَى. وهرقل -إمْبرَاطُور الروم- كانت مقدمة جيوشه الموجهة لصد الفتح العَرَبِيّ للشام، مكونة من القَبَائِل العَرَبِيَّة المتنصرة التابعة لملوك غسان. والحرب بينه وبين المُسْلمينَ -التي بدأت في مؤتة- إنما كان السبب المباشر لها هو أن أحد الأمراء العرب على الشام، باسم قيصر، قتل رسول الرَّسُول (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) إليه، ممَّا كان يعني إعلان الحرب وفقًا للعرف السائد آنذاك. أي أن الأمر لم يقف عند حَدِّ السيطرة وتوريط الدولتين الصغيرتين في حروب بالنيابة عن السادة، بل بلغ أن أصبحتا تُستَخدَمان لخدمة الأغراض الداخلية لكل من فارس وبِيزَنْطَة، ممَّا يعني مزيدًا من التبعية.

- الحقيقة المخزية:

كان ظاهر الأمر أن الغساسنة حلفاء وأصدقاء قيصر، والمناذرة كذلك بالنسبة إلى كسْرَى. وكان ملوك هذه المملكة وتلك، يتيهون فخرًا بأن السادة "اصطفوهم" ليكونوا أصدقاءهم وحلفاءهم. وكان الشعراء يطلقون ألسنتهم في مدح هؤلاء الملوك المخدوعين الغافلين عن حقيقة وضعهم المخزي كمجرد أتباع لا يملكون من السلطان ما يجاوز رغبات السادة الذين كانوا ينظرون إلى العرب على أنهم مجرَّد شراذم همجية تافهة من رعاة الإبل. الأمر الذي بدا بشدة في المفاوضات التي دارت بين الصحابة المشاركين في

فتوحات فارس والشام، وبين كل من قادة الجيوش الفَارِسِيَّة والرومية، إذ كان حديث هؤلاء القادة الروم والفرس يشي بأن الشعور الغالب عليهم تجاه غزو العرب لهم هو "الاستنكار" أكثر من كونه الغضب. بل ويظهر ذلك أيضًا في أن التفسير الأول الذي ساقه هؤلاء القادة لغزو المُسْلِمُون لأراضيهم هو أنه "ما أخرجهم سوى الجوع" وما ترَتب على ذلك من عروض للجيوش الإِسْلاَمِيَّة بالعودة من حيث أتت مقابل إعطاء كل جندي دينارين وكسوة وبعض الطعام. مما يعني أن روح التعامل مع العرب آنذاك كانت روح الاحتقار لا الصداقة والنِدِّيَّة، وهذا ما ينعكس بطبيعة الحال على علاقات الفرس بالمناذرة والروم بالغساسنة، تلك الحقيقة التي تعامى عنها ملوك هذا وذاك.

– النهاية:

ولأن السِّيَاسَة لا تعرف الأوضاع الثابتة، فقد كان من الطبيعي أن ينهار ذلك التحالف وإن اختلفت الأسباب. فبالنسبة إلى المناذرة، جاء ذلك بشكل مبكر عن إخْوَانهم الغساسنة. فقد تزايدت قوة المناذرة وبدأت تظهر في أسرتهم الحاكمة قوة بلغت ذروتها في عهد النعمان بن المنذر، مما أثار قلق السلطة الحاكمة في فارس وبدأت تخشى أن تغري النعمان قوته فيخرج عن طاعة سادته الفُرس، فقرر كِسْرَى اختبار طاعته بأن طلب من النعمان أن يرسل إليه نساء بيته ليتزوجن رجالاً من فارس، ولأن هذا المطلب عند العرب شديد المهانة، فقد رفض النعمان، وهنا علم كِسْرَى أن عليه إزاحة هذا الملك العَرَبِيّ –وأسرته كلها– من الطريق واستبدال ملوك جدد يجيدون الطاعة بهم. فأرسل كِسْرَى في استدعاء النعمان الذي أدرك أنه مقتول إذا ذهب إلى فارس، لكنه اضطر إلى الذهاب حتى لا يعرض مملكته لمداهمة جيوش الفُرس لها، وهناك قتله كِسْرَى وأنهى حكم المناذرة تمامًا.

أما الغساسنة فقد انتهى تحالفهم مع الروم بانتهاء الوجود البِيزَنْطِيّ في الشام على يد الجيوش الإِسْلاَمِيَّة بقيادة خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص (رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ) وذوبان مناطق نفوذ الغساسنة في بوتقة الدَّوْلَة العَرَبِيَّة الجديدة وتحولها إلى مجرَّد ولايات عَرَبِيَّة إِسْلاَمِيَّة خاضعة للعاصمة في المَدِينَة.

كما رأينا، فإن تلك التبعية المهينة التي استنزفت دم وطاقة مملكتَي الغساسنة والمناذرة، وعطلت كل منهما عن أن تكون لها طموحاتها وحضارتها المستقلة، لم تنته إلا بالاتحاد التدريجي للعرب تحت راية الإِسْلاَم الذي كان قد انتشر في الحجاز ومحطيه آنذاك،

فأصبح للعرب هدف موحد واتجاه واحد وخطوات ثابتة منظمة، خرجت بهم من دائرة التبعية لقيصر وكِسْرَى، تلك التبعية التي وضعت هؤلاء العرب في وضع "الزمن الثابت" وجعلتهم يتحركون في نطاق ضيق كقطع الشطرنج. تلك الحقيقة التي عبر عنها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) بقوله للقائد الفَارِسِيّ الهرمزان حين أسره المُسْلِمُون: "إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا"

هكذا.. يبدو لنا أن التبعية السِّيَاسِيَّة ليست أمرًا مستحدثًا ولا هي واقعًا جديدًا علينا.. بل هي أقدم من ما يبدو.. وهي الآنَ كما كانت قديمًا، من حيث المضمون، وإن اختلف الشكل.

مصادر المعلومات:

١- البداية والنهاية: ابن كثير.
٢- فجر الإِسْلاَم: أحمد أمين.
٣- تاريخ العرب القديم: د/ توفيق برّو.
٤- تاريخ قريش: د/ حسين مؤنس.
٥- جزيرة العرب قبل الإِسْلاَم: برهان الدين دلّو.
٦- موسوعة تاريخ العرب: عبدعون الروضان.
٧- محمد والذين معه: عبد الحميد جودة السحار.
٨- تاريخ الشعوب الإِسْلاَمِيَّة: كارل بروكلمان.
٩- أطلس التاريخ العَرَبِيّ الإِسْلاَمي: د/ توفيق أبو خليل.
١٠- تاريخ الخلفاء الراشدين: د/ محمد سهيل طقّوش.

بين البارحة واليوم – الجزء الثاني

حُكم العَسكَر

عهدان، بين بداية كل منهما مئات السنين، لكن ما أشبه اليوم بالبارحة.. بين يوم يحكم فيه الرئيس الزعيم قائد المسيرة، من قصور الرئاسة بقاهرة القرنين العشرين والحادي والعشرين، وبارحة تسلطن فيها سلطان البرين وملك البحرين وخادم الحرمين الشريفين حامي حمى المسلمينَ، من قصره في قلعة الجبل بالقاهرة المملوكية. قرونٌ تفصل بين هذا وذاك، ولكن الاتفاق والتشابه هما اسما اللعبة التي بدأت بظروف أنتجت لنا ما يُسَمَّى بحُكم العسكر!

ظروف الميلاد كانت هي نفس الظروف تقريبًا، مع فوارق بسيطة يحكمها اختلاف الزمن عن الزمن. فكل من الحكمين، الثوري بعد انقلاب ١٩٥٢ والمملوكي بعد سقوط دولة خلفاء صلاح الدين الأيوبي، جاء نتيجة ظروف سياسية قاسية مرت بها الأمة. وكما كانت الظروف –تقريبًا– واحدة، كانت الآثار شديدة التشابه بشكل مثير للانتباه. حتى إن كثيرًا من المتأملين في التاريخ المصْرِيّ الطويل، تُلفَت أنظارهم إلى مدى التشابه بين العصرين، الحديث والمملوكي، بالذات في المكونات الاجْتمَاعيَّة والأخلاقية والسلوكية للمجتمع، سواء في الحاكم أو المحكوم. والمدقق في العصر المملوكي، يتأكد من هذه النظرية.

I- مصلحة الدَّوْلَة:

الحاكم -مهما كان عظيمًا- في النهاية بشر، ولا يمكننا أن نتوقع ميلاد حاكم من رَحِم القوة المسلحة وتربعه على عرش دولة كبيرة دون أن يتأثر بذلك نفسيًّا وفكريًّا، هو وخلفاؤه، خصوصًا لو أصبحت القوة العسكرية الممثلة في السيطرة على الجيش هي سُلَّم ارتقاء هذا الحاكم سُدَّة الحكم. وبالذات لو كان ذلك في ظروف شديدة الحساسية كتلك التي عاشتها مصر عشية العصر المملوكي، من تهديد صليبي مغولي مشترك. هذا ما كان بالفعل، فقد آمن الحكام المماليك -منذ تولت شجر الدر السلطنة- أنهم وحدهم حماة الأمة والعارفون بمصالحها دون غيرهم، وامتدّ هذا الإيمان بفعل القصور الذاتي طوال العصر المملوكي فاتحًا الباب لعصر كامل من انفصال فكر الحاكم عن فكر المحكوم بدعوى أن الأول يعرف مصلحة الأمة أكثر من الثاني، ذلك الانفصال الذي ظل يتسع حتى صارت الرابطة الوحيدة بين سلاطين المماليك والمْصْرِيِّين أنه حين يقول السلطان "ولا الضالّين" يردّ الشعب "آمين"! وأصبحت العَلاَقة بين قلعة الجبل -مقر الحكم- وشوارع مصر المحروسة هي أن يترك الشعب تسيير الأمور للحكام مقابل أن يلتزم هؤلاء الحكام بتيسير سُبُل الحياة الكريمة له. وللحق، فقد التزم سلاطين المماليك خلال العهود الأولى لهم (العصر المملوكي الأول) بتنفيذ هذا الاتفاق الضمني، وكانت عهود سلاطين مثل الظاهر بيبرس وسيف الدين قلاوون والأشرف خليل بن قلاوون والناصر محمد بن قلاوون -بحق- عصور ازدهار اقتصَاديّ وفكري واجتماعي كبيرة للشعب المصْرِيّ الذي كان تسليمه مقاليد الحكم كافة للمماليك خلال تلك الفترة نابعًا عن إيمان كبير بقدرة هؤلاء على توجيه الدَّوْلَة، خصوصًا مع الإنجازات العظيمة لملوك هذا العصر في تحرير الأراضي العَرَبِيَّة المحتلة من الصَّلِيبِيّين والمغول، بل وإضفاء النفوذ الإسْلاَمي على مناطق جديدة من العالم وإقامة علاقات تجارية قوية مع أورُبَّا برزت فيها الهيبة الكبيرة للعرب والمُسْلمينَ حتى تسارع ملوك العالم لخطب ودهم.

أما في العصر المملوكي الثاني فقد ظهر الخلط الفادح بين مفهومَي "النظام" و"الدَّوْلَة"، حيث أصبحت مصالح كل منهما مختلطة ممتزجة وأصبح الباب مفتوحًا للانتقاص من حقوق الشعب ومعيشته وحرياته بدعوى "الضرورة" و"الظروف الطارئة" و"المرحلة الهامة التي تمر بها الأمة"، إلى آخر تلك الكلمات والعبارات الهلامية الرامية إلى إدخال المْصْرِيِّين في دوامة فكرية لا نهائية حتى يستسلموا عجزًا ويأسًا للواقع الجديد من أنهم تحولوا من "مواطنين لهم حقوق" إلى "رعايا في قطيع كبير" تحركه عصا الراعي وجزرته.

ممّا أضاع -في العصر المملوكي الثاني- كل جهود سلاطين العصر الأول في بناء دولة قوية، يسلم شعبها الحكم كله للحكام من باب الاقتناع بالحاكم لا الإذعان خوفًا من بطشه.

II- مؤهلات الحُكم:

العصر المملوكي الثاني كان -بحق- عصر تدهور فادح لمصر على كل المستويات، حيث كثر صعود ونزول الملوك إلى ومن العرش، وكلهم كانوا ملوكًا لا يصلحون للحكم بأي حال من الأحوال، عدا قلة منهم حاولت إصلاح أوضاع البلاد، كالسلطان الأشرف قايتباي -الذي يُعتَبَر من آخر الرجال المحترمين- وسلفه الأشرف برسباي الذي حاول إعادة هيبة الدَّوْلَة من جديد. في ما عدا ذلك كان السلاطين بين متفرغ لِمَصّ دماء الشعب أو ألعوبة في يد الحاشية التي تحكم من الظل، أو أسد على الشعب ونعامة على أعداء الوطن. هذا لأن مؤهلات تولّي الحكم كان الخلل قد أصابها، فلم تعد سابقة جهاد العدو -كما مع بيبرس وقطز وقلاوون- ولا النبوغ المبكر -كما مع الناصر محمد بن قلاوون- بل أصبحت أهم مؤهلات الحاكم أن يكون إمّا قويًّا متسلطًا ذا باع في التآمر -كخير بك الدوادار (الذي حكم ليلة واحدة قبل أن ينقلب عليه قايتباي)- وإمّا طفلاً سهل التحكم فيه -كمحمد بن قايتباي- وإما جاهلاً بليد العقل يسلّم أمره للحاشية كالظاهر إينال الذي لم يكن يعرف كيف يكتب اسمه. ولأن الحاكم كالإمام إذا ركع ركعت الرعية وإذا قام قامت، فقد انعكس ذلك على معايير مختلف وظائف الدَّوْلَة، من قيادة الجيش ورئاسة الدواوين وإدارة الشؤون المالية، حتى أصبحت القَاعدَة هي أن يتولى الأمر من ليس أهلاً له، فعَمّ الفساد بشكل أصبح هو فيه الأصل، وصلاح الأحوال هو الاستثناء. وحتى بيعت المناصب بالأموال وتم توريث بعضها في نطاق الأسرة الواحدة بشكل علني!

III- أموال الدَّوْلَة.. والسلطان:

وكما اختلط مفهوما "الدَّوْلَة" و"النظام الحاكم" -في العصر المملوكي الثاني- فقد اختلطت ممتلكات كل منهما، سواء بالاستيلاء المباشر عن طريق التلاعب في دفاتر واردات وصادرات دواوين التجارة والصدقات والأوقاف، أو عن طريق إدارة تجارة منتجات الدَّوْلَة لصالح السلطان وحاشيته بدعوى "احتكار الدَّوْلَة لصناعات بعينها"،

وليت ذلك كان في السلع الكمالية غير الضرورية للجميع، بل على العكس، كان ذلك متركزًا على السلع الأساسية كالقمح والسكر والزيوت والشمع لكثرة من يحتاجونها، بل وتطور الأمر إلى تقنين ممارسة بعض التجارات غير المشروعة كزراعة وتجارة الحشيش وإدارة بيوت الدِّعَارَة وفرض ضرائب عليها باسم الدَّوْلَة ولصالحها!

والطامة الكُبرَى كانت حين شرّعَت السلطة نظامًا جديدًا لجمع ضرائب الأراضي الزراعية –التي يقوم عليها معظم اقتصاد مصر– وهو نظام "الالتزام" حيث تَخَلَّت الدَّوْلَة عن ممارسة دورها في جمع ضرائب الأراضي لأفراد من أعيان الشعب فرضت على كل منهم أن يقدم لها مبلغًا من المال بشكل دوري، وأطلقت يده في جمعه من الفلاحين بكل الطرق دون أي قيود مقابل نسبة كبيرة من أرباح بيع المحاصيل يضعها في جيبه. فكانت النتيجة أن كان الملتزم بدوره يمارس مصًّا فادحًا لدماء وأرزاق الفلاحين ليزداد نصيبه من الأرباح، وورثت الدَّوْلَة العثمانية هذا النظام بعد احتلالها مصر حتى وقفه محمد علي باشا.

ولتكتمل المأساة، انتشر تزوير العملات المعدنية، وهذا بغش عيارات سكِّها، والكارثة أن هذه الجريمة كانت تُرتَكب في دار السِّكَّة نفسها!

كل تلك الجرائم في حقّ الاقتصاد المصْرِيّ أدَّت إلى تدهور الأحوال المعيشية للشعب، وتراجع الأداء التجاري، فداخليًّا أُغلقَت أسواق كاملة لبوار وكساد سلعها وضعف الطلب عليها. واختفى تنوع السلع والخدمات، فمثلا، بعد أن كان المواطن في العصر المملوكي الأول يضع على مائدته عشرة أنواع من الجبن والحلوى، أصبح بالكاد يجد خبزًا غير مغشوش المكونات، وبعد أن كان ارتداء الفراء الغالي منتشرًا بين عوام الناس، أصبحوا يرتدون الجوخ الذي لم يكن يستخدم إلا لصنع عباءات واقية من المطر يرتدونها على ملابسهم.

أما خارجيًّا فقد انهارت سيطرة مصر على تجارة العالم بالانهيار الفادح للزراعة والصناعة والتجارة، وكانت الضربة القاضية في اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، مِمَّا غيّر مسار طريق التجارة بين أُورُبَّا والهند الذي كانت مصر تحتكره.

IV- أصحاب العمائم والأقلام:

عندما أعاد الظاهر بيبرس فتح الجامع الأزهر -بعد أن كان مغلقًا طوال العصر المملوكي- كان يهدف من ذلك إلى تحويله إلى قبلة لطلاب العلم من شتى بقاع الأرض. و لم يبخل عليه ولا على علمائه وطلابه بالنفقة والرعاية وتيسير سبل الراحة حتى تحول بالفعل إلى جامعة كبيرة جذبت آلاف الدارسين من مختلف البلدان، حتى عُرِفَت أعمدته وأروقته بأسماء تلك المناطق الوافد منها الطلاب، كرواق المغاربة ورواق الشوام، إلخ. بل إن الدراسة كانت مفتوحة به أحيانًا لغير المُسْلمينَ من الراغبين في تعرُّف العلوم الدِّينيَّة الإِسْلاَميَّة. وعمل خلفاء بيبرس على إكمال حلمه، حتى أصبحت القاهرة مركزًا علميًّا عملاقًا، وأنتج العصر المملوكي الأول بشكل عام علماء عظماء، كالفقيه تقي الدين بن تيمية، والمؤرخ إِسْمَاعيل بن كثير وغيرهما. وما ساعد في ذلك أيضًا أن معظم علماء الشام والعراق الفارّين من وجه التتار توجهوا إلى مصر، كما حدث مع الفقيه الشامي العز بن عبد السلام. كانت نهضة قوية مندفعة حتى إن التدهور الذي أصاب الدَّوْلَة خلال العصر المملوكي الثاني لم يَقِفْها فأخرجت مصر علماء مثل الفقيه جلال الدين السيوطي والمؤرخين ابن خلدون وابن إياس وابن تغري بردي وابن الحمصي، وغيرهم.

ولكن للأسف، فإن وباء الفساد قد امتد إلى نسبة ضخمة من "أهل العمامة" -وهو مصطلح يعني الفقهاء وأصحاب القلم من كتاب ومفكرين- بالذات في ما يتعلق بالفقهاء. فالفقيه -منذ بداية عصر المماليك- كانت له مكانة كبيرة لدى كل من الحاكم والمحكوم. وإذا كان حكام العصر الأول كقطز وبيبرس أحسنوا استغلال تلك المكانة الدِّينيَّة للفقيه، في حثّه على إثارة حماسة الشعب لمجاهدة أعداء الأمة، فقد أساء حكام العصر الثاني استخدام السلطة الدِّينيَّة لرجل الدين. فكانوا يحرصون على تقريب من باعوا ضمائرهم من رجال الفقه، ليخرجوا كل حين بفتاوى على الشعب توطد مبادئ الطاعة العمياء لولي الأمر، وتحرم بشدة مجرَّد الاعتراض على سوء الأحوال، باعتباره اعتراضًا على قضاء الله. بالإضافة إلى السعي لإغراق الرعية في التواكل والقدرية المفرطة وخرافات الدروشة والفتاوى العبثية غير ذات العَلاَقة بأحوال البلاد. بل بلغ الأمر أن الحاكم كان كلما أراد أن يمارس عدوانًا على حق للشعب أو حرية فردية، سارع الفقيه بإصدار فتوى تبيح ذلك له وتجعل من مخالفته كفرًا بيِّنًا يبيح دم المخالف! وكثرت ظاهرة تجاهل الفتوى في الأمور الحياتية المْصْرِيَّة التي تهم الرعية، مقابل الإفراط في إصدار فتاوى غير ذات أولوية، وخوض مناقشات حامية حول أمور جانبية مثل دخول الحمام بأي قَدَم، وما إذا

كان اللواط سيُاح في الجنَّة أسوة بالخمر، بل وإصدار فتاوى وأحاديث "تحت الطلب" كالذي وضع حديثًا يقول: "إذا أَسْمَكْتُمْ (أكلتم السمك) فأبْلحُوا (كلوا البلح)" بعد أن دفع له تاجر بلح كبير رشوة لذلك! أي أن نسبة ضخمة من رجال الدين -آنذاك- تحولوا إلى تجار بالدين، يعملون لحساب الحاكم، اللهم إلا في عصر قايتباي الذي كان الفقهاء يدخلون عليه وينتقدونه بقسوة فيرتعد ويسارع بشكرهم وتقبيل أيديهم.

ولكن في المقابل نشأت حركة ثقافية قوية معارضة لذلك التدهور الفكري الذي هدد نهضة أرباب القلم والفقه. فظهرت مبادرة الإمام جلال الدين السيوطي لتنقية الأحاديث النبوية الشريفة من تلك الموضوعة كذبًا. وجاء ابن خلدون بمحاولاته لتنقية منهج كتاب التاريخ من الأهواء والمحاباة. وعلى مستوى الأدب، انتشر الأدب والشعر الساخرين من الحكام الطغاة ورجال الدين الفاسدين. أي أن العصر المملوكي الثاني شهد نهضة ثقافية كبيرة، ولكن مع فارق عن شبيهتها في العصر الأول أن تلك الأخيرة كانت برعاية الدَّوْلَة، بينما كانت نهضة العصر الثاني برعاية أفراد الشعب من أصحاب الفكر والعقل الذين اعتبروا أنفسهم -بحق- الملجأ الأخير للأمة من الانهيار.

V- العصر المملوكي الثالث:

إن المتأمل في كل ما سلف ذكره إنما يشعر أننا نتحدث عن عصرنا هذا الذي بدأ كسالفَيه بتربُّع العسكر على كراسي الحكم، بثقتهم المفرطة في أن قوتهم هي سبب شرعية وجودهم، لا تقبل الشعب لهم. وما ترتب على ذلك من تهميش تدريجي متعمَّد لوجود هذا الشعب وتحويله إلى رعايا عصا. والانتقاص يوميًّا من حقوقه بدعاوى الضرورة والطوارئ والظروف. واعتبار الكبار دائمًا على حقٍّ في ظل غياب معنى كلمة "حق" وعدم اتفاق الحاكم والمحكوم على تعريف حاسم لها. كل هذا خلق البيئة اللازمة لنشوء أمراض كالمحسوبية والفساد وتداخل المال العام مع الخاص، وما ترتب عليها من أزمات اقْتِصَاديَّة واجْتِمَاعيَّة وفكرية.. تجعلنا -بكل ثقة- نطلق على عصرنا هذا لقب "العصر المَملوكي الثالث"

مصادر المعلومات:

البداية والنهاية: ابن كثير.
٢- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي.
٣- بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس.
٤- عن الفساد وسنينه: فهمي هويدي.
٥- عصر الجماهير الغفيرة: د/ جلال أمين.
٦- مصر والمِصْرِيُّونَ في عهد مبارك: د/ جلال أمين.
٧- تاريخ الشعوب الإِسْلاَمِيَّة: كارل بروكلمان.
٨- وجع المِصْرِيِّين: د/ خليل فاضل.
٩- القاهرة مدينة الفن والتجارة: جاستون فييت.
١٠- تطور الحيازة الزراعية زمن المماليك الجراكسة: د/ عماد بدرالدين أبوغازي.
١١- عامة القاهرة في عصر سلاطين المماليك: د/ علاء طه رزق.
١٢- بين الأدب والتاريخ: د/ قاسم عبده قاسم.
١٣- بين التاريخ والفولكلور: د/ قاسم عبده قاسم.
١٤- عصر سلاطين المماليك: د/ قاسم عبده قاسم.
١٥- مصر والبندقية: د/ ناجلا محمد عبد النبي.
١٦- مصر في العصور الوسطى: د/ محمود الحويري.
١٧- أهل الذِّمَّة في مصر من الفتح الإِسْلاَمي حتى نهاية المماليك: د/ قاسم عبده قاسم.
١٨- أهل العمامة في مصر عصر سلاطين المماليك: د/ حسن أحمد البطاوي.
١٩- الفرق والجماعات الدِّينِيَّة في الوطن العَرَبِيّ: د/ سعيد مراد.
٢٠- حوادث الزمان: ابن الحمصي.
٢١- الرحلة إلى مصر والسودان والحبشة: أوليا جَلَبي.
٢٢- وصف إفريقيا: ليون الإفريقي.
٢٣- تحفة النُّظار في غرائب الأمصار: ابن بطوطة.
٢٤- الفقر والإحسان في مصر عصر سلاطين المماليك: د/ قاسم عبده قاسم.
٢٥- تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام: د/ محمد سهيل طقوش.
٢٦- تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام: د/ محمد سهيل طقوش.
٢٧- ملامح القاهرة في ألف سنة: جمال الغيطاني.
٢٨- بطن البقرة: خيري شلبي.
٢٩- سقوط نظام: محمد حسنين هيكل.

٣٠- فاروق من الميلاد إلى الرحيل: د/ لطيفة سالم.

٣١- لمصر لا لعبد الناصر: محمد حسنين هيكل.

٣٢- ماذا علمتني الحياة: د/ جلال أمين.

ظروف صعود النظام الثوري العسكري عشية انقلاب يوليو ١٩٥٢

عشية ٢٣ من يوليو ١٩٥٢ كانت مصر تعيش ظروفًا شديدة القسوة. ففي القاهرة، كان نظام حكم الملك فاروق الأول (رَحِمَهُ ٱللَّهُ) يتهاوى بين كلابات السيطرة البريطانية على السِّيَاسَة المِصْرِيَّة، وفساد نسبة لا بأس بها من رجال الحكم، وقلة خبرة الملك الذي لم يكن إخلاصه الحقيقي كافيًا ليعوِّض ضعف قدرته على تسيير دولة كمصر في ظروف كتلك التي عاشتها. وللأسف، كان الرجال القادرون على معاونته في رغبته الصَّادقة لبناء مصر قوية ومستقلة غائبين إما في معاركهم السِّيَاسِيَّة بينهم (الأحزاب)، وإما في محاولاتهم مصَّ ثروات الدَّوْلَة في عروقهم (الحاشية) مستغلين عاطفية الملك الشاب وضعف قدرته على تمييز العَنَاصر الجيدة من الفاسدة من رجال الحكم.

وكانت آثار نكبة فلسطين ١٩٤٨ لا تزال متورمة نازفة في جسد الأمة، مِمَّا كان يضاعف حالة الغضب العامِّ في الشارع السِّيَاسِيّ واستعداده لتقبل فكرة التحرك العنيف للاستيلاء على الحكم، وهذا ما حدث في الانقلاب العسكري الذي نفذه الجيش في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ (عدا سلاح البحرية الذي بقي على ولائه للملك باعتباره الحاكم الشرعي للدولة، بل وكان يستطيع التدخل لإفشال حركة الجيش لولا رفض الملك أن يتسبب في وقوع حرب أهلية في مصر).

في تلك الظروف، جاء حكم العسكريين ليدخل بمصر مرحلة ممتدة حتى الآن.. وإن اختفت الأزياء العسكرية وراء الحُلَل المدنية.

ظروف صعود المماليك للحكم عشيّة سقوط دولة الأيوبين

صلاح الدين الأيوبي كان قائدًا عظيمًا، ولأن أخطاء العظماء عظيمة مثلهم فقد ارتكب خطأً سياسيًّا بالغ الخطورة عندما قام -قبل موته- بتقسيم الدَّوْلَة القوية التي أسسها، بين أبنائه وأبْنَاء إخوته وأخيه الملك العادل. كان صلاح الدين بتلك الخطوة قد هدم ما قضى عمره يبنيه، وهو مشروع "الدَّوْلَة العَرَبِيَّة الموحدة" سرعان ما ظهرت الصراعات بين ورثة القائد العظيم، وبدأت الحروب الأهلية تنشب بين أخوة الأمس. مِمَّا دفع الملك العادل للتدخل لإنقاذ مشروع أخيه وسلفه، وبدأ يستولي على أملاك أبْنَاء أشقائه واحدًا تلو الآخر، حتى أصبح المسيطر على أكبر مساحة ممكنة من الدَّوْلَة الأيوبية، إضافة إلى بعض المناطق صغيرة المساحة. وللأسف عاد الصراع للصعود على السطح بعد موت العادل، في وقت كان الصَّليبِيُّون يبدأون فيه استكمال مشروعهم الاستعماري في الشام، وكان المغول يطرقون بوحشيَّة أبواب المشرق العَرَبِيّ الإسْلَامي، هنا لم يكن بدٌّ من تدخل القوة العسكرية الممثلة

في المماليك. المماليك كانوا عبارة عن رقيق أبيض اشتراهم ملوك الأيوبيين بالآلاف، من روسيا وآسيا الصغرى، وكانوا يدربونهم من الصغر على حمل السلاح والتعصب للدفاع عن الدين. تزايدوا حتى صاروا قوة سياسية يُحسَب لها ألف حساب، وجاء الوقت ليتولوا الحكم بعد أن أحسُّوا انهيارًا واقعيًّا لقوة بني أيوب، وخطورة جرّاء ذلك على استقلال ووحدة الأمة، ممَّا جعلهم يؤمنون أنهم يمثلون الدرع الوحيدة لأمة العرب والمُسْلمينَ أمام الأخطار الوافدةَ عليها من الخارج وأن من واجبهم التدخل لإنقاذ الدَّوْلَة من الدمَار. وقد كان هذا، فبعد وفاة السلطان نجم الدين أيوب، ملك مصر والشام، استدعى قادة المماليك ابنه توران شاه من الموصل التي كان يحكمها آنذاك، وبايعوه ملكا على البلاد. لكن هذا الأخير لم يكن على قدر المسؤولية الجسيمة التي كان عليه حملها، بل كان شديد الرعونة والغباء حتى إنه -في ذلك الوقت الحرج- كان يتآمر على قادته للتخلص منهم غيرة من شعبيتهم بعد الانتصارات التي حققوها على الحملة الصّليبيّة السابعة في دمياط والمنصورة، ممَّا اضطر هؤلاء القادة إلى قتله. كانت النتيجة وقوع البلاد في أزمة فراغ سياسي في مرحلة تَحتاج فيها إلى قائد. لهذا، وبعد مشاورات دقيقة، بايع القادة المماليك زوجته شجر الدُّرّ سلطانة على البلاد، وأعلنوا بدء الجِهَاد المقدس ضدّ العدو، ليبدأ بذلك عصر من أكثر العصور تميزًا في التاريخ، هو العصر المَملوكي.

بين البارحة واليوم – الجزء الثالث

دواعٍ أمنية!

من المتطلبات الغريزية للإنسان –قديمًا وحديثًا– حماية مجتمعه واستقرار سير الحياة به. ولأن الكل أكبر من مجموع أجزائه، فالقائم على حماية المجتمع عادةً ما يُضطر إلى أن يفرض بعض القيود على بعض الأنشطة الإنْسَانيَّة لبعض أو كل أفراد جماعته البشرية، في سبيل تحقيق الصالح الأمني العام لتلك الجَمَاعَة. ذلك الصالح الذي يعبر عنه تعبير "الدواعي الأمنية"، ذلك المصطلح الذي يفقد معناه إذا تجاوز حده فانقلب إلى ضده!

والتاريخ شهد الكثير من النماذج والصور لتلك الاجراءات المُبَرَّرة بـ"الدواعي الأمنية" منها ما كان عادلاً، ومنها ما كان غير ذلك... عن بعض الأمثلة لتلك الاجراءات –تحديدًا العدواني منها– نتحدث:

– حظر التجوال:

أول من سَنَّ هذا النظام –على الأقل بين العرب– كان الوالي "زياد بن أبيه"، الذي عيّنه أمير المؤمنين مُعَاوِيَة بْن أَبِي سُفْيَان (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) على بعض مناطق العراق. ذلك الوالي كان معروفًا بالصرامة المبالغ فيها، وكان سبب توليته تلك المنطقة بالذات هو أنها كانت معقلاً من معاقل الخوارج الذين كانوا يعيثون فسادًا في الأرض، سواء بنشرهم مذهبهم الذي يُكفِّر كل من خالفهم، وأولهم الإمام علي بْن أبي طالب (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ) أو بغاراتهم على المدن والقرى وسفكهم دماء الأهالي بشكل بشع، وكذلك مؤامراتهم

المستمرة لاغتيال أهم رؤوس الدَّوْلَة الإِسْلاَمِيَّة، والتي سقط ضحيتها الإمام علي بْن أبي طالب نفسه، عندما اغتالوه في صلاة الفجر.

كان زياد بن أبيه إذن الرجل المناسب للمكان المناسب، وقد نجحت سياسته بالفعل في ردع المفسدين وتحقيق الأمن العامّ، لكنه في سبيل ذلك بالغ بعض المبالغات القاسية، فسفك دماء بعض الأبرياء لمجرَّد الريبة، ففي يوم أعلن منع التجوال من العشاء إلى الفجر، وأنذر من يخالف ذلك بالقتل، وبينما هو يسير ليلاً ليتأكد من تنفيذ أوامره، وجد أعرابيًا فأمسكه وسأله: "ألم أقل من يرِ بعد العشاء يُقتَل؟"، فاعتذر الرجل بأنه من البادية فلم يبلغه الأمر، وقد ضلَّ بعير له ودخل المدِينَة فهو يبحث عنه. ابن أبيه أجابه: "الله إني لأراك صادقًا، لكن في قتلك صلاح المسْلمِينَ"، وأمر بضرب عنق الرجل! وكانت حجته أن تنفيذ القرار بصرامة على الجميع، بلا عُذر لمعذور، فيه توطيد لهيبة السلطة وأوامرها الرامية إلى مصلحة الرعية، فتجاوز بذلك الحدود وتحوَّل هو نفسه إلى تهديد للرعية بشكل مثير للسخرية. والكارثة أنه –كمعظم مَن هم مثله– كان يؤمن في قرارة نفسه أنه يحقق ما في المصلحة العامة مبتغيًا بذلك الأجر والثواب من الله!

– التلصُّص:

عندما كان الفاروق عمر بن الخطاب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) يسير ليلاً يستطلع أحوال الرعية، سمع صوت رجل وامرأة يتحدثان ويضحكان بشكل أثار ريبته، فتسلق سور البيت الصادر منه الصوت، ونظر فوجدهما يشربان الخمر. وعندما هَمَّ بمعاقبة الرجل، قال له هذا الأخير إنه (أي عمر) قد أخطأ إذ تلصص على بيته والله تعالى قال: ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾ فتجاوز عنه ابن الخطاب وأخذ عليه العهد أن لا يشرب الخمر ثانية. ولأن عمر بن الخطاب، والخلفاء الراشدين بشكل عام، من مصادر التشريع الإِسْلاَمي، فإن موقفه يُظهِر أن التلصص على الناس بدعوى حماية الأمن لا يجوز، إلا في حالات الضرورة بالطبع التي تبيح المحظور وفي حدود الوفاء بالغرض.

تلك الْقَاعِدَة لم يحترمها الكثير من الحكام، بالذات في العصور التي سادت بها ظاهرة الاستيلاء على السلطة بالتآمر، كالعصر المملوكي الذي تنطبق على نصفه الثاني بالذات النكتة القائلة إن "من يستيقظ مبكرًا أولاً يمسك بالحكم!" والتي قيلت في بلد عَرَبِيّ شقيق توالت فيه الانقلابات خلال فترة الخمسينيات والستينيات.

في العصر المملوكي برزت ظاهرة "دس الأعين والآذان" على الناس، بالذات في

التجمعات المؤثرة كالأسواق والمساجد الكبرى ومجالس العلم والأدب. تلك الظاهرة التي عبّر عنها العبقري جمال الغيطاني في رائعته "الزيني بركات" من خلال حديثه عن وظيفة "كبير البصّاصين" التي لم توجد أصلاً بهذا المسمى –باعتراف الغيطاني– لكنها تعبر عن واقع فعلي ساد. حيث كان الكل تقريبًا يتجسس على الكل، الأخ على أخيه، والتلميذ على أستاذه، والخادم على سيده، بشكل أثار حالة من افتقاد الأمان الاجتماعي بصورة مدمرة خلقت نوعًا من "البارانويا الجماعية" بين العامة، بل والخاصّة أيضًا، أسهمت بشكل كبير في تدهور أحوال المجتمع نظرًا إلى انعدام الثقة ضرورية التبادل بين أفراده ليمارسوا التفاعل الإنساني المطلوب للارتقاء بالمجتمع. وهذه نتيجة طبيعية للمبالغة في إجراء خطير كهذا بذرائع واهية حولته من سلاح لحماية المجتمع إلى خنجر ينتحر به!

– الاعتقال وتحديد الإقامة:

الاعتقال هو الصورة المباشرة البسيطة لتقييد الحرية إما لاتهام أو لريبة أو حتى للاحتراز من ضرر قد يسبِّبه المُعتَقَل. ذلك الإجراء شديد القدَم، لكنه بلغ ذروة تطبيقه خلال العصر العَبَّاسيّ، عندما كثرت الاشتباكات السِّيَاسِيَّة وما ينتج عنها من صعود وهبوط نجوم رجال السِّيَاسَة والحكم. وكان الإجراء الأقل قسوة المطبق على المهزوم في تلك المعركة الدائمة، أن يلزم بيته، وربما حُكِمَ عليه أن لا يزور ولا يزار. كان هذا القرار يُتَّخَذ تجاه من يُخشَى أن يستجمع قوته ويكَر على خصمه، وفي نفس الوقت لا يمكن قتله أو حبسه لنفوذ عشيرته أو لمقامه من الخصم، كأن يكون والده أو أخاه. أما في ما عدا ذلك فكان المهزوم عادة يُقتَل أو يُسجَن في سجن مطبق دائم. ولكن تلك لم تكن قاعدة ثابتة، فكثيرًا ما كان الحبس يُقرَن بإحداث تلف بجسم المحبوس كيلا يسبب ضررًا إذا هرب، كأن تُسَمَّل عيناه، أو تُقطَع يده، أو يُضرَب حتى تتكسر عظامه ويتلف جسمه، أو يُحبَس في سجن رطب لا يرى الشمس حتى تعتلّ صحته بشكل دائم، فيخرج وقد أصبح حطام إنسان لا يُرجَى منه شيئًا!

الصورة الأخرى اللافتة للنظر في الاعتقال كانت في الدَّوْلَة العثمانية، عندما كان بعض السلاطين إذا تولى يأمر بحبس إخوته الذكور كلٌ في جناح خاص به مغلق عليه يُسَمَّى "القفص"، وكان يعيش فيه في فراغ ونعيم، لكنه لا يبارحه إلا إذا مات أو إذا أدت التغيرات السِّيَاسِيَّة إلى توليه العرش، وهذا النوع بالذات من السلاطين كان –بطبيعة

الحال- من أقلهم كفاءة نظرًا إلى عزلته عن دولته فترة طويلة، وكذلك للأثر النفسي السلبي الناتج عن انعزاله عن الناس بين أربعة جدران.

ولقرون كثيرة بقي الاعتقال هو الحل الذهبي -في نظر السلطة- للتعامل مع من يعارضها أو حتى لا يوافقها بالشكل الذي تراه كافيًا لتعتبره مواطنًا صالحًا، فهي ترغب في التخلص منه دون تلويث يديها بدمه. وقد ارتبطت تلك الظاهرة بمراحل تدهور الدول أولاً لأن تلك السِّيَاسَة قد حرمت الدَّوْلَة طاقة بشرية هائلة أُهدِرَت في السجون، وثانيًا لأنها كانت تثير حالة من السخط العام على السلطة وأخيرًا لأن السجون والمعتقلات مثلت بدورها مجتمعات بشرية موازية للعالم الخارجي، نشأت فيها الشرارات الأولى للتيارات التي أسقطت تلك الدول سالفة الذكر من خلال تجمع المسجونين بالذات رجال العلم والفكر وأهل السِّيَاسَة منهم.

- **التعذيب:**

عمل قديم قدَم الإنسان نفسه، وله آلاف الأسباب والدوافع والصور. إلا أن ارتباطه بحماية أمن المجتمع هو ما يضفي عليه خطورة كبيرة لأنه يصبغه بالشرعية. هذا ما جرى خلال الجزء المظلم من التاريخ الطويل للحضارات والدول السابقة. وفي تاريخنا العَرَبِيّ -للأسف- نقاط سوداء من دماء المعذبين. كان التعذيب عادة إما لنيل اعتراف بجرم وإما للإقرار على معلومة أو لاستخلاص أموال الشخص موضع التعذيب. المشكلة أن في الحالتين -الأولى والثانية- كانت تغيب عن القائم بالتعذيب حقيقة أن من يُعَذب غالبًا لن يقر بالحقيقة بل بما يريد مُعَذِّبه سماعه. أما في الحالة الثالثة فقد كان التعذيب هو نوع "رسمي من السطو المسلح. وفي كل الحالات لم تكن تراعى حرمة سن أو مرضٍ أو مكانة اجْتِمَاعيَّة، فأبو حنيفة النعمان عذّبه الخَلِيفَة أبو جعفر المنصور لرفضه تولّي القضاء حتى مات من أثر الضرب العنيف، وأم الخَلِيفَة العَبَّاسيّ المقتدر بالله تم تعذيبها -بعد خلع ابنها- بأن عُلِّقَت من رجليها حتى كان بولها يسقط على وجهها، وهذا رغبة في أن تسلم أموالها للخَلِيفَة الجديد، أما ابن المقفع -الأديب العَرَبِيّ الكبير- فقد جرى تقطيع جسده ببطء وهو حي وإلقاؤه في النار أمامه حتى مات.. و لم تكن لأي من تلك الانتهاكات عَلاَقة من بعيد ولا من قريب بحماية الأمن، ومع ذلك فقد كانت بأمر من الحاكم وتحت إشرافه. أي أن الأمر تحول من "حماية أمن المجتمع" إلى "حماية مصالح الحاكم وتصفية حساباته".

الكارثة هنا أن التعذيب تحول تدريجيًا من عمل صادم للرأي العام -باعتباره اعتداءً على الجسم البشري الذي كرَّمه الله تعالى- إلى "عمل من أعمال السلطة لحفظ الأمن وتحقيق الردع العام" فكانت النتيجة أن بدأ الأمر بالخارجين -فعلاً- على ولي الأمر، ثم اتسع نطاقه ليشمل كل من لم يرضَ عنه ولي الأمر، بما في ذلك أصحاب العقول والألسنة والمقامات العالية الذين تساهلوا مع الأمر باعتباره "لا يصيب سوى أهل الفساد والزُّعّار ممن يستحقون ذلك" -مع أنه حتى هؤلاء قرر الشرع أنهم لا يؤذَون إلا بقدر عملهم كما حدد المشرع الإلهي عزَّ وجلَّ- ثم فوجيء هؤلاء الذين صمتوا وتساهلوا بالبطش يمتد إليهم إذا لم يبدُ منهم الولاء الكافي للسلطان. وحين تكلموا كان الوقت قد فات لوقف ولي الأمر عند حده.

- الجرأة على الدم:

والتصعيد الأخطر للتمادي في تطبيق التعبير المطاط "الدواعي الأمنية" هو الاجتراء على سفك الدم بالقتل وهتك العرض. فكما رأينا، قام ابن أبيه بقتل الأعرابي -رغم يقينه بصدق حجته- لأنه خالف أمر حظر التجوال. تلك السِّيَاسَة كانت مفتاحًا لباب من القتل بدم بارد بِحُجَّة حفظ الأمن والسَّكينة، فبعد وفاة ابن أبيه، تولى ابنه عبيد الله بن زياد ولاية العراق، فسار سيرة أبيه بل وأبطش، حتى بلغ من الجرأة أن استباح دماء آل بيت النبي (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) في كربلاء عندما أرسل جيشًا يعترض الحسين (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ويقتله هو وعدد ضخم من آل بيته وأنصاره، ويمثل بأجسادهم، بِحُجَّة حماية ولي الأمر من خروجهم عليه. كان هذا في عهد يزيد بن مُعَاوِيَة، الذي لم تكفه جريمة واليه فأرسل إلى المَدِينَة المنورة جيشًا بقيادة مسلم بن عقبة المُرِّي -عندما علم بخروج أهلها عليه- وقام ذلك الجيش باقتحام المَدِينَة المُقَدَّسَة واستباحة دماء أهلها بل واغتصاب نساء منها حتى قيل إن عدد من اغتصبهن جنود ذلك الجيش بلغ ألف امرأة! تلك السلسلة من الجرأة على حرمات الدم والعرض انضم إليها -بجدارة- الحَجَّاج بن يُوسُف الثقفي، الذي بلغت جرأته أن حاصر مكة، عندما خرج عبد الله بن الزبير على الأمويين، وقام الحَجَّاج بضرب الكعبة بالمنجنيق حتى تصدعت، ثم اقتحم الحرم وقتل ابن الزبير وصلب جثته محتجًا بأنه إنما ينفذ أمر الله بطاعة أولي الأمر! واستمر في سياسته الدموية في القتل بمجرد الريبة وعدم التوقف عند حرمة إنسان أو مكان حتى بلغ عدد من قتلهم مئة وعشرون ألفًا فضلاً عن ثمانين ألفًا كانوا في سجونه وهو عدد لم يبلغه بعض عتاة الطغاة في العصر الحديث! الكارثة أن هؤلاء المجترئين على الدم كانوا يحسبون أنفسهم يحسنون صنعًا،

حتى إن الحَجّاج كان يعتبر أنه يحمي الأمة من الخارجين عليها، وكان يصلي بكل ورع وخشوعٍ وهو ربما فرغ توًّا من قتل أو تعذيب بريء أو أكثر، ومسلم بن عقبة، الذي قاد مذبحة المدينة المنورة، قال عند موته إنه إنما فعل ذلك يبتغي رضوان الله عليه ويحتسبها في حسناته! أي أن التمادي في تطبيق المبدأ قد بلغ حد التطرُّف، وعلماء الإجرام يتفقون أن أخطر أنواع المجرمين هو المجرم صاحب العقيدة!

– أيامنا هذه:

لو أن التاريخ رجل لأصابه الملل من فرط تكرار الإنسان نفسَه، والسخط من فرط تكراره أخطاءه مع أنه –التاريخ– طالما قدّم للإنسان عبَرًا تستحق النظر إلى مصائر الدول السابقة. فكل تلك الدول والأنظمة التي أفرطت في استخدام مبدأ "الدواعي الأمنية" قد انتهت بشكل مأسوي التهمت خلاله نفسها، وكان أول ضحاياها هم المفرِطون في تطبيق تلك النظرية. فالأمر أشبه بوحش ما إن يشم رائحة الدم حتى يشتهيها ثم يدمنها حتى يقتل مربيه وصانعه.

وتاريخنا الحديث والمعاصر يزدحم بقصص التجاوزات الأمنية، وكلها باسم الوطن وأمنه وسلامته، بشكل آلي بارد منهجي منظم، في إغفال لحقيقة بسيطة تقول إن أي دولة عبارة عن أرض وشعب وسلطة. والمساس بعنصر من تلك العَناصر لحساب الآخر يعني هدم قائمة من قوائم الدَّوْلَة وبالتالي فقدَانها شرعيتها، ممَّا يعني انهيار الدَّوْلَة نفسها.

المشكلة أن كل نظام يأتي ينظر إلى سابقيه ويقول: "أنا أعرف ماذا أفعل، سأتصرف بذكاء بحيث لا يجرى لي ما جرى لهم" وهذا ما يجري الآن، فاستمرار ظاهرة تحويل "الدواعي الأمنية" إلى مبدأ مطّاط يجري تحت ستاره ما يجري من قمع واعتقال وتعذيب وقتل، في نسبة ضخمة من مجتمعاتنا العَرَبِيَّة، إنما يعني أن الخَلَف ينظر إلى أخطاء السَّلَف بنظرة ضيقة بحيث ينظر للمبدأ الخاطئ باعتباره "خطأ في تطبيق المبدأ" لا "خطأ في المبدأ ذاته"، أي أنهم ينظرون إلى تجاوز الحد المسموح من التقييد لحريات الأفراد لا كأسلوب مرفوض في حدٍ ذاته، بل كأسلوب مقبول ولكنه لم "يُلعَب بشكل بارع"! وهو نفس المنطق الذي فكر به الأسلاف الذين ندموا حين لم ينفع الندم!

مصادر المعلومات:

١- البداية والنهاية: ابن كثير.
٢- بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس.
٣- مصر والمصْرِيُّونَ في عهد مبارك: د/ جلال أمين.
٤- عصر سلاطين المماليك: د/ قاسم عبده قاسم.
٥- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي.
٦- الطغاة والبغاة: د/ جمال بدوي.
٧- مسرور السياف وإِخْوَانه: د/ جمال بدوي.
٨- ما وراء التعذيب: بسمة عبد العزيز.
٩- موسوعة تاريخ العرب: عبدعون الروضان.
١٠- النظام السِّيَاسِيّ للدولة الإِسْلاَمِيَّة: د/ محمد سليم العوا.
١١- نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإِسْلاَمي: ظافر القاسمي.
١٢- منهج عمر بن الخطاب في التشريع: د/ محمد بلتاجي.
١٣- علم الإجرام والعقاب: د/ رمسيس بهنام.
١٤- العثمانيون: د/ محمد سهيل طقوش.
١٥- تاريخ المماليك: د/ محمد سهيل طقوش.
١٦- تاريخ الدَّوْلَة العلية العثمانية: محمد فريد بك.
١٧- الأحكام السلطانية: الإمام الماوردي.
١٨- الحَجَّاج في الميزان: محمد ناصح مؤيد العظم.
١٩- الجريمة: الإمام محمد أبو زهرة.
٢٠- أَبْنَاء الرَّسُول في كربلاء: خالد محمد خالد.
٢١- خلفاء الرَّسُول: خالد محمد خالد.
٢٢- مُعَاوِيَة بْن أَبِي سُفْيَان: د/ علي الصلابي.
٢٣- عبقرية عمر: عباس محمود العقاد.

بين البارحة واليوم – الجزء الرابع

الدراويش

ما شروطُ الصوفيِّ في عصرنا اليو مَ سوى ستَّةٍ بغيرِ زيادةْ

وهي العلوق والسُّكْرُ والسَّطْـ ـلَةُ والرَّقْصُ والغنَا والقِيَادةْ(*)

وإذا ما هَذى وأبدى اتحادًا وحلولاً من جَهْلِهِ أو إعادةْ

وأتى المنكرات عقلاً وشرعًا فهو شيخ الشيوخ ذو السّجّادةْ

هكذا وصف الشاعر في العصر المملوكي ما أصاب التصوُّف –آنذاك– من تشويه ودسٍّ لخرافات ليست في الدين من شيء، ولا في التصوُّف الذي أُسِّس أصلاً كرياضة روحية تهدف إلى نقية الروح وتقريب صاحبها إلى الله تعالى.

تلك الأبيات رغم قِدَمها، فإنها كأنما تصف ما أصاب التصوُّف في مصر في عصرنا هذا من تشويه بالغ، امتدَّ ليشمل بالتأثير والتأثر بعض الممارسات التعبُّدية حتى من غير المتصوفين، كالتبرُّك بالقبور والتوسل بالأولياء وإقامة حلقات التطويح وغيرها من البدع التي ما أشبه اليوم فيها بالبارحة. وليتنبه القارئ، فالحديث هنا ليس عن الصوفية السليمة الصحيحة، ولكن عن الصوفية الخاطئة المشوهة المسيئة إلى المعنى الراقي للتصوف.

(*) القيادة: هو اسم الفعل الذي يقوم به "القَوّاد"

- العوامل والمراحل:

١- المرحلة الأولى:

البداية الحقيقة لدخول ذلك التيّار إلى مصر في شكل تصوف مزيف عن التصوُّف الحقيقي الأصيل، كانت في تلك الفترة القاسية من التاريخ العَرَبيّ الإسْلاَمي التي شهدت التيّار العنيف للغزوات الصَّليبيَّة للشرق. كان العرب في كثرة وقوة، لكنهم كانوا ممزقين بين صراعات السُّنَّة والشّيعَة في الشام وفارس، وما وراءها من منافسة دامية بين الخلاَفَة العَبَّاسيَّة في بغداد والخلاَفَة الفَاطميَّة في القاهرة على النفوذ على الشام والعراق والجزيرة، والمؤامرات الداخلية بين أفراد الأسر الحاكمة، وضعف الخلفاء وتسلّط الوزراء والقادة على الحكم، كل تلك الظروف جعلت من الكثافة البشرية والثراء الشديد والتسليح المتطور مجرَّد عوامل مُعَطّلة بسبب تشقق الصفّ العَرَبيّ وتيّار الخيانة حيث تسارع بعض القادة إلى التحالف مع الصَّليبيّين ضدّ قادة عرب مثلهم بدلاً من أن يسعوا للتحالف جميعًا ضدّ الخطر المشترك، وكانت النتيجة الطبيعية أن سقطت نسبة لا بأس بها من مدن الشام -على رأسها القدس- في يد الصَّليبيّين. تلك الهزيمة أحدثت صدمة عنيفة في نفوس العرب، بالذات أصحاب الحماسة منهم والواثقين أن العرب لن يُهزَموا عن قلّة، حيث اكتشفوا أن الهزيمة لا تأتي عن قلّة عدد بل عن قلّة العقل! تلك الصدمة أدت إلى خلق حالة من الرغبة في الهروب من الواقع المؤلم، ممّا جعل النفسيَّة العَرَبيَّة أرضًا خصبة لتيارات الدروشة والزهد في الدنيا، لا عن إيمان بالزهد كمبدأ بل عن رغبة في الانفصال عن الواقع السيئ بدعوة هجر الدنيا ومغرياتها، مع أن الزهد الحقيقي هو أن تكون الدنيا أمامك متاحة لك وأنت من تختار الإعراض عنها، لا العكس. بالإضافة إلى ذلك التيّار التواكلي ظهر تيّار آخر يُلَخص أسباب الهزيمة في البعد عن الله والتقصير في العبادات، متجاهلاً عوامل إضافية هامَّة كسوء التخطيط وغياب وحدة الصف وضعف التنسيق بين القادة وانفصال الجيوش عن مراكز إدارتها خلال المعارك.. وغيرها من الأسباب العملية للهزيمة. ذلك التيّار اعتبر الحرب حربًا روحانية بحتة والدور الجِهَادي فيها يتلخص في العبادة والصلاة والدعاء، دون بذل أدنى مجهود عملي لإصلاح ما فسد.

هذان التيّاران مثَّلا تحريفًا لمبدأ اتصال الدنيا بالدين الذي بُنيت عليه الدَّوْلَة الإسْلاَميَّة، ففصل بين الاثنين ونقل التواكل من خانة البدع المحرَّمة إلى خانة الضرورة الإيمانية، وتحولا إلى فكر منهجي منظّم له مدارسه وطرقه!

تلك المناهج انتقلت إلى مصر في بداية العصر الأيوبي عندما استقدم صلاح الدين الأيوبي أعدادًا كبيرة من المتصوفين إلى مصر ليساعدوه في طرد المذهب الشِّيعيّ الفَاطميّ الذي سقط بالفعل ولكن كان الثمن أن عرفت مصر الوجه المشوَّه من التصوُّف بما فيه من خرافات وممارسات خارجة عن الدين إلى حدّ الشِّرك، وتطور الأمر خلال العصر المملوكي حيث أسهم الأصل غير الإِسْلاَمي للمماليك وضعف التنشئة الدِّينيَّة لهم في أن أخذوا كل تلك الطرق والمناهج، سليمها وفاسدها، كما هي وتبنوها واعتنقوها ووضعوها بشيوخها ومريديها تحت رعايتهم.

٢- المرحلة الثانية:

المرحلة الثانية من تطور ذلك الفكر الفاسد كانت مع ظهور موجات الغزوات المغولية. فالرعب الذي بثَّه المغول في نفوس العرب، والأساطير المنتشرة بسرعة بالغة عن قوتهم ووحشيتهم، وسرعة اكتساحهم الشرق، نشرت إحساسًا عامًّا بالعجز أدَّى إلى عودة فكر الهروب من الواقع إلى الفكر العام للْمُسْلمينَ. وجاء سقوط بغداد وانهيار الخلاَفَة كضربة عاتية للمؤمنين بالمكانة الروحية للخَليفَة، جعلهم يشعرون بالضياع ممَّا أسهم أكثر في لجوء ضعَاف النفوس والعقول إلى ذلك التيَّار الفكري الذي مثَّل لهم مخدّرًا عن الواقع القبيح. ورغم سرعة اعتناق معظم المغول للإِسْلاَم وتحولهم من محاربين ضدَّه إلى مقاتلين في صفِّه وناشرين له في شمال غرب آسيا وشرق أورُبَّا، فقد استمر ذلك التيَّار نظرًا إلى عدم تَخَلِّي المغول -رغم إِسْلاَمهم- عن أطماعهم في العراق والشام ومصر، وتوجيههم الضربة تلو الأخرى إلى مدن الشام والعراق بوحشيَّة لم تقلَّ أحيانًا عن تلك التي مارسوها قبل إِسْلاَمهم.

٣- المرحلة الثالثة:

أما عن المرحلة الثالثة من تغلغل ذلك الاتجاه الفاسد في نفوس المْصْريِّين، فقد جاءت برعاية الحُكَّام أنفسهم. فخلال العصر المملوكي الثاني، تدهورت الأوضاع الاقْتصَاديَّة والاجْتمَاعيَّة لمصر، وكثرت الانقلابات والسرقات للمال العام، وانتشر الفساد الإداري والمالي بشكل بشع ممَّا أنذر بقرب ثورة الشعب الجائع. وبسرعة وجد الحكام الحل في نشر التصوُّف الخاطئ الذي يدعو إلى عدم الاعتراض على أي ظلم للحاكم حيث إن الاعتراض -على حدِّ قولهم- هو رفض لقضاء الله وقدره. هنا انتقل التصوُّف من مجرَّد تيَّار مستحَبٍّ يؤمن به الحاكم إلى تيَّار مطلوب تعميمه بين الشعب ليسهل التحكم فيه

والسيطرة عليه وليتحول المعارضون منه في نظر العامة إلى "زنادقة يحرّضون على الفتنة"، مما يُفقد مطالبهم أي شرعية. تلك الخطة تحالفت مع انتشار الجهل والفقر وضعاف الضمير من رجال الدين ونجحت بالفعل في إغراق المصْريّين في بحر من الدروشة والانفصال عن الواقع، ونجحت بشكل لافت للأنظار حتى إن العثمانيين عندما احتلوا مصر طبّقوها بحذافيرها ممَّا جعل الفكر المصْريّ يغرق في أوحال الجهل والتأخُّر لفترة امتدَّت إلى نهايات القرن الثامن عشر، وأسهمت في إفساد الشخصيَّة المصْرِيَّة وإصابتها بندوب عميقة مستمرّة آثارها حتى الآن.

- المظاهر:

١- فساد العقيدة:

أخطر ما أصاب التصوُّف والتديُّن من ضرر هو ما مسَّ العقيدة ذاتها. فقد فُتِحَ الباب على مصراعيه لدخول بعض عَنَاصر العقائد الشرقية -بالذات الفَارِسيَّة والهندية- إلى التصوُّف الإِسْلاَمي. فدخلت فكرة الاتحاد والحلول، وهي قائمة على فكرة أن المتعبد حين يزيد من تعبده وإخلاصه لحب الله تعالى، فإنه يبلغ منزلة الاتحاد بين ذاته وذات الله -سبحانه وتعالى عمَّا يصفون- حتى يصبحا واحدًا.. وهو ما تعبِّر عنه عبارة شهيرة لدى أتباع هذا الفكر هي "لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله.. ما في الجِبَّة إلا الله"، أي ما في رداء المتصوف إلا الله! وهو شيء لم يبلغنا أن بلغه أحد الرسل أو الصحابة! والقول بهذا نوع من أنواع التجديف والهرطقة بلغ ببعضهم أن نظم قصائد يتحدث فيها على لسان الله فيقول: "خَلَقْتُ، أَرْسَلْتُ، أَوْحَيتُ..."، متوهِّمًا أن هذا الكلام لا يصدر عنه بل عن روح الله التي حلَّت فيه من فرط التفاني في التعبُّد! المظهر الثاني للفساد العَقَديّ، وهو الأشهَر، هو تقديس الإنسان لبشر مثله والتوسُّل به إلى الله والدعاء باسمه، أو ما يسمَيه العوام "طلب المدد"، فيقال: "مدد يا سيدي فُلانًا"، بالإضافة إلى تحويل قبر هذا الولي -البريء من هذا الشِّرْك- إلى مكان للتبرُّك والتمسُّح به والسفر خصيصًا لزيارته للدعاء عنده! أي أن هؤلاء قد استبدلوا باللات والعُزَّى ومناة مقام سيدي فُلاَن وضريح سيدي عِلاَّن! حتى إن المنطقة أو القرية التي بلا ضريح كانت تعتبر نفسها ملعونة ملقاة بلا حماية!

٢- إباحة المنكرات:

ومن أنواع الخلل الذي أصاب الدين على يد هؤلاء، إباحة المنكرات كالسُّكر وشُرْب الحشيش. أمران برَّرَا لهم ذلك: الأول اعتقادهم أن الصوفي حين يصل إلى مرحلة الذوبان في ذات الله، فإن كل شيء يتساوى بالنسبة إليه، الطاعة والمعصية، الحلال والحرام، فيصبح في مرتبة المعفَى من التكليف! والسبب -على حدّ قولهم- أن الرَّسُول (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) عبد الله مخلصًا حتى أتاه اليقين. اليقين في العقيدة السليمة هو ملاقاة الله تعالى بعد الموت، أما في معتقدهم فهو الشعور بالتيقُّن من حقيقة الله والإسْلَام. من هذا المنطلق انتشر شرب الخمر والحشيش بينهم بدعوى أنها "تساعد على الانفصال عن الدنيا والاتصال بملكوت الله!" هذا فضلاً عن تحويلهم الموالد إلى مفاسد حقيقية ينتشر فيها السُّكر والزنا واللواط، بالذات هذا الأخير الذي أدَّى عند بعض السلاطين إلى التشديد على منع الغلمان -بالذات ذوي الوسامة- من الدخول إلى أماكن تَعبُّد المتصوفين!

٣- التطويح والانجذاب:

ولكي تكتمل مأسوية الصورة، فقد أحدثوا في العبادات نوعًا جديدًا هو "التطويح" فبعد أن كانت حلقات الذِّكر عبارة عن مجالس لتدارس القرآن والحديث وأسماء الله الحسنى، أصبحت حلقات للتطوح في أثناء ذكر الله، وحُجَّتهم في هذا أن المتعبِّد يصل إلى مرحلة من النشوة ولذاذة الذكر تجعله يتطوح كالسكران، مُغفلين حقيقة بسيطة هي أن الصحابة والأنبياء، وهم مَنْ هم تقوى وقُرْبًا من الله، لم يُسَجَّل عنهم تطويح أو رقص من فرط لذاذة الذِّكر، بل كانوا يتعبدون خاشعين عليهم الوقار.

وإضافة إلى هذا، ولأن غياب العقل لديهم كان دليلاً على سموِّ الروح، فقد اعتبروا أن كل متأخر عقليًّا أو مصاب بمرض عصبي أو عقليٍّ كالذُّهان أو الصرع، إنما هو شخص مبارك سما بروحه إلى حَدٍّ أن رحل عقله تمامًا عن الدنيا الفانية وتعلق بملكوت الله! فيعتبرون أن هذا المريض وليٌّ من أولياء الله الصالحين.

- المقاومة:

تلك التَّيَّارَات الفاسدة وجدت مقاومة من بعض المستنيرين الأقوياء من رجال الدين. لعل أشهرهم الفقيه تقي الدين بن تيمية الذي تصدى لتلك الخرافات والخزعبلات وسعى لردع مرتكبيها، لكنه -للأسف- وُوجِهَ بمقاومة شرسة من بعض شيوخ تلك الطرق

الذين أوقعوا بينه وبين السلاطين فعاش سنوات طويلة بين حبس ونفي وتعذيب، فلم يزده هذا إلا ثباتًا على موقفه.

تجرِبة ابن تيمية كانت ضوءًا ضعيفًا في ظلام دامس، فبعد وفاته، سرعان ما عادت الأمور إلى سيرتها الأولى، خصوصًا أن ذلك تزامن مع بداية العصر المملوكي الثاني الذي تحول فيه التصوُّف الفاسد من مجرَّد ظاهرة يسكت عليها السلطان إلى عامل يسعى السلطان لوجوده ليسِّر عليه التسلُّط على شعب بلا إرادة ولا عقل.

– اليوم:

مصر اليوم بها ملايين المتصوفين، نسبة ضخمة منهم تعتنق التصوُّف الخاطئ الذي تحدثنا عنه، ربما لأن عوامل تسلل الظاهرة ونموها هي ذاتها التي كانت قديمًا، مع بعض التطوُّر. النكسات السِّيَاسيَّة والتدهور الاقْتِصَاديّ والاجتماعي والسِّيَاسِيّ، وتخلف نظم التعليم وانتشار الفقر والجهل والمرض وتقصير المؤسسة الدِّينيَّة في أداء عملها وفِقْدَان معايير الصواب والخطأ، كلها عوامل تأخُّر للمجتمع، ولأن الدين ليس مجرَّد عنصر في المجتمع المصْرِيّ بل أحد مكوناته، فمن الطبيعي أن يمسَّه ذلك التأخُّر والتشوُّه البشع، يغذيه ذلك الإحساس واسع النطاق بالعجز عن التغيير إلى الأفضل، والشعور بالضآلة أمام مظاهر الفساد والإحساس بالانسحاق تحت الضغوط الحياتية. كل تلك العوامل تشكل مُغريات قوية للإنسان لينفصل عن واقعه. تمامًا كما حدث قديمًا، ولكن الفارق الأخطر هو أن تلك العقيدة الفاسدة وجدت طريقها إلى نسبة ضخمة من المتعلمين والمثقفين وأصحاب الأقلام والأصوات المسموعة. ذلك هو التطوُّر الوحيد الذي يختلف فيه اليوم عن البارحة، ولكنه مع ذلك التطوُّر الأكثر خطرًا والأعنف تأثيرًا والذي يجعل لدروشة اليوم ضررًا أكثر من دروشة الأمس، رغم أن منبعهما ومصبَّهما ومجراهما واحد!

مصادر المعلومات:

١- البداية والنهاية: ابن كثير.
٢- موالد مصر المحروسة: عرفة عبده علي.
٣- الفرق والجماعات الدينيّة: د/ سعيد مراد.
٤- التصوُّف الإسْلامي: د/ سعيد مراد.
٥- التراث الشعبي في عالم متغير: د/ محمد الجوهري.
٦- دراسات في علم الفولكلور: د/ محمد الجوهري.
٧- بين التاريخ والفولكلور: د/ قاسم عبده قاسم.
٨- أهل العمامة في مصر عصر سلاطين المماليك: د/ حسن أحمد البطاوي.
٩- مصر في العصور الوسطى: د/ محمود الحويري.
١٠- عامة القاهرة في عصر سلاطين المماليك: د/ علاء طه رزق.
١١- النجوم الزاهرة في خطط المعزية القاهرة: ابن عبد الظاهر.
١٢- القاهرة مدينة الفن والتجارة: جاستون فييت.
١٣- الناس في صعيد مصر: وينيفريد بلاكمان.
١٤- المدخل في تاريخ الأديان: د/ سعيد مراد.
١٥- ماهية الحروب الصّليبيّة: د/ قاسم عبده قاسم.
١٦- المعتقدات الشعبية حول الأضرحة اليَهُوديّة: د/ سوزان السعيد يُوسُف.
١٧- ثقوب في الضمير: د/ أحمد عكاشة.
١٨- دين الحرافيش في مصر المحروسة: د/ علي فهمي.
١٩- بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس.
٢٠- عصر سلاطين المماليك: د/ قاسم عبده قاسم.
٢١- تحفة النُظار في غرائب الأمصار: ابن بطوطة.
٢٢- التصوُّف بين الإفراط والتفريط: د/ عمر عبد الله كامل.
٢٣- تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام: د/ محمد سهيل طقوش.
٢٤- تاريخ المذاهب الإسْلاَميّة: محمد أبو زهرة.
٢٥- الفكر المصْريّ في القرن الثامن عشر: د/ محمد العزباوي.
٢٦- تاريخ الشعوب الإسْلاَميّة: كارل بروكلمان.

بين البارحة واليوم - الجزء الخامس

السلام الرُّومَانيّ

"السلام الرُّومَانيّ" مصطلح يعني فرض السلام بالشكل الحصري الذي تتخيله الدَّوْلَة العظمى وبالصورة التي تخدم مصالحها، بغضّ النظر عن كون هذا السلام عادلاً أم لا هو نفس نوع السلام الذي تسعى أَمْرِيكا لفرضه اليوم على العالَم وَفْق رؤيتها وخدمةً لتطلعاتها. وقد نسب إلى الرُّومَان لأنهم أول من اخترعه وطبّقه، وما الذي نراه منه الآن إلاّ التطبيق العصريّ للصناعة القديمة.

- الشرق القديم:

بعد أن انقضى عصر الإسكندر الأكبر وخلفائه العظام الذين ورثوا ما فتحه من بلاد الشام ومصر وغيرها من أراضي الشرق، بدأت قوة ولِيدة في التطلع لتَسَيُّد العالَم القديم، قوة نشأت في شبه الجزيرة الإيطالية واتخذت روما عاصمة لها. ذلك التطلع لم يكن فقط عن رغبة طبيعية لدى كل جَمَاعَة بشرية في فرض سيادتها على ما حولها، وإنما كان أيضًا مدفوعًا بفقر أراضي جنوب أُورُبًا من الثروات، قياسًا ببلاد المشرق الثري حيث وُجِدَت أربع ممالك قوية تقاسمت الأراضي والخيرات في تلك المنطقة: البطالمة -أحفاد بطليموس أحد قادة الإسكندر- حكموا مصر، والسلوقيُّون -خلفاء قائد آخر هو سلوقس- أقاموا دولتهم في سوريا، وبَنُو إِسْرَائيل كانت لهم مملكة يهودا في فلسْطِين، بينما أقام العرب مملكة عظيمة في قلب جبال الأَردن هي مملكة الأنباط وعاصمتها البتراء (Petra). تلك

الدول الأربع كانت في تلك الفترة تعيش صراعًا عنيفًا، فالسلوقيّون والبطالمة دارت بينهم أعتى الحروب في إطار منافستهم على لبنان وفلسْطين، ودولة يهودا كانت ممزَّقة في وسط المعمعة بين هؤلاء وهؤلاء، غير صراعاتها مع الأنباط الذين كانوا يتحينون الفرص للسيطرة على فلسْطين المتاخمة لأراضيهم. هذا فضلاً عن الصراعات الداخلية لكل دولة، ففي مصر كان الصدام قد بلغ أعنف درجاته بين كليوباترا السابعة وأخيها بطليموس الثالث عشر الذي كان طفلاً يوجِّهه رجال البلاط المتطلعون إلى اتخاذه ستارًا لسيطرتهم على الحكم. وفي سوريا السلوقية كان كل من هب ودبَّ يطالب بالعرش لنفسه ويسعى لقلب النظام لصالحه. أمَّا مملكة يهودا فقد اندلعت فيها ما يشبه الحرب الأهلية بين حزبَي الْيَهُود السلفيين المتشددين والْيَهُود العلمانيين المنادين بتقليد نمط حياة اليونان وتهميش الدين. أما دولة الأنباط فكانت أكثرهم استقرارًا وربما كان هذا سببًا في صمودها لفترة أطول في وجه العواصف التي أتت في ما بعد. كان الشرق كأنما ينادي الغزاة أن "تعالوا ها أنا ذا مفتوح الأبواب"، والرُّومَان التقطوا الرسالة وبدأوا في وضع وتنفيذ خطوات خطتهم البارعة لفرض "سلامهم" على المنطقة وفق رؤية أباطرتهم ونواب مجلس السناتو (البرلمان الرُّومَانيّ) وقادة الجيوش المتعطشة إلى ثروات الشرق، تلك الخطة التي بدأ تنفيذها خلال القرن قَبل الأخير قبل الميلاد واكتمل في بدايات القرن الثاني الميلادي.

– دعاة "السلام":

لم تكُن الدول الأربع سالفة الذكر قد بلغت بعدُ درجة الضعف التي تسمح للجيوش الرُّومَانيَّة باجتياحها بسهولة دون خطط ملتوية، كما أن ثمة خشية دائمة سيطرت على الساسة الرُّومَان أن يؤدي هجوم روماني عسكري صريح على المنطقة إلى أن يُلقي قادة الصراع في دول الشرق خلافاتهم جانبًا ويتحالفوا ضدَّ الخطر المشترك. هذا غير أن مجلس السناتو كان شديد التشدد في ما يتعلق بإرسال الجنود الرُّومَان إلى بلاد بعيدة دون ضمانات قوية للنصر. لم يكُن من سبيل إذن سوى أن يأتي الرُّومَان إلى الشرق كدعاة سلام بحُجَّة رغبتهم مساعدة شعوب الشرق المتحارب على حل مشكلاتهم ليسود الاستقرار تلك المنطقة التي تُعتبر معبرًا هامًّا للتجارة العالميَّة. وهكذا بدأ العمل على التدخُّل في شؤون دول الشرق الأربع تمهيدًا لإسقاطها وتحويلها إلى ولايات رومانية، ولم تكُن تلك عملية سهلة أو هيِّنة، بل تطلبت دراسة مُسبَقة للوضع في المنطقة ونقاط الضعف التي يمكن أن يتسلل منها التدخل الرُّومَاني ويتضخم بحيث يصبح الرُّومَان هم الممسكين بمفاتيح لعبة الحرب والسلام سواء في ما بين الدول المتحاربة أو في ما بين الأحزاب.

المتناحرة داخل كل دولة على حدة. كانت عملية شديدة الصعوبة والتعقيد وتطلبت –بطبيعة الحال– تقسيم الغزو السِّيَاسيّ الرُّومَانِيّ للمنطقة إلى محاور عدة.

١– السلوقيُّون:

سرعان ما ظهر المبعوثون الرُّومَان في أنطاكية (عاصمة السلوقيّين) حيث عرضوا وساطتهم بين الدولتين –السلوقية والبَطْلَميَّة– لحل النزاع بينهما على السيادة على جنوب سوريا وإقليم فينيقيا (وكان هذا بناءً على طلب البطالمة الذين قدموها فرصة من ذهب للرومان). كان عرض الرُّومَان يخفي وراءه أمرين: الأول هو رغبتهم في كسر التحالف بين السلوقيّين ومقدونيا التي كانت تخوض حربًا عاتية ضدّ روما في أورُبّا، والآخر كان رغبتهم في الإمساك بمفاتيح الصراع البَطْلَمِيّ السلوقي بحيث يمكنهم إشعال الحرب بين الجانبين في الوقت المناسب لإضعافهما وقتل أي فرصة للاتحاد بينهما ضدّ غزو روماني مستقبلي. ومن ناحية أخرى فقد استغلّت روما الصراع الداخلي على العرش السلوقي وقامت بتقديم الدعم لكل مُطالب بالعرش على حدة وفقما ترى في سياسته المستقبلية من موافقة لها، حتى بلغ الأمر أن استغلّ الرُّومَان حالة الفراغ السِّيَاسِيّ التي داهمت الدَّوْلَة السلوقية بعد موت أحد ملوكها وعدم تركه أي ورثة للعرش وأبرزوا رجلاً مجهول الأصل ادعَوا أنه كان ابنًا مختفيًا للملك الراحل وطالبوا له بالحكم، بل وأصبح من المألوف أن يعيش بعض أبْنَاء الأسرة المالكة السلوقية في روما حيث يتشربون منذ الصغر تعاليم الولاء للنسر الرُّومَانِي وعندما يكبرون يتم إرسالهم إلى أنطاكية كمطالبين للعرش، ممَّا أسهم في تحطيم استقلالية السِّيَاسَة السلوقية تمامًا وتحويل الدَّوْلَة لمجرَّد تابع للرومان ينفِّذ تعاليمها التي كان أغلبها منصبًا على محاربة البطالمة بغرض إضعاف الطرفين: السلوقي والبَطْلَميّ. وعندما شعرت روما أن الغرض من الاستقلال الاسمي للسلوقيّين قد انتهى، وأن مهمتهم في الاصطدام بأبْنَاء عمومتهم البطالمة حتى يَضعُفوا قد انتهت، وضعوا اللبنة الأخيرة في بنيانهم وقام القائد الرُّومَانِيّ بومبي بدخول سوريا بجيشه وإسقاط الحكم السلوقي معلنًا سوريا ولاية رومانية كاملة.

٢– البطالمة:

في الوقت الذي كانت روما تعيّن فيه أول والٍ من قِبَلها في سوريا كانت مصر

تعيش حالة من فوضى الحكم الذي كان شركة بين بطليموس الثالث عشر، الطفل عديم الخبرة، وأخته كليوباترا السابعة، المرأة القوية ذات التطلعات البعيدة. فبين مؤامرات رجال البلاط للتخلص من كليوباترا ليخلو لهم الجو وينفردوا بالحكم من وراء الطفل الغرّ، وسعي كليوباترا نفسها للتآمر على أخيها والتخلص منه لتنطلق بطموحاتها دون قيود، كان الاستقرار معدومًا في الإسكندرية –عاصمة مصر البَطْلَميَّة التي كان الرُّومَان ينظرون إليها (مصر) باعتبارها مخزنًا ضخمًا للغلال يسيل له اللعاب. حالة التوتر الداخلي تلك كانت ذريعة لروما لتتدخل في شؤون مصر بِحُجَّة حماية التجارة العالميَّة والمصدر الرئيسي للغذاء لشبه الجزيرة الإيطالية. التدخل الرُّومَاني في مصر جاء أكثر عنفًا وسرعة مما كان عليه في سوريا، فدولة البطالمة كانت قد وهنت بسبب صراعها مع جارتها السلوقية المنهارة وأيضًا بسبب الصراع الداخلي سالف الذكر. لم تكن الضربة القاضية للحكم البَطْلَمِيّ لتتأخر لولا الحرب الأهلية الرُّومَانيَّة التي بدأت بين بومبي وقيصر وأكملها بعد موتهما ماركوس أنطونيوس –الذي تحالف مع كليوباترا السابعة– وأوكتافيان الذي فرض سيطرته على مجلس السناتو وجعله يفوضه في محاربة أنطونيوس باعتبار هذا الأخير مارقًا خارجًا على الدَّوْلَة الرُّومَانيَّة. وفي معركة أكتيوم البحرية، قام جيش أوكتافيان بسحق عدوه أنطونيوس وحليفته البَطْلَميَّة مُنْهِيًا بذلك –وبضربة واحدة– كلاًّ من الحرب الأهلية، والدَّوْلَة البَطْلَميَّة، ومحولاً مصر إلى ولاية رومانية تابعة مباشرة للإمْبرَاطُور الرُّومَاني نظرًا إلى أهميتها كمصدر للقمح والغلال للعالم القديم كله. المحور البَطْلَمِيّ في اللعبة الرُّومَانيَّة انتهى أمره متأخرًا عن سلفه السلوقي، لكنه كان الأكثر سهولة نظرًا إلى تردّي الأوضاع إلى حدّ تَحَوُّل الدَّوْلَة البَطْلَميَّة –آنذاك– إلى دولة رخوة هشّة تنتظر أول هبّة ريح لتسقط.

٣– مملكة يهودا:

عندما بدأ التدخل الرُّومَاني في شؤون المشرق، كانت ذرائعه تتدرج من حيث القوة والتوغل في الشأن الشرقي، فمن حجة هلامية "حماية السلام في منطقة تعبر منها التجارة العالميَّة"، كما فعلوا مع السلوقيِّين، مرورًا بِحُجَّة لها وجاهتها "حماية مصدر الحبوب الأول للعالم"، كما حدث في مصر، إلى حجة أكثر قوة هي "حماية منطقة متاخمة لحدود الولايات الرُّومَانيَّة الشرقية" وهذا ما فعلوه مع مملكة يهودا. فتلك المنطقة –فلسطين–

التي قامت عليها المملكة المذكورة، كانت ساحة دائمة للصراع بين السلوقيّين والبطالمة بصفتها معبرًا حيويًا للجيوش بين إفريقيا وآسيا، ممًّا يعني أن السيطرة عليها تعني السيطرة على محور اتصال الشام بوادي النيل.

ولطبيعة تلك البقعة من الأرض، فقد كان الوجود الرُّومَاني فيها قديمًا، قبل حتى الوجود في مصر، ولكنه جعل من مملكة يهودا دولة معترف بها، لها صفة شبه مستقلة، تتبع -عسكريًّا- حاكم ولاية سوريا، بينما يديرها سياسيًّا ملك من أهلها، كان -آنذاك- الملك هيرود أنتيباس صاحب الميول العلمانية. كان من الممكن لروما أن تسارع بإعلان فلسطين ولاية رومانية أسوة بسوريا ومصر، ولكنها وجدت أن المصلحة في بقاء يهودا دولة ذات استقلال اسمي تتحرك كستار لروما وتنفذ السياسات الرُّومَانيَّة في الشرق، بالذات تلك المتعلقة بضرب قوة الأنباط تمهيدًا لاجتياحهم بدورهم. وهذا ما كان، فقد أسهم الرُّومَان في خلق حالة من الخوف الْيَهُوديّ الدائم من "اعتداء عَرَبِيّ نبطي متوقع" على أراضي المملكة. ذلك الخوف كان موجودًا من الأساس، لكنهم أسهموا في تكثيفه بحيث يوجهون الجهد العسكري الْيَهُوديّ ضدّ المملكة العَرَبِيَّة المجاورة لتحقيق غرضين: الأول إلهاء الْيَهُود بخطر يصرف نظرهم عن مقاومة التدخل الرُّومَانِيّ، والآخر إضعاف المملكة النبطية التي كانت -آنذاك- شديدة المناعة والقوة. أما من الناحية الداخلية فقد دعم الرُّومَان الملك هيرود ضدّ خصومه الْيَهُود السلفيين المتشددين الذين سعوا لمقاومة مخطط هيرود لتطبيق النمط اليوناني الرُّومَانِيّ في الحياة على مملكته. لم يكن هذا إلا لأن السيطرة على حاكم علماني مبهور بالرُّومَان كنموذج "حضاري" فذ -وفق وجهة نظره- أسهل من التعامل مع فكر متشدد يرى مقاومة روما واجبًا دينيًّا.

بقيت روما إذن على دعمها لاستقلال هيرود وبقائه على عرشه، حتى قام بمهمته في خدمتها على أكمل وجه في قتل الروح الوطنية الدِّينيَّة في بلاده، ثم رأت أن الوقت قد حان لإطاحته وضمّ فلسطين بدورها كولاية رومانية، وهذا ما كان بالفعل، فتم خلع هيرود ونفيه إلى إحدى المستعمرات الأُورُبِيَّة حتى مات، بل وتم طرد الْيَهُود كلهم من أرض فلسطين وتحريم دخولهم لها.

٤- مملكة الأنباط:

في تلك المرحلة من لعبة السلام، أصبح الرُّومَان أكثر صراحة في تعاملهم؛ فقاموا بفرض حصار شديد على محيط وتخوم مملكة الأنباط التي كان اقتصادها قائمًا على التجارة الخارجية. ذلك الحصار جعل الأنباط يُضطرُّون إلى دفع الجزْيَة لروما مقابل فك الحصار عنَها، وتلك الأخيرة رحبت بهذا لعلمها أن اقتحام البتراء -عاصمة المملكة- أمر شبه مستحيل نظرًا إلى وقوعها في منطقة جبلية شديدة الوعورة لا يجيد التعامل معها سوى عَرَبِيّ. تلك الظروف دفعت روما للتفكير في شكل مختلف لفرض "سلامها" في المنطقة، فقد استغلت استماتة الأنباط على فتح أسواق جديدة لتجارتهم بدلاً من تلك التي أغلقها الحصار الرُّومَاني، وأوعزت إلى الملك النبطي أن يسهم معها في حملة لغزو اليمن الثري بالخيرات، والذي كان الرُّومَان يطمعون فيه ويسمونه "بلاد العرب السعيدة" (Felix Arabia). لم يكن من خيار للأنباط سوى الاستجابة بهذا وإرسال جنودهم للمشاركة في الحملة التي فشلت نظرًا إلى ضعف احتمال الجنود الرُّومَان لقسوة الصحراء، ولأن الدليل العَرَبِيّ للحملة سعى لتضليلها ربما بدوافع وطنية. أدرك إذن الرُّومَان أن لا طائل من تركهم مملكة مستقلة إلى جوار ممتلكاتهم ما دامت لا تحقق أهداف الإبقاء عليها، فزادوا من حصارهم وشددوا فيه حتى اضطُرَّ الأنباط إلى التسليم وأصبحت الأردن كلها من ممتلكات روما.

- الخلاصة:

المتأمل لسياسة روما مع الممالك الأربع سالفة الذكر، يدرك سبب تسمية سياسة أمْرِيكَا -حاليًا- بالذات في الشرق الأوسط، بسياسة "السلام الرُّومَانِيّ"، فما يجري هو تعامل مع السلام لا كمبدأ عامٍّ يهدف إلى مصلحة العالم، بل كمبدأ نفعي يخدم من يفرضه، ويستقي شرعيته من قوة واضعه. سلام كل شيء فيه بحساب المكسب والخسارة، من دعم لأنظمة ضدّ أخرى، وإبقاء على استقلال دولة دون أخرى، وتَدَخُّل بشكل متفاوت في شؤون هذه الدَّوْلَة أو تلك، بحجج تبدأ مطاطة هلاميَّة ثم تتصاعد قوة نبرتها حتى يتحول التدخل إلى حقٍّ مشروع! الأمر الذي يشكك كثيرًا في مصداقية هذا السلام بل -وللأسف- يجعل مصداقية "السلام" ذاته كمبدأ نبيل، موضعَ نظر.

مصادر المعلومات:

١- موسوعة الْيَهُود والْيَهُودِيَّة والصهْيَوْنِيَّة: د/ عبد الوهاب المسيري.

٢- موسوعة الحروب: هيثم هلال.

٣- الْيَهُود في فِلِسْطين في العصرين البَطْلَمِيّ والسلوقي: د/ هاني عبد العزيز جوهر.

٤- مجتمع الإسكندرية القديم: د/ محمد السيد عبد الغني.

٥- مصر في عصر الرُّومَان: د/ الحسين أحمد عبد الله.

٦- الشرق الأدنى في العصرين الهللينيستي والرُّومَانِيّ: د/ أبو اليسر فرح.

٧- تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي: د/ عمر صابر عبد الجليل.

٨- عولمة القهر: د/ جلال أمين.

٩- محمد والذين معه: عبد الحميد جودة السحار.

١٠- الْيَهُود في تاريخ الحضارات الأولى: جوستاف لوبون.

١١- موسوعة تاريخ العرب: عبدعون الروضان.

١٢- تاريخ العرب القديم: د/ توفيق برّو.

١٣- جزيرة العرب قبل الإِسْلَام: برهان الدين دلّو.

١٤- الجماعات الوظيفية الْيَهُودِيَّة: د/ عبد الوهاب المسيري.

١٥- الأنباط الولاية العَرَبِيَّة الرُّومَانِيَّة: جلين وارين بورسوك.



بين البارحة واليوم – الجزء السادس

سُنَّة وشيعة

إنها نفس القصة القديمة: الصراع السُّنِّيّ الشِّيعِيّ وتَفَجُّرَه في الوقت غير المناسب والظروف غير الملائمة. في وقت يجب أن تحل فيه كلمة "نحن" محل كلمتيّ "أنا" و"أنت"، وفي فترات كان العرب فيها في أقصى حالات احتياجهم إلى وحدة الهدف والمجهود أمام وحدة الخطر المتجه إليهم بخطوات واثقة ونيات واضحة. عن ذلك الخلاف القديم: سنيًّا وشيعيًّا وتكرُّر ظهوره في التوقيت الخطأ.. عن هذا نتحدث.

– الحماقات المتبادلة:

المكان: بغداد. الزمان: يوم عاشوراء

جَمَاعَة من الشِّيعَة يخرجون عليهم السواد وشعور نسائهم مكشوفة ووجوه الجميع عليها التراب والرماد.. يضربون صدورهم بأيديهم وهم يبكون الحسين في ذكرى مقتله في العاشر من المحرَّم. يتعمدون المرور أمام مساكن السُّنِّيِّين من أهل بغداد ويعلو صوتهم بالعويل ويصدر عن بعضهم بعض السباب واللعن بحق بعض الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان ومُعَاوِيَة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) ممَّا يستفزُّ أهل السُّنَّة فيميلون على الموكب الشِّيعِيّ بالعصي والسيوف والمشاعل وتحدث معركة بين الجانبين غالبًا ما تنتهي بعدد ضخم من القتلى وحريق كبير في بيوت الشِّيعَة قد يردُّ عليه هؤلاء بإشعالهم النار في أسواق السُّنَّة! كان هذا مشهدًا مألوفًا في بغداد عاصمة دولة الخَلِيفَة العَبَّاسِيّ خَلِيفَة المُسْلِمِينَ جميعًا. وكان

ما يشجع الشِّيعَة على الخروج في موكبهم هذا وجود وزير أو قائد شيعي ذي مكانة في بلاط الخَلِيفَة، أما إذا كان كل رجال الحكم من السُّنَّة، فلم يكن شيعة بغداد يجرؤون على مجرَّد التفكير في الخروج في مثل تلك المواكب. أو سباب الصحابة بهذا الشكل الأحمق المستفز. ولأن الحماقة لا تسير في اتجاه واحد، فقد أحدث بعض السُّنِّيِّين بدعة جديدة هي الاحتفال بذكرى مقتل مصعب بن الزبير -أمير العراق وشقيق عبد الله بن الزبير- على يد الأمويين، وأصبحوا يخرجون في مواكب مشابهة لتلك الشِّيعيَّة في نوع من الاستفزاز للشيعة، ممَّا كان سببًا في وقوع الصدامات الدامية بين الجانبين. كانت تلك المهزلة تحدث، بينما تَرِد الأخبار من شمال الدَّوْلَة الإِسْلاَمِيَّة، كل حين، بوقوع غارة بيزَنْطيَّة على مدينة شامية، أو توغُّل لجيش العدو في بلدة على الحدود بين بيزَنْطَة والدَّوْلَة الإِسْلاَمِيَّة، وما يصاحب هذا وذاك من أعداد ضخمة من القتلى والأسرى الذين سقطوا بينما إِخْوَانهم العراقيون منشغلون حتى النخاع في صراعهم الداخلي السُّنِّيّ الشِّيعِيّ.

- أهل الحل والعقد:

في العصر العَبَّاسِيّ الأول، عندما كان العرب تحت حكم خَلِيفَة واحد قوي ذي سلطة فعلية، كان رعايا الدَّوْلَة يُعامَلون جميعًا باعتبارهم مسؤولية الخَلِيفَة ورجاله، بغضِّ النظر عن أديان ومذاهب هؤلاء الرعايا وتلك التي يعتنقها رجال الحكم. أما في العصر العَبَّاسِيّ الثاني عندما لم يعُد للخَلِيفَة -غالبًا- من سلطة منصبه سوى الاسم، فقد أدَّى انهيار السلطة المركزية إلى تكوُّن تكتلات وتحزبات على أيدي القادة والوزراء، وتبع كلاًّ منهم رجال من الجنود والرعية حسب عرق قائد الحزب أو مذهبه الدِّينِيّ، و لم تكن التحزبات السُّنِّيَّة والشِّيعيَّة بعيدة عن تلك اللعبة، فكان معنى أن يكون الوزير سُنِّيًّا متشددًا أن يتعرض الشِّيعَة -بالذات في بغداد- لأعتى أنواع القمع والاعتداء، ونفس الأمر كان يحدث للسُّنة إذا كان وزير الخَلِيفَة شيعيًّا متعصبًا، فقد كان الشِّيعَة عندئذ يبلغون مرحلة سب كبار الصحابة وزوجات الرَّسُول (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) على المنابر. وكان كل وزير من هؤلاء يغضُّ البصر عن تصرفات أهل مذهبه في حقِّ أهل المذهب الآخر، ولا يتدخل إلا بشكل صوري بعد أن تكون المذابح قد بلغت مبلغًا يصعب السكوت عنه.

قلَّة من رجال الحكم استطاعت أن تسمو بنفسها عن تلك الأفعال المخزية وتركز جهدها على مصلحة الدَّوْلَة، على رأسهم القائد الشِّيعِيّ سيف الدَّوْلَة الحمداني (أحد مؤسسي دولة بني حمدان التي حكمت أجزاءً من الشام تحت سلطة الخَلِيفَة). ذلك القائد أخرج نفسه من الصراع السُّنِّيّ الشِّيعِيّ وركز جهوده على صدِّ هجمات الروم واستعادة

ما احتلوا من بلاد العرب في الشام وآسيا الصغرى بعد أن لمسوا ضَعْف الخلاَفَة وانغماس العرب في صراعاتهم الداخلية، وكذلك القائد السُّنِّيّ محمود بن سبكتكين الذي قضى ٢٤ عامًا من حياته في غزوات متواصلة للهند، حتى أسس مملكة ضخمة، تحت سلطة الخلاَفَة العَبَّاسيَّة، وعاش في عهده كبار العلماء والمفكرين، سُنَّة وشيعَة، في سلام وتسامح ديني، منهم الطبيب السُّنِّيّ ابن سينا والشاعر الشِّيعِيّ الفردوسي. والمُلاحَظ أن أمثال هؤلاء القادة م يقتحموا الصراع الداخلي على السلطة، بل ركزوا جهدهم على خدمة الدَّوْلَة وتوطيد هيبتها أمام الدول المجاورة، بالذات تلك المتربصة بالعرب.

– عَبَّاسيَّة وفَاطميَّة:

الصراع المَذْهَبِيّ بلغ مرحلة جديدة عندما قامت في المغرب العَرَبِيّ دولة شيعية لأسرة ادَّعت لنفسها كذِبًا –وفق آراء أغلب المؤرخين– أنها تنحدر من نسل السيدة فاطمة الزهراء، رَضي الله عَنْهَا، وسمَّت الدَّوْلَة الجديدة نفسها "الفَاطميَّة" تلك الدَّوْلَة بدأت تتطلع بشراهة إلى مصر وقامت بالفعل بمحاولتين لغزوها. الوجود الشِّيعيُّ في شكل دولة وادِّعاء للخلاَفَة والانتساب إلى آل البيت أدَّيا إلى تصاعد التوتر بين المَذْهَبَيْن، ونظر الخلاَفَة العَبَّاسيَّة، والسُّنَّة بشكل عامٍّ، إلى أي شيعي على أنه موالٍ للفَاطميّين حتى يثبت العكس، خصوصًا مع انتشار دعاة الولاء للفَاطميّين في أرجاء البلاد العَرَبِيَّة. وعندما قام الفَاطميّون بالغزو الثالث لمصر، واقترب جيشهم بقيادة جوهر الصقلي من عاصمة الإِخْشيديّين الذين كانوا يحكمون مصر تحت اسم الخَليفَة العَبَّاسيّ، آنذاك، وقعت حالة من الفوضى في الشوارع، وحام الشك حول كل مَن يُبدي مجرَّد حبٍّ زائد لآل البيت، حتى بلغ الأمر أن انطلق الجنود الإِخْشيديّون في شوارع مصر يَقِفُون الناس بشكل عشوائي ويسألونهم عن رأيهم في مُعَاوِيَة بْن أَبِي سُفْيَان، فإن قال "مُعَاوِيَة خال علي" –باعتبار أن مُعَاوِيَة خال المؤمنين لأن أخته أم حبيبة إحدى أمهات المؤمنين– تركوه، وإن لم يقُلها ضربوه واعتبروه شيعيًّا مواليًا للفَاطميّين. وبعد سقوط مصر وانتقال الخلاَفَة الفَاطميَّة إليها، ازداد الصراع سخونة. فقد تجاور العملاقان، السُّنِّيّ والشِّيعيّ، وأصبحت المُنَافسة بينهما على تسيُّد العرب في أوجها. الوجود الفَاطميّ في مصر أخرجها من دورها في الصراع بين العرب وأعدائهم البيزَنْطيّينَ، فمصر التي كانت مصدرًا للمؤن والأموال المستخدم قسم كبير منها في تمويل الحروب العَرَبِيَّة –دفاعية وتوسُّعية– أصبحت تحت سلطة معادية لباقي القطاع السُّنِّيّ من المنطقة العَرَبِيَّة ووُجِّهَت مواردها لتمويل أعمال الحرب ضدّ السلطة العَبَّاسيَّة، بل وبلغ الأمر أن نشأت في بعض الأوقات تحالفات واتفاقات بين القَاهرة والقسطنطينية

لتشجيع الروم على ضرب شمال بلاد الخلافَة العَبَّاسيَّة حتى ينشغل العَبَّاسيّون عن جارهم الفَاطميّ اللدود الذي كان لعابه يسيل على بلاد الشام، بل والعراق نفسه. التحالف الفَاطميّ البيزَنْطيّ كان خيانة صارخة أدت في ما بعد لكوارث ضخمة. ولم يكتف الخلفاء الفَاطميّون بذلك بل قاموا بدعم الحركات المتمردة على الخَليفَة العَبَّاسيّ، وبلغوا نجاحًا كبيرًا في ذلك، في بداية الأمر، بأن انحاز إليهم القائد التركي أرسلان البساسيري، شيعي المذهب، الذي كان أحد رجال الدَّوْلَة العَبَّاسيَّة، وقام باحتلال بغداد نفسها وطرد الخَليفَة العَبَّاسيّ القائم بالله منها، ودعا على منابرها للخَليفَة الفَاطميّ. كادت الدَّوْلَة العَبَّاسيَّة تسقط بسبب غدر البساسيري وخيانته لدولته، لولا تدخُل قائد تركي آخر هو طغرلبك، وكان سُنِّيًا مخلصًا للخَليفَة، وردع البساسيري وقتله وانقذ خلافَة العَبَّاسيِّين.
لم يقف الفَاطميّون عند دعم وتمويل تمَرُّد القادة ذوي الميول الشِّيعيَّة فحسب، بل قاموا بدعم الحركات التخريبية الإرهابية، كحركة الحَشَّاشين الشِّيعيّة المتطرفة في إيران، والتي قامت على اغتيال معارضي مذهبها، وحركة القرامطة في شمال الجزيرة العَرَبيَّة، والتي اقتحمت الحرم المكي وقتلت الحُجَّاج وانتزعت الحجر الأسود من مكانه لمدة عشرين عامًا. هذا فضلاً عن الغزوات الفَاطميَّة المتكررة لفلسْطين ولبنان وجنوب الشام، في محاولة لتوسيع نطاق سلطتها من جانب، ولشق طَريق مباشر لجيوشها إلى بغداد من جانب آخر. كل تلك الجهود الفَاطميَّة لتدمير العَبَّاسيِّين، كانت وبالاً على الدَّوْلَة العَرَبيَّة الإسْلاَميَّة، فهي أولاً منعت المشرق العَرَبيّ من تقديم يد العون للعرب الأندلسيين الذين كانوا يخوضون أعتى المعارك للحفاظ على ممتلكاتهم في أوروبَّا أمام زحف حملات ملوك إسبانيا وفرنسا والبرتغال، وثانيًا أسهمت في إلهاء العَبَّاسيِّين عن الخطر الصَّليبيّ الذي كان قد بدأ في الاقتراب من الشرق بوصول أولى حملاته إلى بيزَنْطَة استعدادًا لمداهمة الشام كله، وأخيرًا بلغت الخيانة قمتها بمسارعة الفَاطميّين للتحالف مع الفرنجة فور وصولهم إلى المشرق، ضدّ العَبَّاسيِّين!

تلك الخيانة الفَاطميَّة قابلتها خيانة أخرى من بعض الحكام السُّنَّة لبعض مدن الشام، فلأن السلطة المركزية في بغداد كانت قد ضعفت، فقد قامت في الشام والعراق وفارس بعض الدول شبه المستقلة، كانت تتبع الخَليفَة العَبَّاسيّ اسميًا بينما كانت فعليًا تمارس استقلالاً كاملاً عن قصر الخلافَة في بغداد. من هذه الدول دولة السَّلاَجقَة الأتراك في الشام. كان السَّلاَجقَة –في بداية الأمر– قوة عَرَبيَّة كبيرة دافعت عن الدَّوْلَة وأسهمت في ردِّ هيبتها. ولكن بعد زمن توالى عليها حكامٌ أقل كفاءة ممَّا يجب، وأصابها انقسام

شديد وصراع دخلي، دخلت فيه أطراف شيعية متمثلة في بعض الأمراء العرب الشِّيعَة كإمارة بني عقيل. اندلع الصراع بين الأتراك السنة من جانب والعرب الشِّيعَة من جانب آخر، بينما طلائع الصَّليبِيِّين تقيم إماراتها في آسيا الصغرى والشام، وبلغت المهزلة قمتها بأن قام أحد كبار القادة السُّنِّيِّين وهو رضوان السُّلْجُوقِيّ بعقد تحالف مع الأمير الصَّلِيبِيّ تانكريد حاكم أنطاكية، بينما أقام قائد تركي آخر هو جاولي حلْفًا آخر مع بلدوين الثاني حاكم الرها. كل هذه كانت حلقات جديدة في سلسلة الصراع الطائفي الدولي بين السُّنَّة والشِّيعَة، سواء عن تعصُّب مذهبي حقيقي أو تستُّر وراء ذلك التعصُّب سعيًا إلى مكاسب أخرى. أما الخيانة الكبرى، فقد جاءت بعد انهيار الدَّوْلَة الفَاطميَّة بزمن طويل، عندما قام ابن العلقمي وزير الخَليفَة العَبَّاسيّ المستعصم بالله -وكان الوزير شيعيًّا- بخيانة دولته وتسليم أدق أسرار تحصينات بغداد لهولاكو خلال حصار هذا الأخير للمدينة، واضعًا فصلاً داميًا في الصراع المُرّ بين المَذْهَبيّن.

- المواقف السِّيَاسيَّة:

الصراع دخل مرحلة تالية بعدما دخل صلاح الدين الأيوبي مصر مع عمه أسد الدين شريكوه، وأسقطا الحكم الفَاطِميّ منها وأعاداها إلى السلطة العَبَّاسيَّة. فقد سعى صلاح الدين لطرد المذهب الشِّيعِيّ من مصر كلها، بشكل شديد العنف والقسوة اضطرَّ الشِّيعَة إلى الهرب إلى جبال لبنان وسوريا (حيث يستقرُّ كثير منهم الآن). صلاح الدين أغفل حقيقة أنه حاكم لكل من تحت يده من عرب أيًّا كانت مذاهبهم، وكان الأولى به أن يستميل الشِّيعَة من جديد إلى مبدأ التوحد تحت راية واحدة، كما فعل مع العرب، بحيث يكون قد حقق وحدة عَرَبِيَّة ومَذْهَبِيَّة. ولكنه لم يفعل فأهدر طاقة كبيرة كان يمكن ضمُّها إلى جيشه المحارب للصليبيين. قد يُلتَمَس له العذر في خوفه من وجود عَنَاصِر مدسوسة تحاول إعادة الحكم الفَاطِميّ، ولكنه بالَغ في الاحتياط فأخذ العاطل والباطل وأثَّر على جزء من البنيان البشري للدولة، وأسهم في نشأة جوِّ العزلة الذي أسهم بدوره -عبر التاريخ- في خلق حالة من التربُّص بين السُّنَّة والشِّيعَة في الشرق. بالإضافة إلى أن هجرة هؤلاء الشِّيعَة إلى منطقة استراتيجية وعرة كجبال لبنان كانت أكثر خطورة من تركهم في مصر أمام عينه، فقد هاجروا إلى منطقة حصينة لا يمكن ملاحقتهم بها، وهي في نفس الوقت قريبة من أعدائه الصَّليبيِّين، بحيث أصبح الشِّيعَة في ظهره إذا التفت لغزو الإمارات الصَّلِيبيَّة، ممَّا يشكِّل تهديدًا دائمًا له مع جوِّ العداء الذي وُجِدَ بينهم ضدَّه بعد موقفه منهم في مصر.

من ناحية أخرى، وبعد سنوات طويلة، تعامل السلطان المملوكي الظاهر بيبرس بشكل أكثر ذكاءً مع أكثر طوائف الشِّيعَة تعصُّبًا، وهي طائفة الحَشَّاشين في الشام والتي احترفت الاغتيال السِّيَاسيّ والمَذْهَبِيّ. بيبرس أراد إخراج تلك الفئة من الصراع السُّنِّيّ الشِّيعِيّ الطويل، وضمهم إلى صفوف العرب في الحرب ضدّ الفرنجة الذين كانوا يحتلّون أجزاءً من الشام، فراسل زعماء الحَشَّاشين وأعطاهم الأمان مقابل أن يضعوا أنفسهم وإمكانياتهم تحت يده، وقام بعد ذلك بتوجيههم إلى القادة الفرنجة، فحقق عدة أهداف: أولاً وقف الصراع السُّنِّيّ الشِّيعِيّ في المنطقة بتوحيد الهدف والعدو، وثانيًا وقف الأعمال الإجرامية للحَشَّاشين فساد الأمن، وأخيرًا جعل للفرقة الشِّيعِيَّة المسلحة (الحَشَّاشين) فائدة للدولة العَرَبِيَّة كلها. وقد أسهم تعامله الذكي هنا، وسير خلفائه في العصر المملوكي الأول على سيرته، في تبريد وإطفاء لهب الصراع الطائفي الطويل بين السُّنَّة والشِّيعَة في الشرق، ذلك الصراع الذي جعل العرب يخسرون الكثير!

– واليوم...:

تشابُه التاريخ وتكراره نفسه يؤكد أن مصيرًا كمصير بغداد أو مدن الشام الساقطة في يد الصَّلِيبِيّين، يهددنا إن استمر تصاعد العداء بين السُّنَّة والشِّيعَة بهذا الشكل المخيف. سواء في إطار البلد الواحد –كالعراق– أو في ما بين البلدان. خصوصًا أن مبدأ "المَذْهَبِيَّة" إن كان مقبولاً قديمًا، فهو غير مقبول الآن في ظل مبدأ "المواطنة" الصَّلِيبِيُّون رحلوا، والمغول كذلك، ولكن الشرق العَرَبِيّ ما زال مطمعًا، والصراع المَذْهَبِيّ ما زال موجودًا.. فاثنان لا يفنيان إلا بفناء البشر: الطمع، والغباء!

مصادر المعلومات:

١- البداية والنهاية: ابن كثير.
٢- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي.
٣- بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس.
٤- تاريخ المذاهب الإسْلاَمِيَّة: محمد أبو زهرة.
٥- أطلس التاريخ العَرَبِيّ الإسْلاَمي: د/ شوقي أبو خليل.
٦- تاريخ الشعوب الإِسْلاَمِيَّة: كارل بروكلمان.
٧- موسوعة الحروب: هيثم هلال.
٨- الفرق والجماعات الدِّينِيَّة: د/ سعيد مراد.
٩- مصر في العصور الوسطى: د/ محمود الحويري.
١٠- ماهية الحروب الصَّلِيبِيَّة: د/ قاسم عبده قاسم.
١١- صلاح الدين الأيوبي: د/ محمد مؤنس عوض.
١٢- عصر سلاطين المماليك: د/ قاسم عبده قاسم.
١٣- الاستيطان الصَّلِيبِيّ في فلسطين: يوشع براور.
١٤- العلاقات الإقليمية والحروب الصَّلِيبِيَّة: د/ كمال بن مارس.
١٥- تاريخ السَّلاَجِقَة في بلاد الشام: د/ محمد سهيل طقوش.
١٦- تاريخ الفَاطميّين: د/ محمد سهيل طقوش.
١٧- تاريخ الطولونيين والإِخْشيديّين والحمدانيين: د/ محمد سهيل طقوش.
١٨- تاريخ المماليك: د/ محمد سهيل طقوش.
١٩- تاريخ الأيوبيين: د/ محمد سهيل طقوش.
٢٠- موسوعة تاريخ العرب: عبدعون الروضان.
٢١- الاغتيالات في بلاد الشام والجزيرة: د/ محمد عبد الله المقدم.
٢٢- الحشيشية: برنارد لويس.
٢٣- تاريخ أوكسفورد للحروب الصَّلِيبِيَّة: جوناثان رايلي سميث.
٢٤- الجمعيات السرية: نورمان ماكنزي.

بين البارحة واليوم – الختام

أصلاب الرجال وأرحام النساء

التطرف الدِّينيّ هو اسم اللعبة.. وإذا كنا من قبل قد تحدثنا عمَّن استغلوا الدين لتحقيق أغراض شخصيَّة، فاليوم [فالآن] نتحدث عمَّن آمنوا أنهم جند الله المُرْسَلون إلى أرضه الكافرة ليطهِّروها بسيوفهم ويسفكوا دم أهلها.. عن الذين رفضوا الآخر ووصموه بالخروج عن الإيمان بالله فاستباحوا دمه وعِرْضَه وماله، نموذجان شهدهما التاريخ، واحد إِسْلاَميّ عَرَبِيّ والآخر مَسيحي أُورُبِّيّ، الأولون هم الخوارج، والآخرون هم الصَّليبيُّون، اختلفا في الأسلوب والفكر، ولكن اتَّفَقا في المنهج الذي استمرت آثاره في كل فَكر متطرف هنا أو هناك، حتى يومنا هذا.

I– الخوارج:

– البداية:

كانت معركة "صفين" بين الإمام علي بْن أبي طالب (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ) ومُعَاوِيَة بن أَبِي سُفْيَان (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) في أشدها. مُعَاوِيَة يطلب تركه يثأر لابن عمومته عُثْمَان بْن عَفَّان (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) ويرفض الاعتراف بعليّ خَليفَةً للمُسْلمينَ حتى يتم ذلك، وعليٌّ يرفض أن يكون تنفيذ القصاص متروكًا للأفراد ويُصرُّ أن يبقى ذلك أمرًا بيد الخَليفَة وحكومته. وفي قلب المعركة، بعد أن نال الجهد من جند مُعَاوِيَة وكادوا يُهزَمون، قرَّر بمشورة عمر بن العاص (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) أن ينادي بطلب الهدنة وتحكيم القرآن في ما شجر بين المُسْلمينَ.

الإمام عليٌّ خشي أن تكون تلك خدعة، وكان يعلم يقينًا –لشدة تفقُّهه في الدين– أنه على حقٍّ، فأراد الاستمرار في القتال، فإذا ببعض جنوده يتمردون عليه ويُصرُّون على أن يقبل التحكيم، فقبله على مضض، وإذا بنفس الجنود بعدها مباشرة يعودون فيطلبون منه رفض التحكيم، لكنه يرفض إذ كان قد أعطى كلمته، ولا يجوز الرجوع في ما عاهد عليه. فخرجوا عليه، ونادوا بتكفيره ومحاربته.. ومن هنا.. كانت بدايتهم: "الخوارج"

– المنهج والعقيدة والأفكار:

هكذا ومن البداية ظهر منهجهم في تكفير كل من خالفهم، ولأنهم كانوا مجرَّد "فئة" من الناس فقد كفَّروا كل الناس واعتزلوهم في مناطق نائية خاصَّة بهم، باعتبار تلك المناطق "أرض هجرة" وأنهم "مهاجرون مجاهدون" وأن ما سواها من بلاد المُسْلمينَ "أرض كفر ودار حرب" كانوا يقومون الليل ويصومون النهار وقد تقرحت جباههم من طول السجود. ولكنهم مع ذلك كانوا من أشرِّ الناس، فتكفيرهم من سواهم جعلهم يعيدون النظر في الدين بشكل خاص بهم، فكانوا يفسرون القرآن بظاهر ألفاظه فحسب، دون البحث في معانيها، وهذا بالطبع مخالف لأبسط قواعد التفسير، وقد كان سببًا في وقوعهم في العديد من الكبوات العَقَديَّة، حيث اعتبروا أن مرتكب الذنب كافر حتى لو كانت خطيئته بناءً على خطأ منه في فهم الدين، واعتبروا أن دماء غيرهم من الناس حلال وكذلك أموالهم ونساؤهم، واستحلوا قتل الغيلة (الاغتيال) رغم تحريمه شرعًا، ورفضوا ما أجمع عليه الفقهاء في ضرورة أن يكون الخَلِيفَة قُرَشيًا وفقًا للحديث الشريف "الأئمة من قريش"، بل فضَّلوا أن يكون الإمام من غير عشيرة قوية حتى يسهل قتله أو عزله إذا أساء، ومنهم من قال بعدم وجود الإمامة كفرض ما دام المُسْلمُون يستطيعون تحقيق العدل بينهم دون ولي للأمر (!). كانوا ينزلون إلى الكوفة ويقتحمون على الإمام عليٍّ (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ) خطبه في المسجد ويقاطعونه بفظاظة صائحين: "ما الحكم إلا لله" فيجيبهم بهدوء: "كلمة حَقٍّ يُراد بها باطل" فهم قد فهموها بأن على المؤمن الحق تنفيذ حكم الله بنفسه أيًا كان الحكم، بينما كان الإمام يدرك أن بعض أحكام الله يجب أن يحتكر تنفيذها وليُّ الأمر، كالحدود والقصاص، حتى لا يتحول الأمر إلى فوضى.

– جرائمهم:

الجريمة الأولى كانت شقَّ صف المُسْلمينَ بما أحدثوا من تفرُّق بينهم، وخروجهم على الجَمَاعَة في وقت كانت فيه الأمة تحتاج إلى أن تتحد وتتعافى من حربها الأهلية. الجريمة

الثانية، كانت كمية التحريفات الرهيبة التي أحدثتها فرقهم على الدين، فقد انقسموا إلى نحو عشرين فرقة كل منها كان لها تفسيرها ونظرتها الخاصَّة للعقيدة والشريعة، وتباينت افتراءات كل منها، فمنهم من استباح تأليف الأحاديث ونسبها إلى الرَّسُول (عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ) من باب أن في هذا منفعة وتدعيمًا للأمر بالمعروف (!)، وفرقة ثانية أحلَّت نكاح الآباء لبناتهم، وأخرى قالت بانتظار نبي ينسخ الشريعة الإِسْلاَميَّة بشريعة جديدة، فضلاً عن فرقة منهم حذفت سورة يُوسُف من القرآن بِحُجَّة أن بها وصف للعشق وهذا -على حدِّ قولهم- ممَّا لا يليق بالقرآن.

الخلاصة أن شططهم بلغ ببعضهم مرحلة الخروج عن الدين تمامًا حسب تصنيف خبراء المذاهب والفرق الدِّينيَّة.

أما جريمتهم الأخرى فتمثلت في حمّامات الدم التي أحدثوها بين الأبرياء، فمنهجهم التكفيري جعل لهم جرأة على مداهمة القرى والبلدات الآمنة وقتل أهلها وسلبهم، وسبي نسائهم، هذا غير قطعهم الطرق على الآمنين وتدميرهم الإحساس العام بالأمان، بالذات في العراق.

- الصراع والنهاية:

بدؤوا أولى حوادثهم العنيفة بقتل الصحابي الجليل عبد الله بن خباب وبقروا بطن زوجته الحامل فقتلوها وجنينها، وعندما طلب الإمام علي منهم تسليم القاتل تحدَّوه قائلين: "كلنا قاتله"، فخرج عليهم بجيش قوي وحاربهم في منطقة "النهروان" من العراق وأحدث فيهم مقتلة عظيمة، وعندما هنَّأه بعض الناس بالنصر قال لهم: "لا، بل هم في أصلاب الرجال وأرحام النساء"، إذ أدرك -بعد نظره- أن ما أحدثه الخوارج من تَطرُّف إنما هو باقٍ إلى نهاية الزمان. وفي يوم، بينما كان الإمام (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ) يصلّي الفجر بالناس، خرج عليه أحد الخوارج وضربه بالسيف مغتالاً إياه، ومنذ ذلك الوقت بدأت سلسلة العنف بينهم وبين الدَّوْلَة، فالأمويون -الذين حكموا المُسْلمينَ بعد اغتيال علي واعتزال ابنه الحسن (رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا) الخلافَة- كانوا قادرين بحقٍّ على مواجهة حركات التَّمَرُّد بحزم وقسوة، وكانت لديهم نخبة من القادة الدهاة البارعين، أمثال الحَجَّاج بن يُوسُف والمهلّب بن أبي صفرة. الأول كانت فيه قسوة أكثر ممَّا كان فيه من الدهاء، فكان يومًا ينتصر على الخوارج ويومًا ينتصرون عليه و لم يستطِع أن يضع حدًّا لهم، فقد كانوا -على باطلهم- ذوي قوة وشجاعة واستقتال، بينما كان المهلّب داهية بارعًا، فكان

يدس لهم قبل معاركه معهم من يثير فيهم الجدن الدِّينيّ ويحميه -وكانوا يهوون الجدل والاختلاف- حتى يبلغ منهم أن ينقلب بعضهم على بعض، فيدخلون المعركة تحسبهم جميعًا وهم شتَّى، فتكون الهزيمة من نصيبهم وربما تمت الخلافات بينهم حتى يتحاربون في ما بينهم. استمر الأمر على هذا المنوال طوال عهد الأمويين حتى تضعضعت قوة الخوارج وسقطوا قبل سقوط الدَّوْلَة الأموية بقليل وانهارت قوتهم العسكرية و لم يبقَ منهم حتى الآن سوى بعض مذاهبهم في بعض مناطق عمان واليمن وليبيا وصحراء مصر الغربية.

II- الصَّلِيبِيُّون:

- البداية:

من المتفق عليه بين أغلب المؤرخين أن الحملات الصَّليبيَّة على الشرق كانت كذبة مفضوحة تَتستَّر وراء الدين لإخفاء الأغراض الدنيوية. ربما لهذا لم يستخدم المؤرخون المُسْلمُون القدامى مصطلح "الصَّلِيبِيّين" لوصف الغزاة. ولكنّ ثمة جانبًا آخر لا ينكره أحد، هو وجود نسبة لا بأس بها ممن خرجوا مع تلك الحملة وهم مؤمنون أنهم بالفعل يحاربون من أجل نصرة دين المسيح ورفع كلمة الرب. كان أغلبهم من البسطاء وصغار رجال الدين المَسيحي، ولكن بساطة عقولهم انعكست على وحشيَّة أفعالهم التي سجلها المؤرخون الأورُبِّيُّون أنفسهم!

- أسباب نشأة الفكر الصَّلِيبيّ المتطرف:

كان الجهل يمثل عاملاً كبيرًا في نشأة هذا الفكر، فضعف -أو انعدام- الاتصال العقلي بين عامَّة الشعب والثقافة العَرَبِيَّة الإِسْلاَمِيَّة، سهَّل على دعاة الحملات أن يقنعوا هؤلاء الناس بأن المُسْلمينَ كائنات وحشيَّة تنتهك قبر المسيح وتقتل الحُجَّاج النَّصَارَى، وكانت قد انتشرت آنذَاك في أُورُبَّا فكرة اقتراب القيامة ودنوّ يوم الدينونة وضرورة سرعة التطهر من الآثام، ممَّا دفع الكثيرين للرغبة في انهاء حياته الدنيا بالجِهَادِ في الأرض المُقَدَّسَة والاستشهاد على عتبات "أورشليم" في أثناء نشر دين المسيح بين "الكفَّار الملاحدة" كما كان يوصف المُسْلمُون والعرب.

الحماسة الدِّينيَّة دفعت الآلاف إلى الخروج -برًّا وبحرًا- إلى الحملات متطوعين،

وقد خاطوا على ملابسهم صلبانًا قماشية (ومن هنا جاء وصف الحملات بالصَّليبيَّة). تلك الهبّة الدِّينيَّة كانت مدعومة بما زرعته الكنيسة الكاثوليكيَّة -آنذاك- في عقول العوامّ، من احتكار البابا في روما لأبواب الرحمة وأبواب الجحيم، فكانوا مؤهَّلين لطاعته والامتثال له تمامًا. ورغم أن البابا أوربان الثاني -أول من دعا للخروج الأوربِّيّ إلى الشرق- لم يكن في بداية الأمر راغبًا في خروج عامة الشعب للقتال، فإنه ورجال الكنيسة رأوا بعد ذلك أن في هذا فائدة كبيرة من حيث توفير أعداد هائلة من المقاتلين المستعدين للقتال دون مقابل فقط إرضاءً للرب. أمر آخر أسهم في إذكاء الروح المتعصبة ضدّ المُسْلمينَ، هو الحروب المستمرة بين الإسبان والبرتغاليين والفرنسيين من جانب، والعرب الأندلسيين من جانب آخر، وقد كان هؤلاء الأخيرون هم الأكثر تغلبًا -آنذاك- على أعدائهم عسكريًا وسياسيًا، فكانت في أوربًا تيّارات كاملة من المتأثرين بهذا الصراع والراغبين في الانتقام من المُسْلمينَ الذين هزموا الأوربِّيِّين على أرضهم.

- **الفظائع:**

الشحنة الدِّينيَّة العنيفة التي تَلَقَّاها المقاتلون من العامة من خطب البابا ورجال الدين، التي سمعوا فيها أشنع الاتهامات للمُسْلمينَ بتدنيس المقدسات المَسيحيَّة وإذلال المَسيحيِّينَ، بالإضافة إلى الخوف المزروع في قلوبهم -المقاتلين- من إغضاب الرب لو تقاعسوا عن القتال، فضلاً عن رغبة المعدمين واليائسين منهم في الفوز بنعيم السماء بعد أن يئسوا من نعيم الأرض، والحماس الدِّينيّ المتعصب الأعمى لصغار رجال الدين الذين كانوا قد تَشرَّبوا من قياداتهم الدِّينيَّة كمية كبيرة من البغض لكل ما هو عَرَبيّ إسْلامي، كل تلك العوامل، دفعت كل هؤلاء لارتكاب مذابح بشعة بحق سكان المدن التي دخلتها القوات الأوربِّيَّة، فكانوا يقتلون الجميع دون تمييز، ويجمعون المدنيين في المساجد ويحرقونها عليهم، ويبقرون بطون الحوامل ويقتلون الأجنة أمام أمهاتها قبل أن يذبحوا الأمهات، بينما كانوا (المجرمون) يسبّحون ويرتّلون من المزامير والكتاب المقدس، في مزيج جنوني بين صرخات الضحايا وابتهالات القتلة.

قلّة من أصحاب الضمائر الحيَّة والعقول الواعية أدركوا خطأ الادّعاءات الكَنَسيَّة الكاثوليكيَّة في حق المُسْلمينَ، عندما احتكوا بهم عن قرب خلال الحملات، سواء كأسرى في يد العرب أو كتُجَّار في أوقات الهدنة، فكان من الطبيعي أن تكون الحملات الأوربِّيَّة إلى الشرق وسيلة لجعل العامَّة يدركون في أي خدعة وقعوا عندما صدَّقوا الافتراءات في حق المُسْلمينَ.

III- واليوم...:

كما قالها الإمام عليٌّ (كَرَّمَ الله وجْهَهُ) "هم في أصلاب الرجال وأرحام النساء". فاليوم، نجد من المُسْلمينَ من يستبيح دم أخيه ويستسهل تكفيره ويعتبر ماله وعِرْضه غنيمة، فقط لأنهما يختلفان في تناول الدين. ونجد من يستبيح دم أهل الذِّمَّة -وهو حرام- ومالهم وأعراضهم -وهي محميَّة بحكم الشرع- بِحُجَّة أنهم ليسوا من المُسْلمينَ. الخوارج انتهوا، لكن منهجهم التكفيري باقٍ كما هو، وأسلوبهم في تكوين الفرق والميليشيات العسكرية التي تنتمي إلى هذا الفكر المتطرف أو ذاك، كما هو، وانفصالهم عن مجتمعاتهم وتنصيبهم أمراء لهم يقودون حملاتهم التكفيرية و"غزواتهم" في حقِّ معارضيهم، يبقى كما هو دون تغيير إلا في أسماء الجماعات وشعاراتها... سواء كانت "القَاعدَة"، أو "التكفير والهجرة"، أو "الناجون من النار كلها أسماء لشيء واحد بغيض يحدث عندما يسيء الإنسان فهم وظيفة عقله!

والصَّليبِيُّون، رحلوا، لكن فكرهم المتطرف الغبيّ باقٍ، سواء في الممارسات العنصرية ضدّ الزنوج والْيَهُود في أَمْريكا من منظمة "الكلوكلوكْس كلان" التي ترفض كل من ليس مسيحيًّا أبيض اللون، خلال القرن الماضي، أو في اقتحام بعض منظمات المرتزقة المتعصبين دينيًّا ساحات القتال في العراق، بدعوى إحياء الحملات الصَّليبيَّة وتطهير العالم من المُسْلمِينَ كشركة "Black water"، أو في انتشار المتعصبين ضدّ الإِسْلاَم، دون أدنى فهمٍ له، في مختلف بلدان شمال أورُبَّا، أو في من نفذوا أعتى المذابح في حقِّ مسلمي البوسنة وشيشنيا لدوافع دِينِيَّة بحتة ظنًّا منهم أنه أمر إلهي وأخذ لثأر قديم...

نعم، لم ينته التطرف الدِّينِيّ، وكيف ينتهي؟ ألم يقُل آينشتاين إن كل شيء بلا حدود إلا الغباء البشري؟

مصادر المعلومات:

١- البداية والنهاية: ابن كثير.

٢- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي.

٣- النظام السِّيَاسِيّ للدولة الإِسْلاَمِيَّة: د/ محمد سليم العوا.

٤- الأحكام السلطانية: أبوالحسن الماوردي.

٥- الجريمة: محمد أبو زهرة.

٦- موسوعة تاريخ العرب: عبدعون الروضان.

٧- تاريخ المذاهب الإِسْلاَمِيَّة: محمد أبو زهرة.

٨- الفرق والجماعات الدِّينِيَّة: د/ سعيد مراد.

٩- الجمعيات السرية: نورمان ماكنزي.

١٠- الله ليس كذلك: د/ زيجريد هونكه.

١١- الإِسْلاَم كبديل: د/ مراد هوفمان.

١٢- القَاعدَة وأخواتها: كميل الطويل.

١٣- تاريخ الشعوب الإِسْلاَمِيَّة: كارل بروكلمان.

١٤- حَضَارَة أُورُبَّا العصور الوسطى: موريس كين.

١٥- ماهية الحروب الصَّلِيبِيَّة: د/ قاسم عبده قاسم.

١٦- تاريخ أوكسفورد للحروب الصَّلِيبِيَّة: جوناثان رايلي سميث.

١٧- الاستيطان الصَّلِيبِيّ في فلسطين: يوشع براور.

١٨- المُسْلمُون وأُورُبَّا: د/ قاسم عبده قاسم.

١٩- العصور الوسطى الباكرة: نورمان كانتور.

٢٠- عالم الصَّلِيبِيّين: يوشع براور.

٢١- عالم الحروب الصَّلِيبِيَّة: د/ محمد مؤنس عوض.

٢٢- عصر الحروب الصَّلِيبِيَّة: د/ محمد مؤنس عوض.

٢٣- أصول الفقه الإِسْلاَمِي: محمد أبو زهرة.

دماء على عتبات الإله - الجزء الأول

الآشوريون.. كفار قريش.. البيزنطيُّونَ.. الصَّليبيُّون.. المتطرفون من كل دين.. كل هؤلاء وغيرهم فعلوا الأفاعيل فسفكوا أنهارًا من الدماء ودبَّروا أعتى أنواع المؤامرات بحُجَّة "إرضاء الإله" أقدم الحُجَج وأقواها أثرًا وأكثرها نفوذًا على الناس. ولأننا نؤمن أن من ثار حقًّا لنصرة إلهه لَيس كمَن اتخذ إلهه حُجَّة ليحقق مكاسب شخصيَّة.. فإننا نتحدث عن هذا النوع الثاني من البشر.. عن الذين اتخذوا من "نُصرَة الإله" حُجة ساترة لأسباب أخرى.. ليفعلوا ما شاؤوا دون حساب.

مُخطئ من يحسب أن هذا النوع من الحجج حديث النشأة. فالحقيقة أنه قديم قِدَم الإنسان الذي إن شاء وجد لنفسه عشرات -بل مئات- المبرِّرات ليرتكب أعتى أنواع الشر. ودعونا لا ننس أن قابيل قتل هابيل وهو يدَّعي عدالة قضيته!

ولا يوجد تاريخ محدَّد لتلك الفكرة "القتل والحرب باسم الإله/الآلهة" ولكن المؤكد أنها نشأت في الشرق حيث احتلَّ الدين أعلى مكانة في نفس الإنسان... والأمثلة موجودة.

آشور العَطوف (!):

ما دامت ليست لدينا بداية محددة فلنبدأ بأقوى الأمثلة: دولة آشور. تلك الدَّوْلَة التي نشأت أولاً حول مدينتَي أربيل ونينوَى -في العراق القديم- ثم تحولت إلى إمْبرَاطُوريَّة واسعة سيطرت على سوريا والعراق ومصر. تلك الدَّوْلَة حملت اسم معبودها "آشور"

إله الحرب الذي كانت عبادته تناسب تمامًا الشعب الآشوري العنيف الذي لم يكُن لديه هَمٌّ سوى القتال والتَوَسُّع، فكانت كل الأعمال مرتبطة بالحرب والقتال بشكل أو بآخر. فمن يتعلم الهندسة إنما يفعل ذلك ليبني حصون دولته ويجيد تخريب حصون أعدائها، ومن يمارس الطب يتخصص في معالجة جرحى المعارك، والحدادون لا هَم لهم سوى صنع الخوذات والدروع والأسلحة للجيش الذي كان الأقوى في عصره وبلغ تقدُّمه حَدَّ أن ضمَّ سربًا من الطيور الجارحة المدرَّبة على مهاجمة من يُجْرَح من الأعداء في أثناء المعركة وتمزيق جروحه. ملوك آشور أقنعوا شعبهم أن كل هذا يهدف إلى إرضاء الإله "آشور العطوف" الذي كان يأمرهم بدوام الغزو باسمه.. فكانت الجيوش الآشورية تخرج لقتال بَنِي إِسْرَائِيل وقَبَائل بني إِسْمَاعِيل ودولتَي مصر وبابل. وكما أن في بعض الأديان- كالإِسْلام- مواسم لها عبادات معيَّنة، كالحَجِّ والصيام، فقد كان للآشوريِّين موسم للخروج لقتال الآخرين هو شهر تموز (يوليو) الذي يأمرهم فيه الإله بالغزو وقتل الأعداء وأسر تماثيل آلهتهم. وبعد المعارك كانوا يعودون إلى العاصمة نينوَى بأفواج الأسرى حيث يقام الحفل الدموي لإرضاء الإله بمشاهد تعذيب وقتل الأسرى بأبشع الطرق الممكنة.. فكانوا يسلخون بعضهم أحياءً ويغطون جدران العاصمة بجلودهم، تلك الجدران التي كانوا يدفنون فيها البعض الآخر أحياء ويكملون بناء الجدار على أجسادهم، والبقية الباقية من هؤلاء المساكين كانت تلقى حتفها على الخوازيق أو بالإلقاء أحياء في النيران دون تمييز بين مقاتل أو مدني، كبير أو صغير... كل هذا والشعب الآشوري يشاهد ويُسَبِّح بحمد آشور ويهتف للملك -ابن آشور المقدس- الذي لم يفعل ما فعل إلا إرضاءً للرب! وحقيقة الأمر أن كل تلك المذابح والمجازر إنما كانت تتم بشكل مقصود به شنُّ حرب نفسيَّة على الشعوب المجاورة التي كانت بالفعل تتأثر بما يبلغها من أنباء وتُسارِعُ لتقديم الطاعة والجِزْيَة دون قتال.

- الشعب المخدوع:

ذلك الاقتناع الشعبي بأن ما جرى إنما تم لتمجيد اسم آشور لا ينمُّ فقط عن مستوى حقارة واختلال التفكير والعقيدة، بل ينم أيضًا عن القدرة الخارقة للملوك الآشوريِّين في تغذية الشعب بفكرة "الحرب المُقَدَّسَة" التي كان الملك هو المستفيد الوحيد منها.. فما تم عبر سنوات من حكم هؤلاء الملوك هو تربية شعب كامل على مبدأ "الحرب لأجل آشور وارتكاب الفظائع باسمه" بينما كانت الحرب في حقيقة الأمر لأجل الملوك والنبلاء والقادة الذين كانت خزائنهم تتضخم من واردات الغنائم والجِزْيَة القادمة من ممالك مصر

وإِسْرَائيل وبابل وسوريا وقَبَائل بني إِسْمَاعيل.. بينما كان الشعب يدفع الثمن من دمائه التي يقدمها عن طيب خاطر وهو يحسب أنه يحسن عملا، ومن سلامته النفسيَّة التي دمرتها سنوات من الحروب المُستمرة وخلقت منه أكبر شعب مريض في التاريخ القديم. ما قام به ملوك الآشُوريَين لم يكُن سهلاً، فحتى مع انتشار فكرة "الملك الإله" في ممالك العراق القديم، وحتى مع الطبيعة الجبليَّة القاسية لشعوب تلك المنطقة، تبقى عملية زرع عقيدة دموية في شعب كامل عملية شديدة الصعوبة ينمُّ نجاحها عن صبر وتنظيم شديدَين في ممارستها ثم جني ثمارها.

نهاية الكذبة:

ولكن لأن التمادي في الطغيان قد يعكس الآية ويجعل الغضب يبلغ حدًّا يفوق معه الخوف، فقد أدَّت السِّيَاسَة الآشورية في المنطقة إلى اتحاد الدول المغلوبة من آشور والتي عانت من غزاوت ومذابح الجيش الآشوري. فاتحدت ممالك مصر وإِسْرَائيل والأنباط وقَبَائل بني إِسْمَاعيل وثوار بابل وخرجت جيوش هؤلاء تحمل ميراثًا من الثورة والغضب جعلها تجتاح جيوش آشور ولا تتوقف حتى تدخل نينوَى وتدمِّرها تمامًا وتبيد أهلها الذين لم يدركوا الكذبة التي عاشوها إلا في آخر لحظة عندما رأوا قصر ملكهم الأخير يحترق والملك يلقي بنفسه في النيران خوفًا من الأسر.

آتون:

المثال الآخر القويُّ على قدرة البعض على استخدام الدين في تحقيق أهدافه هو ما جرى في مصر خلال عهد إخناتون. فبعد أن تَوَلَّى الحكمَ خلفًا لوالده، فجّر إخناتون ثورةً على عبادة الآلهة المُصْرِيَّة القديمة –بالذات آمون– لصالح إِلهه "آتون" الذي لم يتخذ له رمزًا حيوانيًا أو بشريًّا على غرار المألوف في مصر، بل لخَّص شكله في قرص الشمس. إخناتون لم يكتفِ بمجرد الثورة المعنوية بل تمادى فوقف أيَّ عبادات سوى عبادة إلهه وتَعَمَّد محو أسماء أي آلهة سواه عن جدران المعابد، وأعلنها حربًا دِينيَّة على ما يتعارض مع ما اعتبره "وحي آتون إليه"، فوقف عطايا وهِبَات كهنة آمون وضيّق عليهم وسعى لسلبهم أي نفوذ رسمي أو شعبي ثم قام بتصعيد حربه فنقل عاصمته من طيبة إلى أخيتاتون (تل العمارنة حاليًا).

– الثورة على إخناتون:

كان من الطبيعي أن تثور ثائرة الكهنة لِمَا لحقهم من أذى، فمنذ سنوات عديدة سابقة

كان نفوذهم في تصاعد، أولا لتَرَكُّز العاصمة في طيبة -مركز عبادة آمون- وثانيًا لأن آمون كان خلال حروب تحرير مصر من الهِكْسُوس رمزًا قوميًّا، وأخيرًا لأنه بعد تحرير مصر كان مُحَرِّكًا معنويًّا لجنود الحملات التي أطلقها خلفاء أحْمُس، بالذات تحتمس الثالث، لمد نفوذ مصر في مختلف بقاع الأرض، حتى إن القادة المْصْرِيِّين كانوا يحرصون على تشييد معبد لآمون في كل أرض مفتوحة لتأكيد السيادة المْصْرِيَّة عليها. هنا، ومع الخطر الذي أدرك الكهنة حلوله بقوَّتهم الكاسحة، قرروا اللعب على أخطر وتر في نفس المصْرِيّ: الدين. فأعلنوا صراحةً تكفير إخناتون ودعوا مختلف فئات الشعب للثورة عليه لنصرة آمون.

ورغم أن ثورة الكهنة جاءت في المقام الأول غضبًا للانتقاص ممَّا اعتبروه حقوقهم، أكثر من كونها غضبًا لآمون، فإنها لاقت تأييدًا واسعًا من فئات هامَّة من الشعب والنبلاء. فالعسكريون غضبوا من إعلان إخناتون أن "الشعوب كلها سواسية وإخوة"، وزاد غضبَهم ما ترتب على دعوته من ثورات للشعوب التي حكمتها مصر في سوريا والعراق، وطردهم الحاميات المْصْرِيَّة منها، ممَّا أنذر بانهيار النفوذ المصْرِيّ الذي كان ممتدًّا من إثيوبيا جنوبًا إلى آسيا الصغرى وجزر البحر المتوسط شمالاً. والخبَّازون أغضبهم ما تَرَتَّب على وقف عبادات الآلهة الأخرى من توقف صناعة "خُبز الشعائر" الذي كان يُقَدَّم للآلهة خلال طقوس الصلاة لها. وصُنَّاع تماثيل تلك الآلهة شاركوا الخبَّازين غضبهم بسبب وقفهم عن تشييد التماثيل والجداريات لآلهة مصر ممَّا وقف مورد رزقهم الوحيد. وكذلك الشعراء الذين كانوا يكتبون الصلوات لأجل تلك الآلهة الممنوعة. كل هؤلاء اتَّفقت دوافعهم المادية في هدف واحد: إسقاط حكم إخناتون. فأعلنوا جميعًا تأييدهم لثورة الكهنة واعترفوا بتكفير الملك وتحالفوا مع الفئة المحافظة التي رأت في تصرفات إخناتون هرطقة وخروجًا على الموروث والتقاليد، تلك الفئة الأخيرة كان غضبها حقًّا لآمون عن إيمان حقيقي.. ولكن اتَّفَقت أهدافها مع الذين أرادوا الثورة خوفًا على مصالحهم. فكان الهدف واحدًا والدافع مختلفًا.

وبدأ المتحالفون الحرب النفسيَّة على الملك، فمن إعلان كفره إلى اتهامه بالشذوذ والجنون، ثم تشكيكه في كل مَن حوله والتأثير عليهم واحدًا تلو الآخر لدفعهم إلى تركه يواجه العاصفة وحده.

لم يستطع الملك الشابُّ التماسُك أمام الثورة التي أطاحت بعرشه ورسالته، خصوصًا مع انسحاب مؤيديه من حوله واحدًا تلو الآخر، وكانت الضربة القاصمة له بانسحاب

كل من صديقه المقرب القائد حورمحب، وزوجته وشريكة عرشه نفرتيتي. فالأول انضمّ إلى القادة الثائرين غضبًا لتدهور نفوذ مصر وفقْدَانها مستعمراتها في آسيا، والثانية حسبت أن انسحابها من الحياة الدِّينيَّة والسِّيَاسيَّة قد يخفّف من وطأة الثورة، ولكن في النهاية سقط الملك أمام الغضب العارم، وتم اغتياله في قصره بشكل أحاطه الغموض، ثم القضاء على كل من أيّدوه أو دارت الشكوك حول تأييدهم له. عملية حصاد دامية طالت كل من له يد في ما قام به إخناتون.

– الأوراق المختلطة:

كانت تلك الثورة على الفرعون من أغرب الثورات، فلأول مرة في تاريخ مصر تتفق أهداف أصحاب المصالح (الكهنة، العسكريون، الخبّازون، صُنّاع التماثيل) مع أهداف مَن غَضِبُوا حقًّا لدياناتهم القديمة (المحافظون، عامّة الشعب)، بل ويستخدمون جميعًا نفس الطريقة لإسقاط خصمهم ولإدارة عملية تصفية ضدّ مؤيديه، بينما يدّعي الكل الثورة لهيبة آمون فقط دون أدنى أهداف دنيوية، بشكل يجعل الباحث يَحَارُ في تمييز صاحب المصلحة عن ذلك الثائر حقًّا لعقيدته... إلا أن المتفَق عليه أن الشرارة الأولى اندلعت في مجتمع كهنة آمون الذين راعهم ضرب مصالحهم ونفوذهم، وأنا لولا ذلك ربما لاختلفَت الأمور كثيرًا.

مجرّد مثال:

دولة آشور–ثورة إخناتون: كلتاهما كانت مجرّد مثال على قدرة البعض على تحريك جيوش والإطاحة بملوك وتفجير أنهار من الدم باسم الإله.. ليستا سوى مثالين لأمور جرت في بعض العصور وبعض العهود.. لعبة لم تتوقف منذ بدأت.. بل تطورت وتقدمت قوانينها وطرق ممارستها عبر القرون.

نترك مصر وآشور.. ونتحرك مع تيّار نهر الزمن قرونًا إلى الأمام، إلى حَدَث جلل يترتب عليه قيام معركة طويلة رهيبة يجد فيها الدين نفسه بين أسلحتها.. نذهب إلى أرض فلسطين –تحديدًا بلدة بيت لحم– في صومعة صغيرة متواضعة تتعبد فيها فتاة عذراء صالحة.. النور ينتشر حولها، وتسمع صوتًا يقول: "يا مريم.. إن الله يبشّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم"

مصادر المعلومات:

١- محمد والذين معه: عبد الحميد جودة السحار.

٢- موسوعة مصر القديمة: سليم حسن.

٣- الديانة المْصْرِيَّة القديمة: د/ عبد الحليم نورالدين.

٤- المعبد في الدَّوْلَة الحديثة في مصر الفرعونية: د/ بهاءالدين إبراهيم محمود.

٥- الآلهة والناس في مصر: فرانسواز دونان- كريستيان زافي كوش.

٦- ديانة مصر القديمة: أدولف إرمان.

٧- المجمل في تاريخ مصر: د/ ناصر الأنصاري.

٨- موسوعة الحروب: هيثم هلال.

٩- أطلس التاريخ العَرَبِيّ الإِسْلاَمي: د/ شوقي أبو خليل.

دماء على عتبات الإله - الجزء الثاني

جاء المسيح (عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ) وبمجيئه أخذت المعركة شكلاً جديدًا.. بدأ في أرض فلسطين ثم امتدَّ إلى العالم كله.. جاء المسيح ينادي بالعدل والحق والأمانة وقيم أخرى كثيرةً لم يرَ فيها أعداؤه ملاءَمةً للعصر.. فأعلنوها حربًا شعواء.. ولأنهم لا يستطيعون شن حرب علنية على مبادئَ لا يختلف على صحّتها اثنان فقد كان لا بُدَّ لهم من ستار قويٍّ يستترون به في حربهم.. وكان الدين هو هذا الستار.. فلا صوت يعلو فوق صوت الغضب للإله.

- النبوءة والمذبحة:

الحرب على المسيح بدأت فور ميلاده، فقد دلف على هيرود -ملك اليَهُود- ثلاثة من الكهنة المجوس أخبروه أن ملك اليَهُود الذي تقول النبوءات إنه سيزعزع ملكه قد وُلِدَ. وفورًا أصدر هيرود أمرًا بقتل كل طفل لم يتجاوز العامين في مدينة بيت لحم حيث وُلِدَ المسيح. في ذلك الوقت كان السيد المسيح ينتقل إلى مصر رضيعًا تحمله السيدة مريم العذراء حيث بقيا لفترة من الزمن، حتى مات هيرود وجاء من بعده ابنه أنتيباس هيرود -هيرود الابن- وأصبح الوضع آمنًا للعودة إلى فلسطين.

- تعدُّد الأسباب.. والعداء واحد:

١- ملك الْيَهُود:

في ذلك الوقت، كانت أرض فِلسْطِين تحت الحكم الرُّومَانيّ، وكان هيرود الابن يحكم تحت سلطة قياصرة روما. ورغم أنه يهودي الأب وعَرَبيّ الأم فقد كان من أشدّ المغرقين في تقليد سادته الرُّومَان في نمط الحياة وأسلوب الحكم ممَّا جعله موضع نقمة الْيَهُود الفرّيسيين (السلفيين المتشددين) الذين كانوا ينتظرون قدوم المسيح (مشيحا) المُخَلِّص ليقودهم لحكم الأمم. في تلك الظروف جاءت دعوة المسيح الذي كسب عداء الجميع من اللحظة الأولى. فهيرود وجد فيه النبوءة القديمة التي حاول أبوه القضاء عليها، وكان هيرود قد تَخلَّص لتوه من يحيى بن زكريا (عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) عقابًا له على تصدِّيه لزواجه بامرأة أخيه بينما هذا الأخ على قيد الحياة. كما أنه خشي تحقق النبوءة وثورة الْيَهُود على سادته الرُّومَان ممَّا يضعه في موقف حرج، فلو ساند الْيَهُود لغضب عليه السادة وخلعوه وربما قتلوه، ولو أخمد تلك الثورة فهذا معناه تكفيره وإباحة دمه للشعب، بالتالي لم يكن من حل أمامه -وأمام الطبقة الحاكمة بشكل عامّ- سوى تكذيب المسيح واتهامه بالنصب على الشعب الْيَهُوديّ وادِّعاء النُّبُوّة كذبًا وإعلان أن زمن المشيحا المُخلِّص لم يأت بعد.

٢- الكهنة:

أما كبار الكهنة فقد وجدوا في الدعوة المَسيحيَّة خطرًا على نفوذهم على الْيَهُود وتهديدًا لمصادر دخلهم المتمثلة في قرابين المعابد والأموال المقدَّمة للهيكل الذي كان قد تحول من دار لعبادة الله إلى سوق كبيرة يقف فيها الصيارفة وتمرح فيه البهائم، بمباركة هؤلاء الكهنة الذين كان لهم نصيب في تلك التجارات. كما كانت هيئة الكهنوت تضع لهم في ضمير الشعب موضع الواسطة بين الْيَهُوديّ وربِّه ممَّا خلق لهم سلطة روحية رهيبة جعلت المناصب الكهنوتية موضع منافسة حامية بين أبْنَاء كبريات العائلات.

٣- الْيَهُود الفِرّيسيين:

الفئة الأخيرة التي ناصبت المسيح ودعوته العداء تمثلت في طائفة الْيَهُود الفرّيسيين (السلفيين المتشددين) الذين كانوا ينتظرون منه أن يدعوهم للثورة على حكم الرُّومَان وأن يقودهم للحرب المُقَدَّسة ويقيم فيهم مُلْكًا عظيمًا على غرار أسلافهم القدامى طَالُوت وداوُد وسليمان، فصدمتهم دعوته للسلام و"إعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله"

والصبر حتى يأتي ملكوت السماء، فثاروا عليه وعلى ما جاء به.

أما السبب الذي اتّفق جميع أعداء المسيح على الخوف منه فهو أن يتأثر الرُّومَان بتلك الدعوة الجديدة فيعتنقوها ممّا يؤدي إلى اضطهادهم الْيَهُودَ، كعادة الرُّومَان في سعيهم الدائم لفرض عقيدتهم المركزية على مستعمراتهم.

– الحرب الْمَقَدَّسَة:

كان هذا اتفاقًا للقوى الثلاث (الملك، الكهنة، المتشددين) على معاداة المسيح، رغم أنهم جميعًا كانوا يعلمون أنه المسيح الحقيقي الذي جاء في البشارات. لكنهم أجمعوا على تكفيره وتشويه صورته وإعلان "الحرب الْمَقَدَّسَة" عليه من أجل "نصرة الْيَهُود على ذلك الذي جاء لدس الفتنة بينهم" ورغم العداء المتبادل بين الفئات الثلاث المذكورة اتّحدت إراداتهم وتناسقت جهودهم في تلك الحرب الشعواء التي شنُّوها على المسيح وأتباعه، فمن محاولات لإحراجه أمام الشعب بمجادلات متشابكة إلى الطعن في شرف أمّه السيدة العذراء انْتِهَاءً بتأليب السلطات الرُّومَانيَّة عليه من خلال إيهام الحاكم الرُّومَاني أن المسيح يرغب في إقامة مملكة مستقلّة عن روما وطرد الوجود الرُّومَانيّ بفلسْطين.. ولّما لم يقتنع الحاكم الرُّومَاني بيلاطس بدعواهم هددوه بإبلاغ قيصر عن تقاعسه عن إخماد التَّمَرُّد الذي يهدّد ملكه.. فاضطُرَّ إلى دعمهم بجند الحامية الرُّومَانيَّة، وكانت هذه بداية لاضطهاد امتدَّ إلى ما بعد عهد المسيح (عَلَيْهِالسَّلَامْ)، مارَس فيها الْيَهُود أعتى أنواع التعقُّب والمطاردة والاضطهاد لكل مَسيحي بدعوى حماية دينهم الْيَهُوديّ وشعبهم من الفتنة الكبرى.

– البطش الرُّومَانِيّ:

الرُّومَان –رغم تسامحهم مع عقائد كثيرة– لم يعاملوا الْمَسيحيَّة بالمثل، فأولاً نجح أعداء المسيح من الْيَهُود في إقناع السلطات في روما بفكرة دعوة المَسيح للثورة عليهم، وثانيًا كان الرُّومَان يخشون أن تكون الْمَسيحيَّة بمثابة نشأة لقومية جديدة لا مجرَّد ديانة، كما حدث لليَهُوديَّة على يد كبار أحبار الْيَهُود، ممَّا يجعل السيطرة على الْمَسيحيِّينَ مهمة شاقة، وأخيرًا كانوا يخشون أن يعتنق كبار الشعوب المحكومة الدين الجديد بما فيه من مبادئ تدعو إلى التقشُّف والزُّهد ممَّا يجعلهم غير قابلين للإفساد بالرشوة والعطايا الرُّومَانيَّة المستمرَّة التي كانت تضمن للرومان ولاء الكثير من الزعماء الشعبيين وأتباعهم. قامت إذن الدنيا و لم تقعد، حرب بربرية عاتية الشراسة حمل فيها الْيَهُود شعار حماية الشريعة

الموسوية ورفع فيها الرُّومَان رايات آلهتهم "جوبيتر" و"أبوللو" و"مارس" وغيرها من الآلهة.. بينما يعلم الجميع حقيقة أن الإله الوحيد الذي شُنَّت هذه الحرب باسمه اسمه "المصلحة"!

إذن تلقف الرُّومَان الكرة من الْيَهُود وأعلنوا تجريم اعتناق الْمَسيحيَّة وفرض العبادات اللاتينية بقوة السلاح في محاولة منهم لإظهار الأمر في صورة الحرب الدِّينيَّة.. بينما كان واضحًا لكل عقل مفكر أن ذلك لم يكن عن غيرة الرُّومَان على عقيدة ما، فكل إِمْبرَاطُور كان له معبوده وإلهه، بل كان من الأباطرة مَن أمر بعبادة ذاته كما فعل نيرون الذي امتدَّت يده الباطشة بكل مَسيحي في كل أرض ارتفع عليها النسر الرُّومَانيّ.. ورغم عدم احتياجه كديكتاتور إلى أي مبررات أمام شعبه فقد حَرَص على شنّ حرب دعائية على الديانة الْمَسيحيَّة فاتهم الْمَسيحيِّينَ بممارسة شعائر همجية تتضمن أفعالاً لا تُقرُّها الأخلاق، وعندما فشلت دعايته في تأليب الشعب على الْمَسيحيِّينَ دسَّ رجالاً له أحرقوا مدينة روما وسارع باتهام أتباع الدين الجديد بارتكاب تلك الجريمة ليبدأ بعدها سلسلة من أعمال الإبادة الجماعية لهم سواء بالصَّلْب أو الْحَرْق أو الإلقاء للحيوانات المفترسة في ساحات المصارعة (الآرينا).. وعلى نفس المنهج سار خلفاؤه الأباطرة بالذات دقْلَدْيَانُوس الذي سُمِّيَ عصره بـ"عصر الشهداء"

– مقاومة حتى النصر:

تَحَالُفٌ فرضته المصلحة وقع بين الْيَهُود والرُّومَان ضدَّ الْمَسيحيَّة وأتباعها.. وتجنيد كامل لكل إمكانيات روما من أجل القضاء على الدين الجَديد.. لكن مع ذلك لم تتمكن تلك الجهود المضنية من إفناء الْمَسيحيَّة ولا الْمَسيحيِّينَ الذين استعانوا بالصبر والتحايل على الظروف القاسية التي حاصرتهم.. ومارسوا صورًا من المقاومة السلبية.. كممارسة العبادة والدعوة سرًّا أو تأسيس الأديرة في المناطق النائية صعبة البلوغ.. ولأن الْيَهُود والرُّومَان رغم اتحاد هدفهم لم يكن لهم مبدأ واحد بينما كان للمسيحيين أهداف ومبادئ وأساليب محددة نفذوها تحت إشراف زعاماتهم بدقة شديدة.. فقد كانت النتيجة الطبيعية هي فشل أعداء الْمَسيحيَّة في القضاء عليها بل وتسللها إلى قلب روما ذاتها حتى تحقق النصر أخيرًا بأن اعتنق الإِمْبرَاطُور جستنيان الْمَسيحيَّة منهيًا بذلك سنوات طويلة من المعاناة القاسية للمسيحيين.

الاضطهاد البِيزَنْطِيّ:

بعد صبر امتد زمنًا طويلاً، اعتنق خلاله الرُّومَان المَسِيحيَّة وإنقسمت إمْبرَاطُوريتهم إلى دولتين: شرقية بِيزَنطيَّة عاصمتها القسطنطينية (إستانبول حاليًا)، وغربية عاصمتها روما، أصبحت مصر في نصيب بِيزَنْطَة. ولكن اعتناق الدَّوْلَة الرُّومَانِيَّة الشرقية الدين المَسِيحي لم يكن نهاية للاضطهاد بل أصبح مجرَّد بداية لمرحلة أخرى منه. فالمذهب الذي اعتنقه البِيزَنْطِيُّونَ كان مختلفًا عن ذلك الذي آمن به الأقباط، ممَّا حوّل الحرب من "حرب أديان" إلى "حرب مذاهب" فبدأ عصر شهداء جديد حاول فيه البِيزَنْطِيُّونَ فرض مذهبهم بالقوة على المِصْرِيِين لكي يصبح ولاؤهم فقط للكَنِيسَة البِيزَنْطِيَّة.

الأسباب:

وكما كان الاضطهاد الأول يحمل اسم حماية العقيدة زورًا، كان الاضطهاد الثاني كذلك.. فالحرب البِيزَنْطِيَّة على الكَنِيسَة القِبْطِيَّة لم تكن لها أهداف دينيَّة بقدر ما كان الغرض منها القضاء على الزعامة الشعبية المِصْرِيَّة الممثَّلة في بطريرك الإسكندرية وكبار رجال الدين المَسِيحي المِصْرِيِين، إذ كان البِيزَنْطِيُّونَ يخشون دومًا السطوة الروحية لرجال الدين المِصْرِيِّين على شعب مصر، تلك السطوة التي تكونت وتعاظمت منذ عرفت مصر الأديان القديمة. وكان المحنّكون من رجال السِّيَاسَة في القسطنطينية يعلمون من قراءتهم التاريخ المِصْرِيّ ما عاناه أسلافهم البطالمة من ثورات المِصْرِيِين في الصعيد بقيادة كهنة آمون في طيبة خلال النصف الثاني من العصر البَطْلَمِيّ. ولما كانوا يدركون أن المِصْرِيّ هو المِصْرِيّ سواء كان زعيمه كاهنًا آمونيًّا أو بطريركًا مَسِيحيًّا، فقد رأى هؤلاء الساسة أن وجود كَنِيسَة مصْرِيَّة مستقلَّة هو بداية لإضعاف القبضة البِيزَنْطِيَّة على مصر.

- تكفير.. اضطهاد.. ومقاومة:

تم عقد مجمع دينيّ في مدينة "خلقيدونية" البِيزَنْطِيَّة تَقَرَّر فيه تكفير أتباع الكَنِيسة المِصْرِيَّة وتحريم التعبُّد بمذهبها. ورغم أن المجمع ضم رجال دين مسيحيين مؤمنين بالفعل بمذهبهم فإن استدعاءهم من الملك البِيزَنْطِيّ إنما جاء لجعلهم ستارًا للهدف السِّيَاسِيّ الحقيقي وهو القضاء على بوادر استقلالية مصر.

كان قرار التكفير بمثابة إطلاق ليد السلطات البِيزَنْطِيَّة في ممارسة مخططها للتنكيل بقيادات وأتباع الكَنِيسَة القِبْطِيَّة إلى حين القضاء عليهم تمامًا أو إجبارهم على تغيير مذهبهم.. وكما صَبَرَ المِصْرِيُّونَ أمام البطش الرُّومَانِيّ استمدُّوا من تجربتهم السابقة صبرًا

مضاعَفًا في مواجهة البطش البِيزَنطيّ الذي استهدف كنائسهم وبَطَارِكَتَهم.. فتضاعفت حركة الرهبنة وبناء الأديرة بالذات في صحارى الصعيد والصحراء الغربية، ومُورِست العبادات والصلوات القبْطيَّة سرًّا، بل وأدَّت هذه الظروف إلى امتداد الرفض المِصْرِيّ للبِيزَنْطيّينَ ككلٍّ لا كمذهب فقط، فبدأ كبار المثقفين المِصْريين في تدوين وحفظ التراث المِصْرِيّ ونشأت اللغة القبْطيَّة كأداة لطرد اللغة اللاتينية التي فرضها الروم.. وبلغ تصعيد المَقاومة ذروته عندما مد الأقباط يد العون إلى العرب في فتحهم لمصر بأن بنوا لهم الجسور لعبور قواتهم وتعمدوا إثارة القلاقل في المدن المِصْرِيَّة ليجعلوا الروم بين نارين ويشتتوا جهودهم الحربية.

هكذا انْتهت أحداث فصل طويل من محاربة الدين نفسه باسم الدين! والمذهب باسم المذهب.. لكنها تبقى نهاية مرحلة من اللعبة.. أو مجرَّد فصل من القصة الطويلة التي لا نعرف متى تنتهي...

مصادر المعلومات:

١- البداية والنهاية: ابن كثير.

٢- موسوعة الْيَهُود والْيَهُودِيَّة والصهْيَوْنِيَّة: د/ عبد الوهاب المسيري.

٣- حياة المسيح: عباس محمود العقاد.

٤- محمد والذين معه: عبد الحميد جودة السحار.

٥- الشرق الأدنى في العصرين الهلينستي والرُّومَانِي: د/ أبو اليسر فرح.

٦- تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي: د/ عمر صابر عبد الجليل.

٧- رحلة العائلة المُقَدَّسَة: لوسيت فالنسي.

٨- مجتمع الإسكندرية القديم: د/ محمد السيد عبد الغني.

٩- تاريخ مصر في العصر البِيزَنْطِيّ: د/ صبري أبو الخير سليم.

١٠- مصر في عصر الرُّومَان: د/ الحسين أحمد عبد الله.

دماء على عتبات الإله - الجزء الثالث

الآشوريون.. الفراعنة.. اليَهُود.. الرُّومَان.. البِيزَنْطِيُّونَ.. لم تكُن لعبة الحرب بذريعة الدين حكرًا عليهم.. ولا هي توقفت عندهم.. فالأمر لم يكن يومًا حكرًا على أمّة بعينها.. واللعبة ليس لها من محتكر.. وما يختلف بشأنها من أمة لأمة هو الأسلوب لا أكثر.. أما الفكرة والأصل، فثابتة في كل البشر.

- الفارقليط:

في دولة الفُرس كانت لقصتنا فصول مثيرة، ففي الفترة ما بين مبعث السيد المسيح والرَّسُول محمد (عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) ترددت بشارة المسيح إلى العالم بمبعث نبي ورسول من بعده لقّبه بـ"الفارقليط" أي "المُعَزِّي" وذكر صفاته التي تنطبق على رسول الله محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، كذلك ترددت هذه النبوءة في كتابات "زرادشت" مؤسِّسة عقيدة الفُرس. خلال تلك الفترة ظهر في فارس أكثر من رجل ادَّعى لنفسه تلك النبوَّة ودعا إلى عقيدة جديدة تختلف عن العقيدة الزرادشتية (المجوسية) التي كانت الديانة الرسمية للدولة التي اعتادت سلطاتها التَّصَدِّي لتلك العقائد.. إلا أن أخطرها أثرًا وأكثرها اتصالاً بفكرة تسخير الدين لصالح السِّيَاسَة وتسببًا في إراقة الدماء كانت الدعوة "المزدكية"

- المزدكية:

ظهر رجل اسمه "مزدك بن نامذان" ادَّعى أنه الفارقليط المُنتَظَر ودعا إلى ديانة جديدة لها كتاب مقدس أسماه "الزِّند" (والمؤمن به يُدعَى الزنديق) دعا فيها لبعض الأمور المستقاة

من بعض العقائد الفَارِسيَّة القديمة، لكن ما كان جديدًا بعقيدته تلك دعوته لإلغاء المْلكيَّة الفردية لأن استئثار الإنسان بمال أو أرض أو بيت أو أي ممتلكات هو السبب –على حد قوله– في شيوع الحسد والحقد واعتداء الإنسان على أخيه الإنسان وأن الوضع المثالي هو أن لا يمتلك الفرد سوى قوت يومه بينما يبقى باقي الأشياء على المشاع بين الناس.

الدعوة الجديدة وجدت تأييدًا شديدًا بين فئة كبيرة من عامة الشعب، تحديدًا الفئة المطحونة اجتماعيًّا، فتكاثر أتباع مزدك وعظمت قوتهم وبلغ "قباذ" كِسْرَى الفُرس خبر تعاليم الدين الجديد فاتبعه لا عن اقتناع وإنما عن رغبة في تقليم أظافر كِبار رجال الدين الزرادشتي الذين كانت قوتهم في تعاظم ممَّا جعلهم يتدخلون في أدقِّ شؤون الحكم. اعتناق الملك للمزدكية شجَّع أتباع مزدك على ارتكاب أعتى صور السلب والنهب في حق الأثرياء وأشراف الطبقة الأرستقراطية بِحُجَّة تطبيق شيوعية الممتلكات بالقوة، ولم تسلم النساء من ذلك العدوان، فشيوعية مزدك شملت النساء كما شملت الجمادات والأموال، وزاد الطينَ بلَّةً أن أصدر الملك قوانينَ صارمة تبيح ما فعل المزدكيون، وبلغ قمَّة تأييده لهم أن سلمهم وليَّ عهده "كاووس" ليربُّوه على المبادئ المزدكية.

– تَحَالُفٌ مُضادٌّ:

التحالف بين كسري الراغب في القضاء على سلطة الكهنة ومزدك وأتباعه الراغبين في الخروج من مطحنة الفقر والحاجة واجهه تحالف آخر بين كهنة الزرادشتية وطبقة النبلاء الذين تَضَرَّرُوا ممَّا جرى وخشوا أن تضيع سطوتهم بسبب ذلك الانقلاب الاجتماعي الخطير. كذلك أثارت القوانين الجديدة سَخَطًا بين المتدينين والمحافظين من العامة، خصوصًا تلك المتعلقة بشيوع النساء، في المجتمع الفَارِسيّ المعروف بشدة الغيرة على نسائه. وهال الجميعَ ما وقع من قباذ عندما تَمَرَّد نَصَارَى مدينة "آمد" على قوانينه المزدكية الشيوعية فدهم المَدينَة بجيش جرَّار وأحدث فيها مذبحة مروِّعة وأباح نهبها لجنوده –مخالفًا بذلك تعاليم مزدك المحرِّمة لقتل النفس إلى حدَ النهي عن مجرَّد صيد الحيوان– ودون أدنى اعتراض من المزدكيين على ذلك الخرق للتعاليم نبيهم ما دام ذلك لا يمسُّ أهدافهم الحقيقية في تغيير بنيان المجتمع لصالحهم.

الكهنة والنبلاء قرروا معًا خلع قباذ وسجنه وتولية أخيه "جاماسب"، وبعد أن قام رجال الدين المجوس ببث الدعاية في صفوف المتدينين من الشعب ضِدَّ الملك الزنديق ليضمنوا تأمين جبهتهم الشعبية، نفَّذ المتحالفون مخططهم وقبضوا على قباذ وسجنوه

ولكنه هرب من سجنه وتوجه إلى الصين حيث أمدَّه الخاقان بجيش استعاد به مُلْكَه مجددًا.

- الوجه الآخر:

بعد تفكير، وجد قباذ أن تحالفه مع المزدكيين لم يساعده على إضعاف سلطة الكهنة بل بالعكس أمدهم بالدعم الشعبي وتسبب في تحالفهم مع الطبقة الأرستقراطية التي كانت تتكون من أبنائها أقوى أجنحة الجيش، أعاد كسْرَى حساباته وقرر أن الوقت قد حان للتخلي عن تأييد مزدك ولإصلاح علاقته بالكهنة والنبلاء. فقرر خلع ابنه "كاووس -الذي تَرَبَّى على المزدكية- من ولاية العهد، وتولية ابنه "خسرو" بدلا منه.

ما إن أقدم الملك على تلك الخطوة حتى أدرك المزدكيون أنهم فقدوا تأييد القصر، فتفجرت فيهم ثورة عارمة وألقوا جانبًا مبادئ الحب والإخاء وحرمة النفس وانقضوا على قصور الأشراف مُحْدثِينَ فيها أبشع موجة نهب وسلب يمكن تخيُّلها، واعتدوا على النساء مُظهِرين الوجه الحَقيقي للحقد الطبقي كمحرك لدعواهم المُقَنَّعَة بالدين.

- نهاية المزدكية:

بعد أن أدرك المزدكيون علانية عداء قباذ لهم، حاولوا إعادة ابنه "كاووس" إلى ولاية العهد من خلال دعوتهم الملك والكهنة المجوس ورجال الدين المَسيحي لمناظرة علنية. فوافق الملك مُظهِرًا سعة الصدر والترحيب بالحوار مع الآخر. بدأ مزدك الحوار بالحديث عن أدلَّة صدق نبوَّته وأنه هو الفارقليط الذي جاء في نبوءات زرادشت وبشارة عيسى، وأخذ يذكر تعاليم دينه وأدلَّة صحتها. ثم جاء الدور على كهنة الزرادشتية الذين أخرجوا كتبهم المُقَدَّسَة وأظهروا ما فيها من صفات للفارقليط تتعارض مع ما جاء به مزدك، وأيَّدَهم في ذلك أسقف نَصَارَى فارس وكذلك رجال الفلك والتنجيم، فأفحموا جميعًا مزدك وأتباعه الذين فوجئوا بـ"خسرو" -ولي العهد الجديد- وجنود الحرس الملكي يحاصرونهم ويُحدثون فيهم مذبحة وحشيَّة قُتِلَ فيها مزدك وكلُّ من معه وسط تهليل الشعب ورجال الدين الذين لَقبُّوا خسرو بـ"أنوشروان" أي "الروح الخالدة" وأصبحت كلمة "زنديق" -أي المؤمن بكتاب "الزِّند"- تُستَخدَم لوصف كل من يُحدِث بدعة عَقَديَّة جديدة خارجة عن العقيدة العامة. وانطوت صفحة دامية من قصة تطويع الدين لارتكاب أعتى الأعمال.

الحروب باسم المسيح–حملة أبرهة:

عودةً إلى سيَر الحروب تحت راية الأديان السماوية، في جزيرة العرب هذه المرة، فقد ظهرت تجربة جديدة لادّعاء الغيرة على الدين لتحريك حملة عسكرية كاملة، وكان ذلك على يد أبرهة الأشرم والي نجاشي الحبشة على اليمن. فبعد أن غزا الأحباش المسيحيون اليمن ودمّروا مملكة حمْيَر اليَهُوديَّة، قرر الحليفان –البِيزَنْطيّ والحَبَشيّ– القيام بحملة عسكرية لغزو الجزيرة العَرَبِيَّة كلها لتكون درعًا مَسيحيَّة تقف في وجه النفوذ الفَارِسيّ في المنطقة. لم يكن أي من النجاشي أو قيصر يعبأ بما يعتنقه العرب، لكن كلاً منهما اتّفق مع الآخر أن تنصير الجزيرة من شأنه ربط نَصَارَى الجنوب (الأحباش واليمنيين) بنصارى الشمال (البِيزَنْطيّينَ وقَبَائِل عرب الشام) برباط قومي واحد يقف حائلاً دون تسلل الفرس إلى الجزيرة العَرَبِيَّة الذي تَمَثَّلَ في اعتناق قبيلة "تميم" الديانة المجوسية وانتشار تُجّار الفُرس وجواسيسهم في الأراضي العَرَبِيَّة بالذات منطقة الحجاز.

كذلك كان من شأن السيطرة على الجزيرة العَرَبِيَّة كلها وضع اليد على طرق التجارة بين الشمال والجنوب، وهو الحلم الرُّومَانِيّ القديم الذي ورثته بِيزَنْطَة وعملت على تحقيقه بالتعاون مع الحبشة.

الذريعة:

كانت الخطة الحَبَشيَّة البِيزَنْطيَّة هي أن يتحرك الجيش الحَبَشيّ إلى الشمال حتى يحتلّ مكّة ومحيطها بينما تتحرك القوات الرومية إلى الجنوب ليلتقيا في نقطة محددة.. وبالفعل بدأ أبرهة استعداداته ولكن كانت تنقصه الذريعة للقيام بعمل ضخم كهذا من شأنه تعريضه لمعاداة القَبَائِل العَرَبِيَّة كلها، ومنها قَبَائِل تدين بالمَسيحيَّة يحتاج إلى دعمها المادي والمعنوي.. بالتالي كان لا بُدَّ من إيجاد حُجَّة قوية تضمن تأييد مثل تلك القَبَائِل او على الأقل تحييدها. وسرعان ما أتت الذريعة المنشودة. فأبرهة كان قد بنى في اليمن كَنيسَةً فخمة وأرسل يدعو نَصَارَى العرب للحج إليها. لم تكن تلك مجرَّد كَنيسَة بل كانت رمزًا للنفوذ الحَبَشيّ على جنوب الجزيرة وفخرًا للنصرانية في اليمن. وذات يوم ادَّعى أبرهة أن رجلاً عَرَبِيًّا قعد في كنيسته ودنَّسها، وثار وحلف أن لا شيء يزيل الدنس عن كنيسته سوى هدم كعبة العرب الذين لم يراعوا حرمة بيت الله! كان اختيار الكعبة بالذات لأن مكّة كانت بمثابة العاصمة الروحية لعرب الجزيرة بكل طوائفهم، وكانت لقريش بحكم رعايتها الكعبة قدرة كبيرة على حشد العرب لمقاومة الغزو الحَبَشيّ، بالتالي رأى أبرهة

أن هدم الكعبة وإظهار فشل قريش في حماية حرمها من شأنه إفقادها زعامتها وبالتالي قدرتها على توحيد الصفوف في مواجهة جيشه ممَّا يجعله يواجه قَبائل متفرقة لا جيشًا عَرَبِيًّا موحَّدًا منظَّمًا. كان هذا هو السبب الحقيقي لاستهدافه الكعبة بالذات، لا عن غضب حقيقي لكنيسته كما قال، ولا عن غيرة من حَجّ العرب للكعبة كما تقول بعض الرِّوايات الساذجة.

الهزيمة:

خبر هزيمة جيش أبرهة مذكور في القرآن الكريم، إذ أرسل الله تعالى على الجيش سربًا من طيور الأبابيل دمَّره تمامًا، وعاد الجيش الحَبَشيّ إلى اليمن وقد تَفَشَّى فيه مرض الجدري الذي أصاب أبرهة نفسه وأهلكه فور وصوله إلى اليمن ممَّا جعل قيصر الروم يُحْجِم عن إكمال نصيه من الخطة لصعوبة تنفيذها وحده. وبهذا فقد الأحباش هيبتهم لدى العرب وسرعان ما سقطت دولتهم في اليمن على يد القائد اليمني الْيَهُوديّ سيف بن ذي يزن وحلفائه الفُرس.

كانت تجربة أبرهة نموذجًا لاستخدام الدين لحشد جيش جرَّار من المقاتلين المتحمسين لنصرة دينهم والثأر لكنيستهم، بينما هم في حقيقة الأمر يخرجون لتنفيذ مخطط سياسي بعيد المدى تمَّت صياغته في بلاط الحُكم ومجالس القادة. وكذلك مثل مبرِّر الحملة صورةً للدعاية السِّيَاسيَّة -ذات الصبغة الدِّينيَّة- الموجهة للرأي العام لضمان عدم وجود تحرك مضاد من شأنه إفساد الأهداف الخفيَّة للعمل العسكري.

- مرحلة جديدة:

وكما كان ميلاد المسيح وبعثته وبشارته بـ"الفارقليط" نقطة بداية لمرحلة في لعبة الحرب والدم والدين، كانت الأيام تحمل بداية مرحلة تالية في تلك اللعبة الخطيرة.. مرحلة أكثر خطورة.. كانت بدايتها في يوم من الأيام العشرة الأخيرة من أحد شهور رمضان.. عندما كان رجل أربعينيٌّ وقور يتعبد في غار بأحد جبال مكة.. إذ وجد نورًا يملأ المكان.. وصوتًا مهيبًا يأمره: "اقرأ!".

مصادر المعلومات:

البداية والنهاية: ابن كثير.

٢- المدخل في تاريخ الأديان. سعيد مراد.

٣- الفرق والجماعات الدِّينيَّة: د/ سعيد مراد.

٤- تاريخ الشعوب الإِسْلاَمِيَّة: كارل بروكلمان.

٥- المِلَل والنِّحَل: الشهرستاني.

٦- محمد والذين معه: عبد الحميد جودة السحار.

٧- موسوعة تاريخ العرب: عبدعون الروضان.

٨- جزيرة العرب قبل الإِسْلاَم: برهان الدين دلّو.

٩- تاريخ قريش: د/ حسين مؤنس.

١- أطلس التاريخ العَرَبِيّ الإِسْلاَمي: د/ شوقي أبو خليل.

١١- تاريخ العرب القديم: د/ توفيق برّو.

دماء على عتبات الإله - الجزء الرابع

الوحي ينزل والرسالة تظهر.. تتلقاها قريش أولاً -ولفترة قصيرة- بحذر وعدم اعتراض.. ولكن سرعان ما تنتفض وتثور كمن قرصه ثعبان سامٌّ. تبدأ حرب جديدة من القتل والتعذيب والتآمر والنِّيَّات السوداء.. تقول الاتهامات: "ساحر! كذاب! كاهن! مجنون!"، وتتردد في جنبات مكّة ومحيطها نداءات تمجيد "اللات والعُزّى وهُبَل ومناة..."، والحقيقة أن قلة فقط هي التي عناها أمر آلهتها الشُّمّ العوالي.. بينما المعظم تشغله أمور أخرى هي التي أثارت غضبه!

- الوجه القبيح:

أسفرت غضبة قريش من دعوة الرَّسُول (عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ) عن وجه قبيح للغضب، إذ تحول "الصَّادق الأمين" إلى "الكذاب المجنون الصابئ" واتُّهِم في عقله وشرفه وشُنَّت عليه حرب مادية ومعنوية عاتية. كان السبب المُعلَن عن غضب قريش عليه هو أنه "سب آلهتهم وسفّه أحلامهم وعاب ما كان يعبد آباؤهم" كان هذا بالفعل المحرِّك لغضب قلة من ذوي المبادئ والقيم مثل "عمر بن الخطاب" و"سهيل بن عمرو" و"عمرو بن العاص" و"خالد بن الوليد" والدليل أن كل هؤلاء أسلموا بعد أن تبين لهم الحقُّ، وبعد أن كانوا ألدَّ أعداء الدين صاروا لسانه وسيفه ودرعه. أما الأغلبية العظمى فحرَّكتها أسبابها المادية أو المعنوية.

- نزاع على الشرف:

كان الشرف هو المغذي الأول لعداء بعض أبناء العائلات القُرَشيّة، بالذات بني أمية وبني مخزوم وبني سهم، فسياسة تقسيم سلطات مكة ومهامّها بين العائلات خلقت نوعًا من المنافسة بينها بدت أوجهها بشكل يومي في ما يتعلق بالتجارة وإقامة الولائم للضيف والتباري في الشعر والفروسية وإغاثة الملهوف، إذ كانت هذه -وما زالت- من أهم مكونات الشرف العَرَبِيّ.

بنو أمية (عشيرة أبي سُفْيَان بن حرب) بالذات كانت لهم سابقة مشهورة في منافسة بني هاشم على الشرف، إذ كانا أبناء عمومة مباشرة وكانت المنافسة بينهما على العُلُوّ والسُّمُوّ على سائر قريش في الكرم والجود والضيافة هي الأكثر سخونة حتى كانت واقعة تحكيم أحد الكهان بين جدّيهما حرب وهاشم في الشرف والمكارم وقضائه بتفوق هاشم، لا تزال عالقة بالأذهان. وبنو سهم (عشيرة العاص بن وائل وابْنه عمرو بن العاص) كانوا معروفين بالمباهاة بكثرة أشرافهم وفرسانهم وحكمائهم -وهو ما يُسَمَّى "التكاثر"- حتى إنهم كانوا إذا انتهوا من المباهاة بالأحياء زاروا المقابر للمباهاة بالأموات، ففيهم قال الله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾. أما بنو مخزوم (عشيرة أبي جهل) فقد عبَّر هذا الأخير عن موقفها عندما قال: "تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسَي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نسمع به أبدا ولا نصدقه"، وهو الوحيد الذي واتته الشجاعة الأدبية للاعتراف بسبب عداوته لنبي الإِسْلاَم.

الجانب الآخر المتعلق بالغضب للشرف والكرامة دعمته نساء قريش من ذوات الشخصيّة القوية والسطوة العاتية والطموحات العالية. فهند بنت عتبة -زوجة أبي سُفْيَان وأم مُعَاوِيَة- كانت تقول إذا تنبأ لها أحد أن مُعَاوِيَة يملك قريشًا: "ثكلته أمُّه إن لم يملك غير قريش!" وأسماء بنت مخربة -أم أبي جهل- كانت تُعدُّ ابْنها من البداية ليتسيد قريشًا والعرب حتى إنه دخل دار الندوة في سن الرابعة عشرة بينما لم يكن يدخلها من الرجال إلا من بلغ الأربعين. وأم جميل -زوجة أبي لهب وأخت أبي سُفْيَان- كانت تخشى على سلطة زوجها وأخيها. وغيرهن من النساء كن يتأملن في أبنائهن علامات السيادة المستقبلية، وظهور دعوة الرَّسُول (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) كان يهدد آمالهن إذ إن

نبوته تعني بطبيعة الحال نزعُمه لقريش والعرب جميعًا. بالتالي كُنَّ جميعًا من البداية قد عقدن العزم على استخدام "كيدهن" لمحاربة الدين الجديد (هند بنت عتبة وأسماء بنت مخربة أسلمتا بعد فتح مكّة وحَسُنَ إِسْلاَمهما).

– المال والتجارة:

هذان كانا أقوى محرِّكَين لطاقة العداء الهائلة الموجهة إلى الدعوة الإِسْلاَميَّة، فنسبة كبيرة من مصادر دخل مكّة –وساداتها بالتبعية– كان مهدَّدًا بالانقطاع الكلي، كالدِّعَارَة وقرابين الأصنام والرِّبا، أو بالانقطاع الجزئي، كالخمر والميسر اللذين لم يُحَرَّما تمامًا إلا بعد الهجرة إلى المدينَة.

١– الدِّعَارَة:

فجزء كبير من تجارة سادات مكّة كان يعتمد على الدِّعَارَة (خيام صاحبات الرايات الحُمر) فكان لبعض التُّجّار الأثرياء أعداد كبيرة من الجواري الروميات والحَبَشيَّات والفَارِسيّات يقمن بممارسة الزنا بمقابل ليعُدن إلى ساداتهن بالأموال الكثيرة. وكان الفقير إذا استدان و لم يُوفِ بدينه يسلم إحدى بناته أو أبنائه للدائن، فتصبح الفتاة جارية –غالبًا في خيام الدِّعَارَة– أو يصبح الفتى عبدًا يمارس الأعمال الشاقّة لسيده. ولمّا كان الإِسْلاَم يحارب تلك الممارسات اللا إِنْسَانيَّة فقد كان من الطبيعي أن يحاربه أصحاب تلك الأعمال الشائنة.

٢– الآلهة:

وقرابين الأصنام كانت مصدرًا لكسب القائمين على خدمتها، فكان لكل صنم خادمه (السادن) الذي يقوم على تنظيم عبادة الصنم وتلقّي الهِبَات المالية له وضرب القداح (سهمان مكتوب بأحدهما "افعل" والآخر "لاتفعل" يقترع عليهما الراغب في استشارة الإله). كل تلك الأعمال كانت تمثل للسَّدَنة مصدر دخولهم وثرائهم، بالذات في مواسم الحج والأسواق حيث يكثر الحُجّاج الذين يتقربون إلى الآلهة أو قبيل خروج القوافل حيث يحرص التُّجّار على تقريب القربان للإله وضرب القداح قبل السفر. لم يكن السدنة فقط هم المستفيدين من عبادة الأصنام، فصناعة الصنم وتجارته كانت من أهم الأنشطة الاقتصَاديَّة في مكّة، والمكيُّون كانوا شعبًا متدينًا يحرص أحدهم على أن يكون له صنم في منزله وراحلته ودار تجارته. وتجار البخور والعطور وأثواب الحرير كان

جزء من تجارتهم ينصب على عمليات تكريم الآلهة بتطييبها ودوام إشعال البخور عندها وكسوتها، فكانت تلك السلع الثلاث بالذات من أهم واردات مكة من الهند واليمن وفارس ومصر وكانت رؤوس أموالها بالملايين. فجاء الإسْلاَم ليحارب كل هذا، بالتالي انضمّ كل من له عَلاَقة بالآلهة القُرَشِيَّة، سواء صانع أو بائع أو سادن أو تاجر، إلى صفوف أعداء الإِسْلاَم وفكرة التوحيد.

٣- الرِّبا:

أما الرِّبَا فقد كان أعقد تلك النشاطات وأكثرها تغلغلاً في مكّة بل والجزيرة كلها. فكل من كان يمارسه كانت له شبكة من العلاقات والمدينين داخل وخارج مكة، وكان عمله يعتمد على الاتصال بهؤلاء في فترات الحاجة المالية -كأيام نقص الثمار أو قبيل خروج القوافل التي يتاجرون بها- ثم يقوم بإقراضهم بفوائد عادة ما تكون فاحشة، تتضاعف مع تأخرهم عن وقت السداد. تلك الفوائد كان يستخدمها في مضاعفة المبالغ التي يُقرِضها بعد ذلك لمدينيه ممَّا يضاعف بالتالي فوائده عنها.. وهكذا كانت ثروته تتضاعف دون أدنى مجهود. كان هذ النشاط عاديًّا بالنسبة إلى كل من الدائن المرابي والمدين، وكان معترَفًا به في سائر الجزيرة العَرَبِيَّة بمبدأ "إنما البيع مثل الرِّبَا" ولكن الإِسْلاَم حرّمه بصرامة لما فيه من ظلم فادح متمثل في استغلال حاجة المدين ووضعه في دائرة مغلقة من المديونية فهو يستدين من دائن ثم يستدين من آخر ليردّ فوائد الأول وهكذا إلى ما لا نهاية.. كما أنه يؤدي إلى عملية إساءة فادحة لتوزيع الثروات إذ إن مَن يستدين عادة يتاجر بما استدانه ولكنه يستمرُّ في خسارة دائمة، أمَّا الدائن فإنه لا يمارس أي نشاط اقْتِصَاديّ لصالح المجتمع، بينما تتضاعف ثروته.. وهذا مُنَافٍ للعدل.

مكافحة الإِسْلاَم للرِّبَا خلقت عداوة له بحجم مجموعة شبكات المرابين في مكّة وخارجها... إذ اعتبره المرابون ضربة موجَّهة إلى مصدر رزقهم بينما اعتبره باقي التُّجَّار تهديدًا للنظام الاقْتِصَاديّ المَكيّ والحجازي بشكل عام.. فقد خشوا أن يؤدي انهيار النظام الربوي إلى خلل في قيمة المال ممَّا يهدِّد تجاراتهم المختلفة، كما أن المرابين كانوا يشاركون أحيانًا في تمويل قوافل قريش لليمن والشام، بالتالي فإن خسارتهم المالية تهدد رؤوس أموال تلك القوافل بسقوط فادح. وبهذا انضمّ طابور جديد إلى جيش أعداء الدعوة الإِسْلاَمِيَّة الجديدة.

- الأسباب الاجْتمَاعيَّة:

ما لاحظه كبار قريش أن الدين الجديد بدأ يضمُّ ثلاث فئات من الناس: الفئة الأولى- وهي الكبرى- كانت الفقراء والعبيد ومن ليست لهم عصبية تحميهم من أهل مكة. إذ جذبتهم فكرة أن ينتموا إلى جَمَاعَة بشرية يتساوون فيها مع غيرهم ويتحول معيار الأفضلية والشرف من المال والنسب إلى العمل الإيجابي لصالح المجتمع. كما وجدوا في الوعد بالجنة في الحياة الآخرة عزاءً ساعدهم على تحمُّل قسوة الحياة في مكة التي كانت تطحنهم رحاها كل يوم. الفئة الثانية كانت الشباب من كل عشيرة، كسعد بن أبي وقاص (بنو زهرة) وعُثْمَان بن عَفَّان (بنو أمية) وعليّ بْن أبي طالب (بنو هاشم). هؤلاء الشباب كانوا مهمَّشين في عائلاتهم، فصحيح أنهم كانوا يعيشون في عز ونعمة، وأنهم كانوا يُعَدُّون لسيادة عشائرهم، ولكنهم كانوا محبوسين في ظلال كبار مشايخ أسرهم، لا يخالفون لهم أمرًا ولا يخرجون عن الموروث التقليدي الراسخ وليس لهم أن تكون لهم رؤيتهم الخاصَّة في الحياة. انجذب هؤلاء الشباب بأرواحهم المتمردة إلى الدين الجديد بما فيه من دعوة إلى كسر قيود العقل والتمسُّك المتحجِّر بالسلف وبما "وُجِدَ عليه الآباء" ومبدأ "كبار السن دائمًا على حقٍّ" الذي كان يسود حياة العرب قديمًا (وحديثًا للأسف). آخر تلك الفئات كانت النساء. وكُنَّ يتعرضن لأعتى أنواع الظلم، فكانت الأنثى دائمًا متهمة أنها ستجلب العار يومًا لأبيها، ممَّا جعل الوأد عادة منتشرة بين جُهَّال العرب، وكانت تُحْرَم من ميراثها فلا يرث إلا ذكَر لقولهم: "كيف يرث من لا يضرب بالسيف ولا يركب الفرس؟!"، بل كانت هي نفسها محلا للميراث إذا مات زوجها وكان له أَبْنَاء ذكور من وجة أخرى، جاء أكبرهم وألقى ثوبه عليها علامة على أنها صارت زوجة له. بل كان شرفها إذا سافر زوجها مرهونًا بعادة جاهلية هي "الرتم"، وهو أن يربط الرجل خيطًا ويعقده فوق فرع شجرة قبل سفره، فإن عاد ووجده محلولا فهي علامة أن زوجته قد زنت، ولنا أن نتخيل ما كان يحدث عندما كان بعض العابثين يحلُّون تلك الخيوط على سبيل العبث الضارِّ! لم تكن من بين النساء من تجد لنفسها مكانًا محترمًا في المجتمع سوى من كان أهلها ذوي ثقافة وعلم وكانت هي ذات شخصيَّة وقوة، كأم المؤمنين خديجة بنت خويلد، أو هند بنت عتبة رَضِي اللهُ عَنْهَا، أو غيرهما من نساء الأشراف. فلما وجدن -نساء مكَّة- أن لديهن فرصة للانضمام إلى دين تتساوى فيه المرأة مع الرجل وترث ولا يُعتَدَى على حقها، وتُسمَع إن شكت ويُقتَص لها إن أضيرت، سارعت أعداد كبيرة منهم إلى اعتناق الإِسْلاَم.

دخول تلك الفئات الثلاث في رحاب الدين الجديد مثّل لقريش تهديدًا اجتماعيًا بتغيُّر البنية الاجْتماعيَّة والسكانية لها، إذ إن خروج أعداد كبيرة من تلك الفئات من محيط المجتمع القُرَشِيّ التقليدي الجامد إلى مجتمع جديد يتكوّن داخل مكة كان من شأنه -حقًا- إحداث هزة في أسفل هرم المجتمع المَكيّ من شأنها زلزلة أعلاه وتهديده بالانهيار. وكان الأمر واضحًا: "من لن ينضمَّ إلى حركة التغيير الجديدة، سيجد نفسه قد أصبح أسفل سافلين بفعل ذلك الحراك الاجتماعي الكبير بالتالي وجد أرباب الحفاظ على الثوابت الجامدة، سواء بفعل إيمانهم بصحتها أو لخوفهم على مكاناتهم المادية والاجْتمَاعيَّة، أنفسَهم مُلزَمين أن يحاربوا دعوة الإِسْلاَم.

في ظلِّ تلك الظروف نشأ بين بطون قريش، رغم الخلافات السائدة بينها، دافع واحد لمحاربة الإِسْلاَم والمُسْلمينَ.. ومن هنا.. بدأ العداء واشتعلت الحرب الدامية المريرة...

مصادر المعلومات:

١- البداية والنهاية: ابن كثير.
٢- محمد والذين معه: عبد الحميد جودة السحار.
٣- عمرو بن العاص: عباس محمود العقاد.
٤- تاريخ قريش: د/ حسين مؤنس.
٥- عبقرية محمد: عباس محمود العقاد.
٦- موسوعة تاريخ العرب: عبدعون الروضان.
٧- فجر الإِسْلاَم: أحمد أمين.
٨- تاريخ الشعوب الإِسْلاَمِيَّة: كارل بروكلمان.
٩- جزيرة العرب قبل الإِسْلاَم: برهان الدين دلّو.
١٠- محمد نبي لزماننا: كارين أرمسترونج.
١١- محمد رسول الحرية: عبد الرحمن الشرقاوي.
١٢- موسوعة عظماء حول الرَّسُول: خالد عبد الرحمن العَك.
١٣- رجال حول الرَّسُول: خالد محمد خالد.

دماء على عتبات الإله – الجزء الخامس

حرب ضروس.. تكذيب وتعذيب ومؤامرات تفننت قريش في نسجها للقضاء على الدعوة الجديدة. وشراسة عصبية متوترة كشفت للجميع حقيقة أن السادة الذين يدّعون الثورة لآلهتهم هُبَل ومَنَاة واللاّت والعُزَّى إنما يثورون لإلهين اثنين هما المال والنفوذ.. وهكذا، انضمَّ الكافرون من قريش إلى القائمة الطويلة لمن رفعوا راية نصرة الإله زورًا وبهتانًا.

في البداية لم تلتفت قريش إلى خطورة الدعوة الجديدة على مصالحها، حتى بدأ بعض أصحاب النظر البعيد كأبي جهل وأُمَيَّة بن خلف وأبيو سُفْيَان بن حرب يشعرون بالخطر الذي يهدد ثبات المجتمع المَكيّ. فالأول خشي على تفوق عشيرته في منافستها لبني هاشم، والثاني استشعر خطورة انتشار الدين الجديد بين صفوف العبيد، أما الأخير فقد رأى بعيني خياله انقسام وحدة الصف القُرَشِيّ. هم وغيرهم من سادات قريش رأوا وأدركوا عظَم شأن وأثر الدعوة المحمدية فتعددت أسباب ثورتهم واتّحَدَت جهودهم، وقلّة منهم من كان يعنيها شأن الآلهة!

مجرَّد التأخُّر في التفاعل مع الدعوة الجديدة يفضح الحقيقة، فلو كانت المسألة مسألة دين وآلهة لسارعت قريش إلى التعامل الجِدِّيّ مع الدعوة الإِسْلاَمِيَّة، أما وقد توقف التحرك على "إدراك" تهديد الدين الجديد للمصالح، فلا مجال هنا للحديث عن الغضب الحقيقي للإله.

والمراحل المتعددة من حربهم على الإِسْلاَم تشي بالأغراض الحقيقية لها، ففي كل مرحلة كان يصدر عن قريش ما يفضح مكنون صدره.

– تصنيف الدين الجديد:

فور شعورهم بجدية التهديد على سطوتهم ومصالحهم، اجتمع سادة قريش وحاولوا وضع تصنيف لذلك الخطر الذي يواجهونه. كانت تخيلاتهم منصبّة في الأساس على القرآن باعتباره المصدر الأساسي لتعاليم وتحركات الدين الجديد. دارت رحى المناقشات بينهم وتبادلوا النظر والرأي لكنهم مع ذلك لم يتوصلوا إلى رأي موحد، فمنهم من قال إنه من سجع الكهان وطلاسمهم وبالتالي فمحمد كاهن جديد من الكهنة الذين ينتشرون بطول وعرض الجزيرة، ومنهم من أصرّ أنه هلوسة رجل مجنون لكن بدا ضعف هذا الرأي في إجماع الكل على سلامة عقل محمد وحكمة أفعاله، كذلك استبعدوا فكرة الكذب إذ إنها تتطلب من الأساس أن يكون عالمًا بالقراءة والكتابة فضلاً عن أنهم لم يعهدوا منه كذبًا بل كان ملقّبًا بـ"الصّادق الأمين" بقي إذن اتهامه بالسحر، وحتى هذه التهمة وجدت ما يفنّدها.. جهدٌ كبير ذهب أدراج الرياح فاضحًا حقيقة الدافع وراءه، فلو كان لقريش مبدأ واحد لاتّحدَت رؤيتها لذلك الدين وبالتالي لخرجت بتصنيف مفهوم ثابت له.. إذن فالحقيقة واضحة: سادة قريش ليسوا متحدين على مبدأ الغضب لآلهتهم وإلا لاتّحدوا في معرفة حقيقة الخطر المهدد لتلك الآلهة!

– الترهيب والترغيب:

انتقلت قريش إذن إلى حجة العاجز: البطش.. فأخذت كل عشيرة من آمنوا من أبنائها وعبيدها ومن يعيشون في حمايتها وقامت بصب أنواع العذاب عليهم لردّهم عمّا اعتنقوا. ومرة جديدة ينفضح أمر الباطشين بالمؤمنين الجدد، فقد تعددت مطالبهم من المؤمنين المُعَذّبين ليُرفَع عنهم العذاب، فمن سيد طلب من عبده أن يسبَّ محمدًا، مُظهرًا بذلك الحقدَ الشخصيَّ كدافع لما يفعل، إلى آخرين يأمر كل منهم مُعَذّبَه أن يسبّح بذكر إله مختلف عن الآخر، فضلاً عمّن لم يعنهم سوى ارتداد أبنائهم وعبيدهم عن الإِسْلاَم وليعتنقوا ما اعتنقوا سواه فهذا لا يهمّ! كذلك تغلّبت العَصَبِيّة القَبَلِيّة لبعض العائلات، كبني هاشم، على العصبية الدّينيّة، فتراخت في تأديب أبنائها أو امتنعت عنه تمامًا، ممّا يعلن بوضوح الموضع الحقيقي لآلهة قريش من هذا الصراع.

والتصرف التالي المتمثل في ترغيب النبي (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) بتقديم الإغراءات المادية

والمعنوية إليه، يمثل جانبًا أساسيًّا من التعامل النفعي لقريش مع أزمة الدين الجديد. فقد قدم السادة للرَّسُول عروضا مادية تضمنت جمع الأموال له وتنصيبه ملكًا على مكّة وتزويجه أشرف نساء قريش، وكذلك عروضا معنوية بأن عرضوا عليه أن يشاركوه عبادة إلهه واعتناق دينه مقابل أن يعبد آلهتهم ويعتنق دينهم، وبلغ عرضهم مرحلة أن قالوا له: "اعبد آلهتنا شهرًا نعبد إلهك عامًا" خطورة تلك العروض وحجمها يبيِّنان مقدار جزع قريش من دعوة الإِسْلاَم وكذلك استعدادها لتقديم أكبر التنازلات الدِّينيَّة مقابل الحد من خطر تلك الدعوة. أي أن التنازلات تضمنت آلهة قريش نفسها. وقد بلغ التنازل مداه حين عرض السادة أن يعتنقوا الإِسْلاَم شريطة أن يطرد الرَّسُول الضعفاء والفقراء من أتباعه، أي أن سادة مكّة أعلنوها صريحة: لا يعنينا أيّ إله نعبد وأيَ دين نعتنق ما بقي لنا نظامنا القديم!

— المقاطعة:

دخل الصراع مرحلة جديدة، فيأس رؤوس الكُفَّار من جدوى الترغيب والترهيب، وسخطهم على ثبات الهاشميين –مؤمنهم وكافرهم– على قرارهم الدفاع عن الرَّسُول وأتباعه، جعلا سادات مكّة يقررون إبرام وثيقة بين كل العائلات المكيَّة تنص على مقاطعة بني هاشم والمُسْلمينَ جميعًا اقْتِصَاديًّا واجتماعيًّا.

نصوص تلك الوثيقة جاءت بمثابة فضيحة صارخة للأغراض الدفينة. فالنص على محاربة المؤمنين والهاشميين ماليًّا كان إعلانًا عن الهدف الحقيقي لكبار التُّجَّار القُرَشيِّين أن يضربوا تجارة منافسيهم الهاشميين كأبي طالب والعباس والمُسْلمينَ كعُثْمَان بْن عَفَّان وعبد الرحمن بن عوف وأبي بكر الصديق، بِحُجَّة معاقبتهم على خروجهم على النظام العامّ. في حين أن الحقيقة أنها كانت فرصة سانحة للقضاء على المنافسين. فأبو طالب كان من كبار تجار البخور وكانت منافسته الأولى أسماء بنت مخربة (أم أبي جهل)، والعباس كانت له شبكة قوية من المعاملات الربوية وكان منافسًا للوليد بن المغيرة، والتجار المُسْلمُون كانوا قد بدؤوا في كسب أرضية تجارية ثابتة لابتعادهم عن الرِّبَا والتزامهم الأمانة الشديدة، وهذا من ما يهدِّد كبار التُّجَّار في مكّة. أما عن الجانب الاجتماعي في المعاهدة والممثل في الامتناع عن الزواج من الهاشميين والمُسْلمينَ فقد جاء لضرب المكانة الاجْتِمَاعيَّة الهاشمية التي كانت العليا بين العرب، ولتفكيك شبكة العلاقات –بالذات الزوجية– التي بدأ أجداد الهاشميين في بنائها منذ زمن بعيد وكانت تضيف إلى بني هاشم قوة وسطوة وعصبية غير عادية.

تلك الأهداف الحقيقية من الوثيقة كانت معلومة للجميع مما أسهم في تَكَوُّن تحالف من بعض السادة الشرفاء –رغم كفرهم– الذين رفضوا استغلال الدين بهذا الشكل الدنيء فسعوا لنقض الصحيفة، وتزامن هذا مع إرسال الله تعالى الأرضة (حشرة آكلة للورق والخشب) عليها فلحست ما فيها عدا اسم الله.

ما بعد الهجرة:

الفشل القُرَشِيّ المتكرر في القضاء على الدين الجديد تُوِّجَ بمؤامرة فاشلة لاغتيال الرَّسُول (عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ) نجاه الله تعالى منها وساعده في الهجرة إلى يَثْرِب حيث كان أصحابه ينتظرونه، وقد مهدوا لقدومه بنشر دعوته في الْمَدِينَة حتى آمن معظم أهلها.

هنا دخل الصراع القُرَشِيّ الإِسْلَامي مرحلة أكثر خطورة، حيث أدركت قريشًا أن الإِسْلَام بدأ يكوّن دولته، فاستنفرت قوتها وجيشها وخرجت لتصطدم بالْمُسْلمينَ في ثلاث معارك ضارية: الأولى منها كانت بغرض حماية طريق التجارة الذي هدده الْمُسْلمُون، والتاليتان كانتا بغرض غزو الْمَدِينَة والقضاء على عاصمة الدَّوْلَة الناشئة الجديدة.

تلك المرحلة أعلنت عن نفسها بوضوح كامتداد للحرب التي بدأت في مكَّة، فالقُرَشِيُّون كانوا يعلمون أن من يسيطر على الْمَدِينَة يسيطر على تجارة الحجاز كله، أولاً لموقع الْمَدِينَة من طرق التجارة المختلفة، وثانيًا لطبيعتها المحصنة حيث تكثر الحصون والأسوار، وأخيرًا لأن التُّجَّار الْمُسْلمُون بدؤوا في إنشاء سوق جديدة على أسس إِسْلَامِيَّة بدأت تجذب إليها التُّجَّار الذين وجدوا تجارة عادلة لا مكان فيها للظلم الفادح المنتشر بمَكَّة. الأمر الأكثر خطورة هو أن سيد اليمامة (في اليمن) اعتنق الدين الجديد، وكانت اليمامة هي المصدر الأول للحبوب والغلال لمَكَّة، مما جعل الْمَكِّيِّين يشعرون أنهم محاصَرون بين مطرقة وسندان، مما دفعهم إلى شن حروبهم المتتالية على الْمَدِينَة في محاولة لإسقاط النظام الإِسْلَامي بها، سواء بشكل مباشر متمثل في الغزو العسكري أو بشكل سرِّيّ تمثل في التآمر مع المنافقين والْيَهُود. ولكن كل تلك الجهود ذهبت هباءً، وكان لاهتزاز الإيمان بالمبدأ بين صفوف القُرَشِيِّين الدور الأكبر في هذا، بعد تأييد الله عزَّ وجلَّ.

– ما بعد الحديبية:

في العام التالي لصلح الحديبية، ووفقًا للاتفاقية بين الْمُسْلمينَ والكُفَّار، ذهب الرَّسُول (عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ) مع عدد كبير من أصحابه ليزوروا مكَّةَ معتمرين. دخول الْمُسْلمينَ

مكّة مُحْرِمين خاشعين وطوافهم بالكعبة وقيامهم بمناسك العمرة جاء بمثابة ردّ قويّ على الدعاية القُرَشِيَّة السابقة بأن محمدًا وأتباعه يقللون من شأن البيت الحرام والمناسك المُقَدَّسة.. تلك العمرة لم تكُن فقط أداءً لعبادة دينيَّة بقدر ما كانت إعلانًا عن الموقف الصحيح للإِسْلاَم من البيت الحرام الذي تتعلق به قلوب كل العرب. الصلح كله كان نصرًا سياسيًّا ودعائيًّا للمُسْلمينَ، فانحسار سحابة غبار الحرب أتاح لأعيُن من ضللتهم دعاية أعداء الإِسْلاَم أن تقترب منه وتعرف حقيقته وتألف تعاليمه، ممَّا أدَّى إلى ازدياد المؤمنين بشكل ملحوظ. كذلك كانت فترة الهدنة بين الطرفين المتحاربين بمثابة فرصة للمُسْلمينَ للتفرُّغ لحل مشكلات مجتمعهم الجديد والقضاء على تهديدات قَبَائِل الأعراب واليَهُود دون أن يخشوا هجمة غادرة من قريش. كذلك نتج عن ذلك الصلح دخول عدد من سادات قريش في الإِسْلاَم، كعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن أبي طلحة.

– الفتح ومابعده:

لم تطُل أيام الصلح، إذ غدر بعض سادة قريش بقبيلة خزاعة المحالفة للمُسْلمينَ، وكان هذا بمثابة إعلان للحرب. فخرج النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في جيش من عشرة آلاف مسلم من مختلف القَبَائِل وتوجه إلى مَكة حيث فتحها وطمَّ أصنامها مُسْقطًا نظام الحكم القُرَشِيّ القديم. وبلغ نصره السِّيَاسِيّ ذروته بالتزامه مبادئ التسامح والعفو التي نَصَّ عليها الإِسْلاَم، ومعاملته أعداءه القُدَامَى بكرم أخلاق ونبل نادر كسر الحاجز النفسي الأخير بين الإِسْلاَم والمترددين في اعتناقه فدخله الناس أفواجًا.

سهولة فتح مكّة وانكسار المقاومة القُرَشِيَّة الهزيلة أمامه كانا بمثابة إعلان لضعف موقف الكافرين، فالعَرَبِيُّ حين يؤمن بموقفه كان يقاوم حتى النهاية، بينما جاء استسلام القُرَشِيّين للأمر الواقع سهلاً بشكل لا يتناسب مع أناس غاضبين لآلهتهم الشُّمّ العوالي.

ثم كانت الضربة الأخيرة التي مزَّقت قناع ادِّعاء التعصُّب لآلهة قريش حين خرج من مكّة جيش كبير ضمَّ كثيرًا ممّن لم يؤمنوا بعدُ بالإِسْلاَم، لمواجهة قبيلة ثقيف وحلفائها الذين كانوا قد حشدوا قواتهم لغزو مكة. كان خروج هذه المجموعة من الكُفَّار مع الجيش المسلم لقتال أناس على دين هؤلاء الكُفَّار إظهارًا قويًّا لأسبقية العصبية القَبَلِيَّة والنفعية على الدافع الدِّينِيّ لكلٍ هؤلاء الذين خرجوا في جيش المُسْلمينَ! وكان انكشافهم أمام أنفسهم دافعًا لهم ليُسَلِّموا لأنفسهم أنهم كانوا على خطأ، وليدخلوا في الإِسْلاَم عن اقتناع تامٍّ.

هكذا كانت تلك المرحلة أخطر من كل ما سبقها على مر التاريخ في ادّعاء الحرب لنصرة آلهة وهمية.. و لم تكن المراحل التالية لها كسابقتها.. بل أكثر خطورة وشراسة...

مصادر المعلومات:

١- البداية والنهاية: ابن كثير.
٢- محمد والذين معه: عبد الحميد جودة السحار.
٣- تاريخ الشعوب الإِسْلاَمِيَّة: كارل بروكلمان.
٤- أطلس التاريخ العَرَبِيّ الإِسْلاَمي: د/ شوقي أبو خليل.
٥- فجر الإِسْلاَم: أحمد أمين
٦- عبقرية محمد: عباس محمود العقاد.
٧- جزيرة العرب قبل الإِسْلاَم: برهان الدين دلّو.
٨- موسوعة تاريخ العرب: عبدعون الروضان.
٩- محمد نبي لزماننا: كارين أرمسترونج.

دماء على عتبات الإله - الجزء السادس

فُتحَت مكّة وأسلمت الطائف وثبت إيمان المَدينَة ودخل الناس في دين الله أفواجًا.. وبينما المُسْلمُون يسبّحون بحمد ربهم ويستغفرونه بعد الفتح -كما أمرهم في سورة النصر- كانت فتنة جديدة تولد، فقد جذبت فكرة "النُّبُوّة" بعض الطامعين.. فادَّعَوها لأنفسهم وبدأ صراع جديد شديد الشراسة بين المؤمنين حقًّا والطامعين في المُلك المتمسحين باسم الإله.

الرّسُول (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) في مرضه الأخير، والمُسْلمُون، يستعدُّون لتجريد حملة عسكرية بقيادة أسامة بن زيد لتأديب الروم والعرب الموالين لهم. وفي ذلك الوقت الحرج تظهر دعاوى ادّعاء النُّبُوّة في اليمن ونجد. وأكثرها خطرًا كانت تلك التي قادها مُسَيْلِمَة في اليمامة والأسود العنسي في صنعاء وطليحة بن خويلد في نجد.

كان هذا اختبارًا جديدًا لهيبة الدَّوْلَة، خصوصًا أن ذلك التهديد الجديد تزامن تصاعده مع وفاة الرَّسُول والجدل السِّيَاسِيّ الناتج عن ذلك والذي انتهى بتولّي أبي بكر الصديق الخلافَة، ليكون أول ما يفعل هو التَّصَدِّي لتلك القوى المتمردة على سلطة الدَّوْلَة الإسْلامِيَّة خصوصًا مع تزامن ذلك مع ظهور حركات الرِّدَّة ومانعي الزكاة التي كانت -رغم خطورتها- أقلّ خطرًا من مدَّعي النُّبُوّة، فمن ارتدوا أو منعوا الزكاة إنما يريدون أن يُترَكوا وشأنهم، بينما من يدَّعي النُّبُوّة يقصد بذلك السيطرة على العاطفة الدِّينِيَّة لضعاف العقول لتكوين جيش يقيم به ملكًا ويغزو به من حوله.

- نماذج لادّعاءات النُّبوّة:

ما ضاعف خطورة تلك الظاهرة هو تزامن تكرارها في أكثر من منطقة وبين قَبَائل ليست بالضعيفة، كذلك انتشارها بين أناس معظمهم قد أسلم بالفعل مما جعل منها مزيج من حركة ادّعاء النُّبوَّة والرِّدَّة. ولنأخذ أقوى ثلاثة أمثلة من بينها:

(I) الأسود العنسي.. ذو الخمار:

هو رجل أسود من اليمن اسمه الحقيقي عبهلة ويقال له "ذو الخمار" لأنه كان ملثَّمًا، ظهر في بلدة "كهف خُبان" وجمع في البداية سبعمئة مقاتل احتلَّ بهم نجران ثم صنعاء وانحازت إليه بعض القَبَائل مثل "عنس التي ينتَسب إليها وساعدوه في إقامة ملكه، وانضمَّ إليه بعض كبار المحاربين مثل عمرو بن معديكرب (أسلم بعد ذلك وحسن إسْلاَمه وشارك في فتح فارس) فهرب معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري -وكانا عاملَي الرَّسُول على اليمن- إلى جبال حضرموت وتحصنا بها مع من معهما من المُسْلمينَ في انتظار الأوامر والإمدادات من المَدينَة للكرِّ على الأسود وأتباعه. في ذلك الوقت كانت تحركات موازية تدور بين الجالية الفَارسيَّة الكبيرة المقيمة في اليمن والتي كانت قد اعتنقت الإسْلاَم بعد إسْلاَم كبيرها باذان الذي كان يحكم اليمن من قِبَل كسْرَى قبل إعلانه الانضواء تحت راية دولة الإسْلاَم. كان باذان قد مات وقام ابْنه "شَهر" يشؤون البلاد حتى قُتِلَ في أثناء محاولته التَّصَدِّي لتمرُّد العنسي.

كان فرس اليمن بقيادة فيروز الديلمي قد قرروا أن السبيل الوحيد للقضاء على الأسود هو اغتياله، وفعلاً تم ذلك بأن تَقَرَّب منه فيروز مدعيًا موازرته والايمان بدعواه، وتعاونت معه أرملة شهر بن باذان التي كان الأسود قد تزوجها عنوة بعد قتله زوجها، فذبحا الأسود العنسي في فراشه وألقيا رأسه إلى جنده من شرفة قصره وفيروز يصيح: "أشهد أن محمدًا رسول الله وأن عبهلة كذاب"! وبهذا قُضي على التَّمَرُّد الأول.

(II)- مُسَيْلمَة الكَذّاب:

كان رجلاً من قبيلة بني حنيفة بمنطقة اليمامة اليمنية، تَعَلَّم الكهانة والتَّنَبُّؤ والسحر بشكل بهر الناس به ودفع السُّذَّج منهم لتصديقه، كما اشتركت قوة شخصيته ومهابته (بعكس الشائع عنه في بعض المصادر) في منحه قدرة شديدة على الإقناع وجمع الناس حوله.

مُسَيْلِمَة كان الأدهى بين المتنبئين، فقد بدأ دعواه بأن أرسل إلى المَدينَة رسولين قابلا الرَّسُول (عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ) في أواخر أيامه وأبلغه على لسانهما أن الله قد أشركه -مُسَيْلِمَة- في الرسالة وأن من اتبعوه نصف الأرض والمال. فارسل الرَّسُول رجلا اسمه "نهار الرجال بن عنفوة" إلى اليمامة لينبه الناس لكذب مُسَيْلِمَة، فقابله هذا الأخير ورشاه ليقول عكس ذلك وهو أن الرَّسُول يعترف لمُسَيْلِمَة بالنُّبُوَّة والصدق، ففعل نهار الرجال ذلك. ثم قوّى مُسَيْلِمَة مركزه بأن تزوج بسجاح التميمية -التي كانت قد ادَّعت النُّبُوَّة أيضا- وضم رجالها لرجاله ليتحدَّيا السلطة المركزية بالمَدينَة، حيث كان أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ قد تَوَلَّى الخلافَة بعد أن تُوُفِّيَ الرَّسُول في تلك الأثناء (أسلمت سجاح بعد ذلك وحسن إسْلاَمها).

لم يتأخر ردُّ المَدينَة، فقد خرجت الجيوش تصطدم بقوات مُسَيْلِمَة الْكَذَّاب حتى تحقق النصر لها عليه في معركة عقرباء التي قادها خالد بن الوليد وانتهت بقتل الكذاب ونهار الرجال وعودة الإِسْلاَم والاستقرار إلى تلك المنطقة.

(III)- طليحة بن خويلد الأسدي:

هو كاهن من قبيلة بني أسد بمنطقة نجد. كان يجمع قبيلته بقَبِيلَتَي غطفان وطيئ حلف قديم انقطع لخلاف بينهم. فأعاد الحلف واستغلَّ كهانته ليدَّعي النُّبُوَّة لنفسه، والغريب أنه لم يسعَ لإقامة مُلك أو غزو من حوله بل اكتفى باستقلالية منطقة نفوذه.

وكما حدث مع سابقَيه، تحركت عاصمة الدَّوْلَة لتُرسل إليه جيشها للقضاء على دعواه. كان الجيش بقيادة خالد بن الوليد الذي كان يعاونه عُدَيّ بن حاتم الطائي الذي كان يرغب في إقناع قبيلته طيِّئ بالعودة إلى الإِسْلاَم والتخلِّي عن تأييد طليحة، وقد نجح في هذا بالفعل. بل وانضمَّت قبيلته إلى جيش المُسْلمينَ ومعها قَبَائل سُلَيم والغوث لمقاتلة جيش طليحة، الذي كان متفوقًا على جيش خالد من حيث العدد والسلاح وكان طليحة نفسه قائدًا بارعًا معروفًا بالدهاء والشجاعة. ولكنه لم يفُق خالدًا في دهائه العسكري، فرغم فارق القوة استطاع جيش المُسْلمينَ أن يشتت القَبَائل من حول طليحة ويهزمه. وبهذا تم القضاء على تلك الدعوى الثَالِثة. ولكن مصير طليحة نفسه اختلف، فقد عاد إلى الإِسْلاَم وحسن إِسْلاَمه واستُشْهِد في معركة نهاوند.

– ادّعاء النُّبوَّة.. لماذا؟

حداثة فكرة الادّعاء الكاذب للنُّبوَّة وكذلك التزامن الغريب لأكثر من ثلاثة مدَّعين في نفس الفترة يجعلنا نسأل أنفسنا: لماذا هذه الفكرة بالذات؟ وما عوامل نجاحها في جمع الأتباع وحشد الجيوش إلى حدِّ تشكيل خطر على الدَّوْلَة الإِسْلامِيَّة التي لم تكن تفتقر إلى القوة؟

التفسير الأقوى لاتخاذ أسلوب ادّعاء النُّبوَّة بالذات وسيلة لتحقيق المكسب السِّيَاسيّ والمادي هو أن الجزيرة العَرَبِيَّة كلها شاهدت النجاح الباهر للدعوة الإِسْلامِيَّة في تحقيق أمور كانت أكثر صعوبة من التخيُّل، كتوحيد عدد كبير من القَبَائل المتناحرة تحت راية واحدة، وإسقاط نظام الحكم القُرَشِيّ الراسخ منذ قرون، ومعاملة حكومات الدول الكبرى كبيزَنْطَة وفارس بندِّيَّة وصلت إلى حَدّ إرسال هرقل –ملك الروم– والمقوقس –حاكم مصر– الهدايا إلى الرَّسُول (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ). وكذلك خلق هيبة للعرب لم يُحسُّوها منذ سقوط ممالكهم القديمة كتدمُر والأنباط. كان هذا يمثل إغراءً لأصحاب الأطماع أن يستخدموا تلك التقنية الجذابة لتحقيق أهدافهم، ولكن الفارق تمثَّل في نقطة ضعف ضخمة لديهم هي أنهم كانوا مجرَّد مدَّعين بينما كان النبي (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) نبيًّا حقًّا مؤيَّدًا بالدعم الإلهي والوحي السماوي، ولولاهما ما كان ليحقق نجاحًا كهذا. إذن فلا وجه للتقارب بين عوامل نجاح النُّبوَّة الحقيقية (محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) والنُّبوَّة المُدَّعاة (مُسَيْلِمَة، عبهلة، طليحة).

– عوامل الانتشار والنجاح:

(I) تأييد السادة:

لأن القبيلة كانت، وما زالت إلى حدٍّ ما، وحدة قياس الجَمَاعَة البشرية العَرَبِيَّة، فقد كان من الضروري على أي مُدَّعٍ للنُّبوَّة –كذبًا– أن يكسب أولاً تأييد سادات قومه الذين يختلفون عن معظم عوامِّ الناسِ في أن هؤلاء الآخَرين غالبًا ما "يصدِّقون" ادّعاء النُّبوَّة بينما السادة غالبًا ما "يدَّعون تصديقه" لملاءمته أهدافهم الدنيوية.

كان أهمُّ محرِّك لهؤلاء السادة هو العَصَبِيَّة القَبَلِيَّة، فقد كان اليمن حيث ظهر مُسَيْلِمَة والأسود في حالة من التنافس الشديد مع الحجاز، وبالذات مكة، على السيطرة

التجارية والسِّيَاسيَّة وحتى الثَّقَافيَّة على الجزيرة، وكذلك كان الأمر مع قَبَائل نجد حيث تنبأ طليحة، الأمر الذي بدا في قول أحدهم لمُسَيْلِمَة: "والله إنك لكاذب وإن محمدًا لصادق ولكن كاذب ربيعة (اليمن) أحب ألينا من صادق مُضَر (قريش)"، وقول الآخر عن طليحة بن خويلد: "والله لأن أتبع نبيًّا من الحليفين (أَسَد وغَطْفَان) أحب إليَّ من أن أتبع نبيًّا من قريش أي أن القضية بالنسبة إلى هؤلاء السادة كانت قضية انتماء قَبَليٍّ لا دينيٍّ غلبت دوافعه حتى الدوافع المادية كالثراء والحكم! وقد استغلَّ المتنبئون هذا بذكاء شديد، فالعنسي أعلن صراحة رغبته تحرير بلاده من "المتوردين عليها" على حد قوله، ومُسَيْلِمَة قالها في رسالته للرَّسُول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "إن لنا نصف الأرض ولكن قريشًا قومٌ يعتدون"، في تبرير مسبق منه لعدائه قريشًا تماشيًا مع المزاج السِّيَاسِيّ لسادات القَبَائل التي سعى لكسب تأييدها.

(II) عوام الناس:

دعم سادات القَبَائل للدعاوى الجديدة كان ليكون كافيًا، لكن المتنبئين زيادة منهم في الاحتياط عملوا على كسب القَاعدَة الشعبية العريضة من خلال إلغاء بعض الأوامر والنواهي، كإباحة الزنا وشرب الخمر، ورفع بعض الصلوات، وإلغاء الركوع والسجود، بحيث يتحول الدين إلى مجرَّد عقيدة بدائية بسيطة تتلخص في التعصب للنبي لذاته لا لما أتى به من ربه. الأمر الذي يُبرز المقصد الحقيقي من ادِّعاء النُّبُوَّة وهو كسب التأييد وحشد الجماهير، فلم يأت المتنبئون في تعاليمهم بأي شيء عميق بما يتلاءم مع عقيدة جديدة، بل اكتفوا فقط بما يخدم أغراضهم وخططهم. وساعدهم على هذا أمران: الأول هو ضَعف العلم الدِّينِيّ عند قومهم، فقد كان اليمنيون من أواخر من أسلموا فكان أغلبهم في المرحلة التالية مباشرة لاعتناق الإِسْلاَم وهي تَعَلُّمه. والآخر هو أن المناطق التي انتشرت فيها ادِّعاءات النُّبُوَّة كانت من المناطق المنفتحة على الثقافات الأخرى بشكل يجعل أهلها أكثر مرونة في تقبل عقائد جديدة أو تجديد في عقيدة قائمة. ممَّا جعل من الجماهير عجينة رخوة صالحة للتشكيل.

- انكشاف الكذبة:

كل ذي عقل كان يمكنه -بشيء من التدبُّر- أن يدرك كذب هؤلاء، ولولا دهاؤهم وتأييد السادة لهم ما كانوا ليحققوا نجاحًا. لكن سرعان ما تَجَلَّى الكذب في أمور عدة، فأولا نلاحظ أن كلاًّ منهم لم يسعَ لتكذيب الآخر، رغم تضارب الأوامر والنواهي، ما

دام ذلك الآخر لم يتعرض لخططه ولم يسعَ لتكذيبه أو منافسته. كذلك كانت تعاليم الأنبياء في ما يتعلق بالعبادات والممارسات الخارجة عن السّيَاسَة العامَّة للعقيدة المزعومة تتسم بمسايرة وإرضاء التابعين على طول الخط، ممَّا يتعارض مع أي دين سماوي أو غير سماوي. الأمر الثالث هو سرعة التّبَدُّل في أقوال الأنبياء ووحيهم المُدَّعَى، فهم في ساعة يقولون أمرًا وإذا لم يحقِّق الغرض منه يبدلون به في الساعة التالية. الدليل الأخير هو ضعف ثباتهم وثبات كبار أتباعهم -السادة- أمام هجمات الجيوش المسلمة حيث إن هذا يكشف عدم إيمانهم بالتأييد السماوي الذي يدَّعونه والذي يميز -كما قلنا- النبي الصَّادق عن ذلك الكاذب.

- النتائج:

من النتائج ماكان مباشرًا -كاستشهاد عدد ضخم من حَمَلَة القرآن ممَّا دعا الخلفاء إلى تدوينه وجمعه- وما كان غير مباشر وهو بداية ظهور فكرة الفرَق المنشقَّة عن الإِسْلاَم وإن ادعت الانتماء إليه بل وكفَّرت غيرها من أهل العقائد السلَيمة. فالتاريخ الإِسْلاَمي شهد أكثر من عملية ادِّعاء للنُّبُوَّة حتى يومنا هذا، منها ما تمَّ إحباطه بشكل كامل ومنها ما بقيت له ذيول ونشأت عنه مذاهب أجمع العلماء على انحرافها، كالبَابِيَّة في فارس والقاديانية في الهند. أي أن تجربة ادِّعاء النُّبُوَّة في بداية عصر الإِسْلاَم كانت مجرَّد بداية لسلسلة من التجارب المماثلة التي حركتها أيضًا أهداف سياسية واقْتصَاديَّة.. وهي السمة الثابتة في كل تلك الدعاوى... الخلاصة أن خطورة حركات مدَّعي النُّبُوَّة بلغت أن الفكرة ما زالت مستمرَّة حتى يومنا هذا وقابلة للتكرر.

نترك حروب مدَّعي النُّبُوَّة خلفنا، ونقفز قفزة واسعة عبر الزمن، إلى العصور الوسطى، حيث تطورت أساليب خلع عباءة الدين على تطلعات الثراء والسلطة والزعامة...

مصادر المعلومات:

١- البداية والنهاية: ابن كثير.

٢- محمد والذين معه: عبد الحميد جودة السحار.

٣- تاريخ الشعوب الإِسْلاَمِيَّة: كارل بروكلمان.

٤- تاريخ الخلفاء الراشدين: د/ محمد سهيل طقوش.

٥- فجر الإِسْلاَم: أحمد أمين.

٦- تاريخ المذاهب الإِسْلاَمِيَّة: محمد أبو زهرة.

٧- الفِرَق والجماعات الدِّينِيَّة: د/ سعيد مراد.

٨- حركات الرِّدَّة: د/ زينب عبد الله كرير.

٩- اليمن في التاريخ الإِسْلاَمي الباكر: د/ عبد المحسن المدعج.

١٠- موسوعة تاريخ العرب: عبدعون الروضان.

١١- تاريخ قريش: د/ حسين مؤنس.

١٢- جزيرة العرب قبل الإِسْلاَم: برهان الدين دلّو.

١٣- رجال حول الرَّسُول: خالد محمد خالد.

١٤- خلفاء الرَّسُول: خالد محمد خالد.

١٥- عبقرية خالد: عباس محمود العقاد.

١٦- عبقرية محمد: عباس محمود العقاد.

١٧- موسوعة عظماء حول الرَّسُول: خالد عبد الرحمن العلك.

دماء على عتبات الإله - الجزء السابع

إيران.. النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي...

رجل دين سُنّيّ يغادر المسجد بعد أن أمَّ الناس لصلاة الجمعة.. يقترب منه سائلان يستعطفانه، يمد يده إلى جيبه، يُخرِج لهما بعض الصدقة، ينحني أحدهما سريعًا مُظهِرًا رغبته تقبيلَ يد الشيخ، ثم يفاجأ الجميع بالسائلَين يغرسان خنجرَيهما في جسد الرجل وينهالان عليه بالطعنات، وعندما يفيق الجمع من ذهوله وينقض عليهما ضربًا حتى الموت تكون آخر كلماتهما: "نحن قرابين الإمام" عندها، يعرف الجميع أنهما من طائفة "الحَشّاشين"!

- النشأة:

الحَشّاشُون، الحشيشية، البَاطنيّة، الملاحدة، التعليمية، كلها مرادفات لطائفة واحدة احترفت الاغتيال باسم الدين، نشَأت في الرعب والدم والفساد خلال أهم قرون العصور الوسطى. نشأت تلك الفئة في إيران، مناطق الجبال تحديدًا، حيث بدأ مؤسّسها حسن الصبّاح[1] -الملَقّب بـ"شيخ الجبل"- تأسيس أول قاعدة لها في قلعة جبلية حصينة اسمها "آلموت" أي "عُشّ العُقاب" بالفَارِسيّة، وكان قد استولى عليها من صاحبها بالحيلة. الاسم نفسه مرجعه أمران: الأول هو ما شاع عن أن مقاتلي تلك الحركة كانوا يتعاطون مخدِّر الحشيش قبل الخروج لقتل الخصوم، والآخر أن بعض رجال الدين السُّنِّيِّين الذين

قدحوا في مذهب البَاطنيَّة سخروا من أفكارهم الفاسدة بأن قالوا إنهم لم يأتوا بها إلا تحت تأثير الحشيش.

كانت بداية تأسيس الجَمَاعَة هي الدعوة إلى نصرة نزار بن المستنصر الفَاطِمِيّ[٢] -الإمام المظلوم- الذي غصبه الوزير بدر الجمالي حقَّه في الولاية، وكان حسن الصَّبَّاح قد حمل معه من مصر محظيَّةَ نزار التي كانت -وفق ادِّعائه- تحمل ابْن الإمام المغصوبة إمامته. تعاطف البسطاء مع قضية نزار، الذي اختفى في ظروف غامضة وقيل إن بدر الجمالي قتله، كان المحرِّك الأول ليستمعوا للصبَّاح الذي يُعتبر المؤسِّس الأول للنزارية.

- الاغتيال:

كانت فكرة الاغتيال غير بعيدة عن ثقافة الشرق العَرَبِيّ الإِسْلاَمي، فالخلفاء الراشدون قضى ثلاثة منهم نَحبَهم اغتيالاً، وحتى خامسهم -عمر بن عبد العزيز- مات مسمومًا في طعامه. والتاريخ بعد ذلك شهد الكثير من عمليات الاغتيال والقتل الفردي والجماعي، العشوائي والمدبَّر. إلا أن طائفة الحَشَّاشين كانت أول فرقة منظمة تتخذ الاغتيال منهجًا لها، حتى إن لفظ "Assassin" ببعض اللغات الأورُبِّيَّة يعني "القاتل"، ويُطلَق بالذات على منفِّذ عمليات الاغتيال، هو لفظ مأخوذ من كلمة "حَشَّاشين" حيث نقله الأورُبِّيُّون للغاتهم بعد إحتكاكهم بالحَشَّاشين خلال الحروب الصَّلِيبِيَّة في الشرق.

وسبب بروز وشهرة تلك الحركة هو ما أثاروه في الشرق من رعب شديد وتحطيم للأمن العام، بالذات في إيران، حتى إن الرجل كان إذا تأخر ساعات قليلة عن موعد عودته إلى البيت كان أهل بيته يعدُّونه من الموتى، وكان مجرَّد الاعتراض البسيط على فكرهم أمرًا عاقبته القتل العلني بالذات أيام الجُمَع والأعياد، حيث كانوا يتعمدون تنفيذ الأغتيال نهارًا جهارًا لتحقيق الأثر النفسي المنشود لدى الناس.

إذن فقد كان الحَشَّاشُون أول تنظيم سرِّيّ للقتل المنظم، بدؤوا أولاً بقتل معارضيهم من رجال الدين والسِّيَاسيِّين والمفكرين، ثم اضطرتهم الحاجة المالية أحيانًا إلى طلب الفدية المالية من الأثرياء وإلاَّ قتلوهم، وانتهى بهم الأمر أن تحولوا خلال العصرين الأيوبي والمملوكي إلى قَتَلَة مأجورين استخدمهم الحكَّام في تصفية خصومهم.

- المخدوعون:

قسم الحَشَّاشُون أنفسهم طبقات وفئات، منهم الإمام والدُّعاة الكبار والدعاة الصغار

والأتباع، إلا أن من مارسوا القتل كانوا فئة "الفداوية" الذين كانوا عبارة عن جيش من محترفي التنكر والتحدُّث بلغات مختلفة والتعايش في مجتمعات عدَّة والاندماج فيها، فضلاً عن الوظيفة الأساسية: القتل، بالإضافة إلى التجسس ونصب الكمائن. أي أنهم كانوا بمثابة ما يشبه الآن أجهزة المخابرات وفرق الصاعقة. كان الفداوي يمارس عمله مؤمنًا أنه إنما يُرضي الإمام -ظلَّ الله على الأرض- وكانت أقصى فرحة للفداوي وأسرته عندما يُقتَل بعد تنفيذه مهمة ناجحة. ورغم المذابح والإعدامات المنفذة بحق آلاف الفداوية -والحَشَّاشين بشكل عامٍّ- كانوا يتمسكون بمبدأهم ويهتفون لإمامهم وهم يُقَطَّعون بالسيوف أو يُرجَمون بالحجارة أو يُحرَقون بالنار. ممَّا يُظهِر حجم التأثير النفسي الرهيب للدعاة على أتباعهم.

- المُخادعون:

وإن التمسنا في الجهل والافتتان وضعف العقل أعذارًا للفداوي، فليس الأمر كذلك للدُّعَاة والأئمة الذين كانوا يمارسون هذا النوع من الخداع المنظم للبسطاء ويلقونهم إلى التهلُكة وقودًا لأهدافهم في السيطرة والحكم. كان نوعًا من الشهوة للسلطة بلغ حَدًّا فاق شهوة المال، حتى إن الإمام أو الدَّاعِي من هؤلاء كان يعيش في زهد مبالَغ فيه فقط لينال الحظوة في أعين رجاله ويزدادوا افتتانا به (نفس ما يحدث الآن من زعماء بعض الجماعات الإرهابية). كانوا أيضًا يختلقون بعض المعجزات باستخدام طرق الخداع البصري والشعوذة ليؤكدوا أنهم تجسيد الله على الأرض حتى إنه يقال إن حسن الصبَّاح كان قد أنشأ بستانًا داخل قلعته زوَّده بالشلالات الصناعية والجواري الحسان والغلمان المليحين والفاكهة والأزهار، وادَّعى أنه جزء من جنَّة الله أعطاه الله عزَّ وجلَّ له ليُدخل فيها من يشاء من أتباعه المُخلصين!

نعم، كان الأئمة يعلمون أنهم على باطل ولكنها شهوة النفوذ التي بلغت بهم الجرأة لأجلها أن أحدثوا في الدين ما ليس فيه من تكفير لمن خالفهم وإهدار لدمه وتحويل القتل إلى عبادة والغدر إلى تقرب من الله.

- إفساد الدين:

لم يكتفوا فقط بخداع الأتباع، بل تجاوزوا كل الحدود فأصبحت العقيدة لعبة أئمتهم وشيوخهم. فحسن الصبَّاح بلغ حد ادِّعاء ما يشبه النُّبُوَّة وربما حلول روح الله فيه، وشيخهم الرابع "الحسن الثاني" أعلن ذات يوم -في شهر رمضان- قيام القيامة وتعطيل

العمل بالشريعة فأباح الإفطار ومنع الصلاة وسمح بالزنا حتى مع المحارم، وغيَّر بعضهم وجهة الحج من البيت الحرام إلى الحج لزيارة الإمام، فضلاً عن عشرات الأفكار الفاسدة التي يُعتبر أقلها كفرًا صريحًا بالإسْلام. لم يعمل منهم بالشريعة الصحيحة إلا إمام واحد كانت أمه سُنِّيَّة فأثرت عليه فمنع القتل والمحرَّمات ووصل العلاقات مع ملوك العالم الإسْلاَمي، لكن بعد موته سرعان ما انقلب الحَشَّاشُون إلى ما كانوا عليه من فساد. إحداثهم تلك المفاسد في الدين استفزَّ الكثير من المفكرين الغيورين على الشريعة، كالإمام أبي حامد الغزالي الذي هاجمهم في كتابه "فضائح البَاطنيَّة"

- **نقمة على الحَضَارَة العَرَبيَّة الإسْلاَميَّة:**

لم يتوقف فساد تلك الحركة على القتل وتحريف الدين فحسب، بل كانوا خونة للعروبة والمُسْلمينَ، إذ إنهم خلال فترة الحملات الصَّليبيَّة -أخطر فترات التاريخ آنذاك- كانوا لا يقلُّونَ خطرًا على الدول الإسْلاَميَّة من الغُزَاة. فالملاحظ لعدد ضحاياهم خلال تلك الفترة يكتشف أنهم نادرًا ما وجَّهوا خناجرهم إلى الصليبيين، وكانت معظم اغتيالاتهم مركَّزة على قادة الجِهَاد العَرَبيّ الإسْلاَمي، فقد قتلوا القائد مودود -أحد المجاهدين ضدّ الصَّليبيّين في الشام- وقتلوا القائد التركي آق سنقر الذي كان مصدر رعب للجيوش الأُورُبِّيَّة، وسعوا أكثر من مرة لقتل صلاح الدين الأيوبي، غير أنهم اغتالوا اثنين من الخلفاء العَبَّاسيِّين في بغداد، فضلاً عن علاقتهم المريبة بالمنظمات العسكرية الصَّليبيَّة كفرقة "فرسان الهيكل" والمراسلات والتحالفات السرية بينهم وبين قادة الجيوش الصَّليبيَّة. كل هذا كان يشي بأن هؤلاء الذين يدَّعون الجِهَاد للدَّعوة لا يزيد حالهم عن أنهم "مرتزِقة" يبيعون أنفسهم ودينهم لمن يضمن لهم السطوة والحكم.

- **النهاية:**

كان من الطبيعي أن تنتهي تلك الزمرة من تجار الدين والدم نهاية دامية، وقد كان هذا على يد جيش هولاكو الذي سوَّى بقلاعهم الأرض وقتل أغلبهم بعد أن كانوا قد طمعوا في محالفته (!).

كانت هذه بداية النهاية لهم، فكَقُوَّة سياسية انْتهى وجودهم بدمارهم على يد المغول، وأنشأ هؤلاء الآخَرون دولة المغول في فارس، ولكن بقيت بقية للحَشَّاشين في الشام، تحديدًا شمال سوريا، حيث تَحَوَّلوا إلى فرقة من القتلة المأجورين يستخدمهم الملوك ورجال السِّيَاسَة لتصفية أعدائهم، كالظاهر بيبرس الذي استطاع السيطرة عليهم

وتوجيههم لاغتيال قادة بقايا الإمارات الصَّليبيَّة في الشام (أي أنهم حتى عندما حاربوا الصَّليبيِّين كان لغرض المال!)، وكالسلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي قال الرحالة ابن بطوطة عن الفداوية إنهم سيفه على أعدائه. وفي النهاية اندثروا وتفككوا وذابوا في الشعوب المجاورة، ولم تبق منهم إلا بقية رمزية تتبعها طائفة كبيرة العدد في الهند وباكستان، وأشهر أئمتهم في العصر الحديث الأمير كريم أغا خان صاحب مؤسسة أغا خان الشهيرة بتأسيس الأعمال الخيرية والاجْتماعيَّة والثَّقافيَّة (وهي التي أسست حديقة الأزهر في القاهرة).

هكذا إذن جاءت وعاشت وذهبت حركة الحَشَّاشين كمثال هو الأقوى في التاريخ الإسْلاَمي للذين فجَّروا أنهار الدم لخدمة أغراضهم الدنيوية، ومسحوا الدماء عن أيديهم على عتبات الإله!

وبالمعاصرة للحَشَّاشِين، بل وبعد ذهابهم، كانت حركة موازية لا تقلُّ عنفًا وتآمرًا ولعبًا بالدين.. حركة حَمَلة الصليب، وجاءت إلى الشرق بدعوى نصرة المسيح.. وإن كانت في الصدور مكنونات أخرى...

مصادر المعلومات:

١- الحشيشية: برنارد لويس- د. سهيل زكار.

٢- البداية والنهاية: ابن كثير.

٣- موسوعة تاريخ العرب: عبدعون الروضان.

٤- تاريخ المذاهب الإسْلاَميَّة: محمد أبو زهرة.

٥- شيخ الجبل حسن الصباح: محمد ناصح مؤيد العظم.

٦- الاغتيالات في بلاد الشام والجزيرة: د/ محمد عبد الله المقدم.

٧- الجمعيات السرية: نورمان ماكنزي.

٨- تاريخ الشعوب الإسْلاَميَّة: كارل بروكلمان.

٩- أطلس التاريخ العَرَبِيّ الإسْلاَمي: د/ شوقي أبو خليل.

١٠- الفرق والجماعات الدِّينيَّة: د/ سعيد مراد.

١١- عصر سلاطين المماليك: د/ قاسم عبده قاسم.

١٢- تاريخ الفَاطميّين: د/ محمد سهيل طقوش.

١٣- بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس.

١٤- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي.

١٥- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار: ابن بطوطة.

١٦- أعجب الرحلات في التاريخ: أنيس منصور.

هوامش الجزء السابع

- الهامش الأول: حسن الصبّاح:

حسن الصبّاح.. مؤسس حركة الحَشّاشين.

وُلِدَ تقريبًا سنة ١٠٣٧م في مدينة الرَّيّ بالعراق. نشأ على المذهب الشّيعيّ وتَعَلّم الفلسفة والكلام ثم سافر إلى مصر ليقدّم الولاء للخَليفَة المستنصر -إمام الشّيعَة الإسْمَاعيليّة- وقرّبه الخَليفَة منه لشدة إعجابه بذكائه الحادّ وعلمه المَذْهَبي الغزير. كان من مؤيّدي نزار -الابن الأكبر للخَليفَة- في صراع ولاية العهد، ممّا أدّى إلى أن قام الوزير بدر الجمالي -حليف المستعلي- بحبس حسن الصبّاح الذي استطاع الهروب من سجنه إلى إيران حيث بدأ دعوته لنصرة الإمام المظلوم نزار وبدأ رحلته في تجنيد الأعوان والأتباع محتلاً بهم عددًا من القلاع في جبال فارس حيث بدؤوا عهدًا من الرعب والدم للعرب والمسْلمينَ في الشرق.

استطاع الحسن بالفعل تكوين جبهة قوية من المؤيدين والأتباع، واستغلّ علمه بالمذاهب والكلام والفلسفة مع جهلهم، وكذلك مهارته في إتيان ألاعيب الخداع البصري وافتعال المعجزات والخوارق، فبهر من اتّبعوه وفُتنوا به وباتخاذه مظاهر الورع وتقوى والتشدد حتى تفانوا في طاعته.

كان أتباعه يؤمنون أنه إمام يُوحَى إليه فكانت طاعتهم له عمياء إلى حدّ أنهم كانوا يقتلون أنفسهم بأمره إذا أراد استعراض ولائهم أمام خصومه. وكانت حياته شديدة التقشف والزهد والصرامة ممّا أكسبه مظهر الولي العابد المجاهد في سبيل الله ودعّم دعواه الفاسدة بين مريديه الذين بلَغ عددهم سبعين ألف إنسان!

تُوفّي حسن الصبّاح في قلعة "آلموت" مركز دعوته ومقر قيادته، سنة ١١٢٤م، و لم يترك ولدًا إذ كان قد قتل ولديه خلال حكمه، الأول لشربه الخمر والثاني لتآمره عليه.

- الهامش الثاني: الشّيعَة النّزَاريّة:

الشّيعَة الإسْمَاعيليّة النّزَاريّة.

بدأ الأمر بظهور طائفة الشّيعَة الإسْمَاعيليّة، وهي فئة منشقّة عن الاثنا عشرية، فبينما آمن الآخرون بإمامة موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصّادق (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) آمن البعض بإمامة إسْمَاعيل بن جعفر الصّادق، وكوّنوا مذهب "الشّيعَة الإسْمَاعيليّة" الذي أصبح المذهب الرسمي للفَاطميّين منذ نشأتهم في غرب إفريقيا وخلال دولتهم في مصر والشام وحتى سقوطهم على يد صلاح الدين الأيوبي.

وخلال عهد الخَليفَة الفَاطميّ المستنصر بالله، نشأ نزاع سياسي بين الشّيعَة الإسْمَاعيليّة بسبب ولاية العهد، فلأن نَقلَ الإمامة من السّلَف إلى الخلف عملية ذات قداسة خاصّة لَدى الشّيعَة، فقد تمسّكت فئة كبيرة منهم بولاية "نزار بن المستنصر"، بينما ظهرت دعاوى لتولية شقيقه الأصغر "المستعلي بن المستنصر" فرفض مؤيدو نزار تلك الدعوى باعتبارها مخالفة للمذهب الشّيعيّ الذي ينصّ على انتقال الإمامة من الأب إلى الابْن فقط، و لم يعترفوا بولاية

المستعلي الذي كان حليفًا لكبير وزراء مصر -بدر الجمالي- وانشقُّوا بزعامة كبيرهم حسن الصبَّاح وتَسَمَّوا بـ"الإسْمَاعيليَّة النِّزَارِيَّة" وبدأوا نشر دعوتهم من جبال إيران وشمال سوريا.

كذلك تَسَمَّوا بـ"الْبَاطنيَّة" لأنهم زعموا أن لكل ظاهر باطنًا وقاموا بتحريف الكثير من تعاليم القرآن -خصوصًا المتعلقة بالصلاة والعبادات- بدعوى أنهم يأخذون باطنها المستتر لا ظاهرها الذي يأخذ به -على حدِّ قولهم- عوامُّ الناس والجهَّال. والسبب الآخر للتسمية هو اتسام دعوتهم بالسِّرِّيَّة والاستتار وتطبيقهم مبدأ "التقية" حيث كان كثير منهم يدَّعون لأنفسهم أنهم من أهل السُّنَّة بينما هم يتآمرون على الأنظمة السُّنِّيَّة.

دماء على عتبات الإله – الجزء الثامن

"المُسْـلمُون الوثنيـون الهراطقـة يحتلـون الأرض المُقَدَّسَـة، يدنَسـون قبر المسيح ويسـتعبدون المَسـيحيِّينَ، يذبحـون الرجـال والغلمـان ويسـترقُّون النسـاء ويهتكون أعراضـهن، يجعلون من الكنائسـ زرائب للبهائم ويقِفُون الصـلوات ويمزّقون الكتاب المقدس

كان هذا مجرَّد نموذج لمحتويات خطب رجال الكَنِيسَة الكَاثُولِيكيَّة في أُورُبًا وهم يحفزون الشعب على الانضمام إلى الحملات المُقَدَّسَة، وكان من الطبيعي أن تجد رسوماتٍ معروضة على الناس تصوِّر مسلمًا يذبح مَسيحيًا أو فارسًا عَرَبيًا يطأ بسنابك جواده قبر المسيح... هكذا كانت بداية الحرب الشعواء المسماة –زورًا– بالصَّلِيبِيَّة!من أين بدأ الأمر؟ ومتى راودت أوربان الثاني فكرة "الحرب المُقَدَّسَة"؟

الحقيقة أن أغلب الآراء تقول إن الذريعة التي اتَّخَذَها البابا كانت استغاثة إِمْبرَاطُور بيزَنْطَة به عندما هُزِمَ في معركة "منزكرت" من السَّلاَجِقَة الأتراك الطامعين في ممتلكات بِيزَنْطَة. ولكن البابا كَاثُولِيكيّ والبِيزَنْطيِّينَ على مذهب الـ"روم أرثوذكس"، فأي مصلحة تأتي من حشد الجيوش لمساعدة أتباع مذهب آخر؟

– دوافع البابا:

كان البابا ينظر إلى الأمر كفرصة لتوحيد قيادات أُورُبًّا تحت مظلة هدف واحد، لعلّ هذا يُخْرِج المنطقة من حالة الغليان والفوضى التي كانت تعيشها آنذاك[1]، كما

كان يطمع في بسط يد كنيسته الكَاثُولِيكيَّة على بيزَنْطَة وما حولها لينهي بذلك الوجود الأرثوذكسي المنافس الذي طالما اعتبره بابوات روما انشقاقًا عن وحدة الكنيسة وكانوا يتحينون الفرص لفرض مذهبهم على الروم، والدليل على ذلك أن نسبة لا بأس بها من حملات دعم بِيزَنْطَة ضدَّ أعدائها جاءت بعد وعود من البِيزَنْطيِّينَ بالدخول في المذهب الكَاثُولِيكيّ وبالتالي في طاعة بابواته. أيضًا كان البابا يرغب من خلال قيادته الروحية لتلك الحملة في توطيد الجانب الدنيوي من زعامته. فطالما كان صراعٌ بين الكَنِيسَة والملوك الرافضين لأي سلطة دنيوية تفوق سلطاتهم، بينما كان البابوات المتابعون مُصرِّين على ازدواج سلطة البابا -دينيَّة ودنيوية- بصفته الوريث الطبيعي لسلطة إِمْبَرَاطُور الرُّومَان. وكان البابا يعلم أن خروج حملة عسكرية لغزو الشرق هو أمر يسيل له لعاب ملوك أُورُبَّا فبادر بإعلانها بشكل يحمل الصبغة الدِّينيَّة ليفرض عليهم وصايته رغمًا عنهم جميعًا. والدليل القوي على تعلق الأمر بالسلطة أكثر من اتصاله بالدين هو أن بعض البابوات التالين لأوربان أعلنوا حروبًا صليبية داخلية ضدَّ من يمرق عن طاعتهم من الملوك، فكانوا يحشدون الجيوش لتأديبه باسم الصليب، ممَّا يعني أن الصفة الصَّلِيبِيَّة للحروب كانت تعني أنها موجهة لنصرة البابا لا لنصرة الدين نفسه، بغضِّ النظر عن العدوِّ الموجَّهة إليه.

الأمر الذي لا يقلُّ أهمية، هو أن البابوات طالما أرهقتهم صراعات الملوك والأمراء وما ينتج عنها من تفكك وحدة العالم الكَاثُولِيكيّ ممَّا يعني بالتبعية تفكك نطاق سلطة البابا وانشغال الناس بالشؤون الدنيوية كالحرب والنزاعات عن الشؤون الدِّينيَّة كالصلوات والنذور وطلبات الغفران، ممَّا كان من شأنه تقليص مكانة سلطة الكَنِيسَة في ضمائرهم. لهذا جاءت الدعوة للحملة المُقَدَّسَة (لم تكن قد سُميت بالصَّلِيبِيَّة بعدُ) بمثابة فرصة لنقل صراع الأمراء خارج أُورُبَّا، وتفريغها من القوى المشاغبة المقلقة للاستقرار البابوي.

هذا عن البابا، أما عن الملوك والأمراء والإقطاعيين، فقد كانت لهم أسبابهم كذلك.

- دوافع السادة:

السادة كانت لهم -بدورهم- أسبابهم لترك بلادهم والانتقال إلى بلاد غريبة عنهم انصياعًا لنداء البابا، فتلك الفترة التي شهدت إعادة تشكيل ورسم حدود أُورُبَّا، وقعت فيها عشرات النزاعات بين القادة -بالذات على حدود مناطق النفوذ- بالذات بين الدول الثلاثة الكبرى: فرنسا، وإنجلترا، وألمانيا. وكان التداخل العائلي بين الأسر الحاكمة سببًا في فوضى غريبة، أبسط مثال لها أنه -وفقًا للقوانين- كان السيد الإقطاعي يتبع الملك،

وكان من المألوف آنذاك أن يمتلك احد الملوك إقطاعًا تحت سلطة ملك آخر، ممّا يعني أن له صفتين متعارضتين، فبصفته ملكًا فهو يساوي أي ملك أُورُبّيّ من حيث السلطة القانونية، وبصفته إقطاعيًّا في دولة أخرى فهو تابع لملك تلك الدَّوْلَة، ممّا أحدث فوضى عارمة أدّت إلى نشوب نزاعات عنيفة بين الملوك. كذلك كانت المنافسة بين ملوك الدول الثلاث المذكورة على أشدّها على لقب "إِمْبرَاطُور الإِمْبرَاطُورِيَّة الرُّومَانيَّة المُقَدَّسَة" الذي كان يتم انتخابه من بين ملوك أُورُبّا، في محاولة من الكَنِيسَة لإحياء المجد الرُّومَانيّ، فكان الملوك يسعَون لتحقيق الإنجازات السِّيَاسيَّة والعسكرية القوية لنَيل اللَّقب الذي كان يُعطي صاحبَه سلطةً على باقي الملوك، ولم يكن من عمل –آنذاك– أعظم من محاربة المُسْلمِينَ وطردهم من الأرض المُقَدَّسَة.

الأمر الطبيعي أيضًا كان سعي الملوك –وهو أمر بديهي– لإقامة مستعمرات لهم في الشرق الثري بالموارد، وكان هذا يمثل حلاً لكل ملك تعاني دولته ضائقةً ماليَّةً، ولكن السبب الأكثر قوة كان رغبة بعضهم في إقامة ممالك كَاثُوليكيَّة شبه مستقلة في الشرق يُنَصِّبُون عليها ملوكًا من أسرهم أو أسر حلفائهم، بحيث تكثّر الأصوات المؤيِّدة لهم في المحافل الكَاثُولِيكيَّة ممّا يعطيهم سطوة عاتية أمام منافسيهم في تلك المحافل.

هذا عن أسباب الملوك، أما الإقطاعيُّون فكان المحرِّك الأساسي لهم هو الرغبة في اكتساب إقطاعيات جديدة لهم، بالذات من عانوا منهم الإفلاس، بل وربما أقاموا ممالك كاملة يكونون هم فيها المَتْبُوعِين لا التابعين. هؤلاء وجدوا التأييد من الملوك سالفي الذكر الراغبين في اكتساب أصوات مؤيِّدة لهم في المجالس والمؤتمرات الدولية، وتشكلت منهم نواة أولى الأسر الحاكمة في الإمارات الصَّلِيبِيَّة في الشرق.

بقيت الجمهوريات الإيطالية، وهي أنظمة كانت ترأسها كبريات الأسر المشتغلة بالتجارة، تلك الجمهوريات كانت التجارة عقيدتها فكان تجارها يقولون: "نحن تجار أولاً ثم مسيحيُّون ثانيًا"، ردًا على لوم البابا لهم لمخالفتهم أمره بمقاطعة المُسْلمِينَ تجاريًّا. سادة هذه الدول كان لهم ما يشبه الميليشيات الخاصَّة التي كانت مهمتها فتح وتأمين أسواق جديدة لمدنهم بالذات على ساحل المتوسط. فكانت إذن الداعم المالي والتسليحي الأكبر للحملات الصَّلِيبِيَّة، مقابل وعود بإعطائهم حقوق احتكار التجارة في أسواق الشرق وكذلك منحهم امتيازات تجارية كبيرة على غيرهم من التُّجَّار.

– عامة الشعب:

عندما أطلق البابا أوربان الثاني نداءه من كليرمون، كان يقصد توجيهه للسادة فحسب، دون عامَّة الشعب. بل كان يخشى انضمام العوامِّ إلى الحملات ممَّا يعني إفقار الأرض من مزارعيها. ما توقعه وخشيه البابا حدث، ففور سماع ندائه انطلقت جحافل الشعوب الأُورُبِّيَّة كلٌّ بأبنائه ونسائه ومواشيه الهزيلة، في مسيرة طويلة قطعت أُورُبَّا من الغرب إلى الشرق متجهة إلى بِيزَنْطَة لتكون نقطة انطلاق نحو الشام. ذلك الجيش الشعبي المسلَّح بأدوات الزراعة أحدث واحدة من أكبر حالات الفوضى والتزعزع الأمني في أُورُبَّا، فكانوا كُلَّما مرُّوا ببلد نهبوه وسلبوا أهله وأحدثوا فيه الدمار حتى اضطُرَّ ملوك تلك المناطق إلى إرسال الفرسان لتأديب وطرد هؤلاء الغزاة، ووقع في صفوف هؤلاء العامة قتل عنيف من أهل المدن التي اعتدوا عليها. ثم بعد ذلك وصلت بقاياهم إلى بِيزَنْطَة فأحدثوا فيها ما أحدثوا في مناطق مرورهم من تدمير وتخريب وسلب، ممَّا اضطَرَّ الإِمْبِرَاطُور البِيزَنْطِيّ إلى إرسالهم إلى آسيا الصغرى ليتخلص منهم بأن يضرب بهم أعداءه السَّلاَجِقَة الذين قضوا على معظم أفراد تلك الحملة التي خرجت من بلادها بتعداد عشرين ألف فرد و لم يبقَ منها سوى ثلاثة آلاف فحسب أنهكتهم المسافة!

سلوك أفراد تلك "الحملة الشعبية" يكشف الدوافع الدنيوية التي أخفاها أفرادها تحت ادِّعاءاتهم الخروج لنصرة الرب، فالمحرِّك الوحيد لهم كان رغبتهم الخروج من دائرة الفقر المغلقة عليهم، ولو كان من سبب آخر فهو السعي للتحرر من نير "القنانة" والتبعية الظالمة للسيد الإقطاعي. أما الدافع الدِّينِيّ فقد كان مختنقًا تحت نداء المال والطعام والمكاسب الدنيوية.

– الجرائم:

مجرَّد إلصاق رمز ديني له ثقله كالصليب رمز الفداء في المَسِيحِيَّة، بالحرب من أجل المال والسلطة، هو جريمة كبرى! ولهذا فإن الرأي الراجح بين المؤرخين يعتبر وصف تلك الحملات بـ"الصَّلِيبِيَّة" أمرًا ينافي العدل والمنطق العلمي ويعتبره مجرَّد "خطأ شاع إلى حَدِّ صعوبة تداركه" إذن فالجريمة بدأت باتخاذ ستار الدين قناعًا لأهداف الدنيا.

أما عن الجرائم المادية من قتل وتدمير فلم يكُن أكثر منها، والمُلاحَظ أنه بينما كان الوجود العَرَبِيّ في أُورُبَّا مرتبطًا بالحَضَارَة والبناء، كان الوجود الأُورُبِّيّ في الشرق مرتبطًا بالمذابح والمجازر العنيفة. ففي القدس وصف المؤرخون الأُورُبِّيُّون المذابح بشكل

تفصيلي قالوا فيه إن الدماء بلغت منتصف قوائم خيول الفرسان، وإن الغزاة جمعوا أهل المَدِينَة –من كل الأديان والمذاهب– في ساحات المساجد وأعملوا فيهم القتل، وحبسوا اليَهُود في معبدهم وأحرقوه عليهم، بينما حوَّلوا المسجد الأقصى إلى إسطبل للخيل. وفي مدن الشام كانت المَدِينَة المفتوحة تباح للجنود ليسلبوها ويهتكوا نساءها ويُذَبّحوا أهلها كما يشاؤون، بل إن ثمة مشاهدات لمؤرخين أُورُبِّيِّين تثبت قيام بعض الفرسان بممارسة أكل لحوم البشر!

أما من ناحية الهوية فقد تم القيام بعملية طمس منظمة للهوية العَرَبِيَّة الإِسْلاَمِيَّة من خلال تحويل بعض المساجد إلى كنائس، وتعميم النمط الأُورُبِّيّ. وحتى الكنائس الشرقية لم تَسْلم، فقد تم سلب رجال الدين الأرثوذكس سلطاتهم الدِّينِيَّة على رعايا كنائسهم وحوصروا بالطرد والحبس والمصادرة في محاولة لفرض الكثلكة عليهم!

حتى الحلفاء البِيزَنْطيُّونَ لم يسلموا من الأذى، فسرعان من تم خلع أقنعة الصداقة والنصرة للإخوة في الدين، وبدت الأطماع الغربية في ممتلكات بِيزَنْطَة بأن تعرضت تلك الأخيرة لسلسلة من عمليات السلب والنهب والاستيلاء على المدن والحصون التابعة لها، بل إن إحدى الحملات الصَّلِيبِيَّة وُجِهَت بأكملها لإسقاط الأسرة البِيزَنْطِيَّة الحاكمة وإقامة أسرة كَاثُولِيكِيَّة موالية لروما!

هذه نبذة بسيطة عن الجرائم الأُورُبِّيَّة التي تم ارتكابها باسم نصرة المسيح الذي قيل في الكتاب المقدس على لسانه: "أحِبُّوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم"! تلك الجرائم التي تكفي أقلُّها شأنًا لمحو أي ارتباط بين الدين والمحاربين الأُورُبِّيِّين من خروجهم إلى الشرق.

– كذبة كبيرة ساذجة:

إن وصف تلك السلسلة من الحروب والحملات بالصَّلِيبِيَّة الدِّينِيَّة يُعتبر –بحقٍّ– أكبر كذبة في حقِّ الدين وكذلك أكثر أنواع وصور الكذب سذاجة. فنظرة واحدة إلى الممارسات الصَّلِيبِيَّة سالفة الذكر تكفي لإدراك عمق الكذبة. كذلك بدا الكذب وخداع النفس والآخرين في بعض التصرفات من قِبَل أمراء وملوك وقادة الجيوش الأُورُبِّيَّة، كتآمر بعضهم على بعض في أثناء الحرب –كما حدث من محاولة فيليب أغسطس التخلص من ريتشارد قلب الأسد بالاستعانة بالحَشَّاشين– أو كدخول بعضهم في معارك جانبية مع بعض متخذين فيها حلفاءَ لهم من العرب! أو حتى في تعاملهم مع أمور على مستوى أعلى، كسعيهم لقلب نظام حكم بِيزَنْطَة وإقامة نظام موالٍ لهم، وتركيز معظم غاراتهم

على مناطق لا عَلاَقة لها بالقدس -وجهتهم المعلنة- فقط لأن تلك المناطق أكثر والفضيحة الكبرى بدت عندما قرر ملك عاقل شريف شديد الوَلَع بالثقافة العَرَبيَّة -هو فريدريك الثاني ملك ألمانيا وصقلية- أن يحقن الدماء وأبرم معاهدة مع السلطان الكامل الأيوبي -سلطان مصر- حصل الصَّليبيُّون بمقتضاها على الجزء المَسيحي من القدس. فريدريك حصل بالضبط على المطلب المُعلَن للبابا والملوك الأوروبِّيين، ولكن هؤلاء لم يرضوا عنه فطرده البابا من رحمة الكَنيسَة (الحرمان الكَنَسيّ) وجرّد عليه حملة صليبية داخلية وعلى أسرته (آل هوهنشتاوفن) لأنه -على حد قوله- أقام سلامًا مع الكُفَّار، في إظهار واضح لحقيقة أن ما ناله فريدريك الثاني -بالسلام- لم يكن الهدف الحقيقي لا للبابا ولا لملوك أوروبّا!

هكذا إذن كانت الحملات الصَّليبيَّة من حيث الفكر والأهداف الحقيقية.. لتستحق الانضمام عن جدارة إلى قائمة أشهر الحروب التي شُنَّت وارتُكبَت فظائعها باسم الدين ورضا الإله البريء من هذا النوع من حقارات البشر!

قفزة واسعة أخرى نقفزها عبر القرون.. لنعطي أنفسنا فرصة لتعرُّف نوع جديد من سفك الدم وإزهاق الأرواح باسم الدين.. عن حرب تخوضها جيوش سرية تحركها قيادات خفية.. اختلف الكثيرون في تفسيراتها وتحليلاتها وإن اتَّفَقوا في تسميتها "الإرهاب"!

مصادر المعلومات:

١- البداية والنهاية: ابن كثير.
٢- العلاقات الإقليمية والحروب الصَّلِيبيَّة: د/ كمال بن مارس.
٣- صلاح الدين الأيوبي بين التاريخ والأسطورة: د/ محمد مؤنس عوض.
٤- الاستيطان الصَّلِيبيّ في فلسطين: يوشع براور.
٥- أسواق الشام في عصر الحروب الصَّلِيبيَّة: د/ عبد الحافظ عبد الخالق البنا.
٦- عالم الحروب الصَّلِيبيَّة: د/ محمد مؤنس عوض.
٧- عصر الحروب الصَّلِيبيَّة: د/ محمد مؤنس عوض.
٨- مصر في العصور الوسطى: د/ محمود الحويري.
٩- الصَّلِيبيُّون في فلسطين: د/ سامية عامر.
١٠- عالم الصَّلِيبيّين: يوشع براور.
١١- في تاريخ الأيوبيين والمماليك: د/ قاسم عبده قاسم.
١٢- الحروب الصَّلِيبيَّة- السِّيَاسَة، المياه، العقيدة: د/ محمد مؤنس عوض.
١٣- العصور الوسطى الباكرة: نورمان كانتور.
١٤- حَضَارَة أُورُبَّا العصور الوسطى: موريس كين.
١٥- مصر والبندقية: د/ ناجلا محمد عبد النبي.
١٦- المُسْلمُون وأُورُبَّا: د/ قاسم عبده قاسم.
١٧- عصر سلاطين المماليك: د/ قاسم عبده قاسم.
١٨- ماهية الحروب الصَّلِيبيَّة: د/ قاسم عبده قاسم.
١٩- بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس.
٢٠- تاريخ الشعوب الإِسْلاَمِيَّة: كارل بروكلمان.
٢١- شمس الله تشرق على أرض العرب: زيجريد هونكه.
٢٢- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي.
٢٣- موسوعة تاريخ العرب: عبدعون الروضان.
٢٤- تاريخ السَّلاَجِقَة في بلاد الشام: د/ محمد سهيل طقوش.
٢٥- تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى: د/ محمد سهيل طقوش.
٢٦- تاريخ المماليك: د/ محمد سهيل طقوش.
٢٧- تاريخ الأيوبيين: د/ محمد سهيل طقوش.
٢٨- تاريخ الزنكيين: د/ محمد سهيل طقوش.
٢٩- تاريخ الفَاطِمِيّين: د/ محمد سهيل طقوش.

٣٠- الحروب الصَّلِيبِيَّة كما رآها العرب: أمين معلوف.
٣١- الله ليس كذلك: زيجريد هونكه.

- أوروبَّا عشية إعلان الحروب المقدسة

نقطة انطلاق الحملات والحروب الصَّليبيَّة كانت تلك الخطبة التي ألقاها البابا أوربان الثاني سنة ١٠٩٥م في "كليرمون" بجنوب فرنسا. حيث أعلن فتح باب "الجهاد المقدس لطرد المسلمين" "الكفار الهراطقة الوثنيين" -على حد قول الصَّليبيّين- من فلسطين الأرض المقدسة، واستعادة قبر المسيح منهم وتأسيس مملكة أورشليم المقدسة.

خطبة البابا جاءت في وقت كانت أوروبَّا فيه تشتعل بالاضطرابات. فانهيار الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة في بدايات العصور الوسطى الباكرة، وتفككها، أنشأ قوى جديدة، مثل الملكيات في فرنسا وإنجلترا وألمانيا، والجمهوريات الإيطالية مثل بيزا والبندقية وفلورنسا، فضلاً عن ظهور سلطة الكنيسة الكاثوليكيَّة في روما كوريث شرعي للسلطة العاتية لأباطرة الرُّومان. هذا غير القوى الداخلية في كل دولة والممثَّلة في السادة الإقطاعيين. ساد بين كل تلك القوى صراع على السيطرة والنفوذ أدّى إلى نشوب سلسلة من المعارك والمؤامرات حاول البابوات في روما منعها من خلال بعض المبادرات، كمبادرة "سلام الله" التي تمنع القتال في أيام معينة من السَّنة، وتُقر أن تكون تحت يد البابا قوة عسكرية يستخدمها للفصل بين المتحاربين من سادات أوروبَّا. لنا أن نتخيل خطورة الوضع السِّياسيّ الأوروبّيّ من ملاحظة استمرار حالة الاشتعال في أوروبَّا منذ سقوط الدَّولة الرُّومانيَّة وحتى خلال وبعد مبادرة أوربان الثاني.

هذا عن الطبقة الحاكمة، أما عن الشعب فقد كان مطحونًا بين المجاعات الضارية التي كانت ضرباتها تتوالى من حين إلى آخر، أو الأوبئة القاتلة كالطاعون، التي حصدت أرواح الآلاف، أو تحت طغيان السادة الإقطاعيين، حيث كان سكان القرى بالذات يعيشون في حالة أسر دائم للأرض التي يعملون بها، في نظام يكون فيه المرء لا حرًّا ولا عبدًا هو نظام "الأقنان" ومفردها "قن" القن كان حرًّا من الناحية النظرية، لكنه عمليًّا لا يستطيع ترك أرض سيد إقطاعيته إلا بإذنه، وكان يورِّث القنانة أبناءه، بمعنى أنهم بدورهم، جيلا وراء الآخر، لا يجوز لهم مغادرة أرض ساداتهم إلا بشروط عسيرة جدًّا. وكان السادة يعيشون من عَرَق هؤلاء الفلاحين بشكل كامل، بل كانوا أيضًا -الفلاحين- عرضة لفرض الضرائب من قِبَل ساداتهم لتمويل مستوى المعيشة المرتفع للإقطاعي أو لتمويل حروبه ضدَّ منافسيه وخصومه.

في وسط تلك الظروف القاسية -ونحن لم نذكر سوى القليل- جاءت دعوة البابا أوربان الثاني لتُحدث هزة عنيفة داخل وخارج أوروبَّا خلال السنوات الطويلة التالية!

دماء على عتبات الإله – الختام

قد يحسن البعض الظن بنية بأمراء الإرهاب فيقول: "يحسبون أنفسهم على صواب" والحقيقة أن هذا القول إن صَحَّ على من انضمُّوا إلى تلك الجماعات من الجُهَّال والشباب الغرَ وضعاف العقول، فإنه لا يصحُّ على زعماء تلك التنظيمات، فهم إما عالم بالدين حاصل في على الشهادات العليا، فهو لا يُعذَر بجهله، وإما مدَّعٍ للعلم يتحدث بالطلاسم ليخفي جهله عن أتباعه، وهذا لا يمكننا افتراض حسن نيته! ولا يمكن –بأي حال من الأحوال– أن نصدقه حين يقول: "إنما فعلته مرضاة لله"

ونحن لسنا هنا بصدد الحديث بالتفصيل عن التنظيمات الإرهابية في مصر[1] خلال تلك الفترة الدامية من تاريخها الحديث، فقط نحن نعرض للصورة العامة لأداء تلك التنظيمات عملها الإجرامي وأدلة نفي ادِّعائها المحاربة لأجل نصرة الدين.

– التكفير والتربة الخصبة:

المهمة الأولى لدُعاة التطرُّف كانت إقناع المراد تجنيدهم بصدق القضية وتكفير المجتمع كمبرر لاستباحة دماء وأموال الناس. في ذلك الوقت (بداية الثمانينيات) كانت مصر تربة خصبة لبذور التكفير. فالانفتاح وما صحبه من انقلاب في قيم ومعايير المجتمع وعجز نسبة ضخمة من الشباب عن مجاراتها، والسلام مع إسْرَائيل الذي أثار غضب فئة كبيرة من المتحمسين للقضية العَرَبيَّة، كانا وترين أساسيَّين لعب عليهما هؤلاء الدعاة فتوجهوا بدعواهم إلى الفئات المحبَطة المطحونة من الشباب غير المثقف: "هذا النظام

الذي أدخل قيم المحسوبية والرشوة فحرمك حقّك في الوظيفة المحترمة وأعطاها لابن فلان أو علان هو نظام كافر! وهذا المجتمع الذي سكت على هذا الظلم مجتمع كافر! والكافر دمه وماله حرام! لا تحزن على الوظيفة فمعنا ستكون مجاهدًا عظيمًا يشار إليه بالبَنَان، وقد تصبح أميرًا لجيش أو جَمَاعَة من المجاهدين هنا يحقق الدّاعي نجاحين: الأول هو استغلال طاقة سخط الشابّ على مجتمعه واستعداده لتقبُّل فكرة أن مجتمعًا فعل به هذا هو مجتمع كافر، والثاني مداعبة استماتة الشاب أن يعوّض طموحه المفقود فيضع أمامه طموحًا مليئًا بالمسميات البرّاقة مثل "بطل" و"مجاهد" و"أمير" هنا تتحرك متلازمة الغضب وضعف الثقافة مع استعجال تحقيق الطموح -كسمة طبيعية في الشاب في أول عمره- فتنتج المادة الخام للإرهابي!

- تكفير.. استباحة.. إمارة.. وكفى:

الدليل القوي -حقًّا- على أن ما كان يهمُّ هؤلاء هو الحكم وكفى، هو غياب أي منهج بنائي أو إصلاحي لهم؛ كانوا يتخذون شعارات مطّاطة عائمة مثل "الجِهَاد حتى إسقاط حكم الطواغيت وإقامة دولة الإسْلاَم" أو "الحكم بالشريعة الغرّاء" لكن لم تكن لديهم رؤية معلنة للدولة الإسْلاَميَّة المنشودة، لم يقدّموا برنامجًا واحدًا محترمًا للتنظيم الاجتماعي المستقبلي في حالة توليهم الحكم. ما كان هو حالة تكفير عامٌّ لكل مَن عارضهم أو حتى اتخذ منهم موقفًا محايدًا، واستباحة لدماء وأموال المجتمع ككل بما تضمنه ذلك من عمليات سطو مسلح على تجار ومصارف وصاغة، وعمليات تفجير لا يمكن بأي حال من الأحوال توقُّع هوية ضحاياها، وتنظيم اغتيالات لشخصيات بعينها، كل هذا دون إجابة للسؤال المعلق "وماذا بعد؟"، ممّا يعني أن المسعى الأساسي كان "أن يحكموا هم" وبعد ذلك "يحلّها ألف حلاّل"

مؤهلات الحكم:

وكما لم يكُن لهم برنامجٌ مستقبليٌّ لم تكُن لديهم كوادر مؤهلة بحقٍّ للحكم لا من الناحية المدنية البحتة ولا من الناحية الشرعية. فالمتأمِّل لأبرز أمراء تلك الجماعات يجد أغلبهم ممن قرؤوا قشور الدين وبعض الفتاوى الجِهَادية للفقيه ابن تيمية وكان المصدر الأساسي لمعظمهم كتاب "معالم في الطريق" للمفكر الإخْوَاني سيد قطب (وهو المرجع الأساسي لمعظم تلك التنظيمات) وكتاب "الفريضة الغائبة" للمتطرف محمد عبد السلام فرج، وهما كتابان بهما ما بهما من أفكار تكفير المجتمع واتهامه بالجاهلية والدعوة

للثورة الدِّينيَّةِ المسلحة في مخالفة صارخة للمبدأ الشرعي القاضي بعصمة دم ومال من قال "لاَ إِلَهَ إِلاَّ اَللهُ" وكذلك تحريم المساس بأهل الذِّمَّة من غير المُسْلمينَ ما داموا يعيشون في سلام في المجتمع الذي تعيش فيه أغلبية مسلمة. إذن فلم يكُن منهم شخص مؤهَّل فعنيًا لحكم الدَّوْلَة، خصوصًا مع تخلف شروط الإمامة عنهم بالذات شرط "العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام" وشرط "الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح" فهم أولاً أساؤوا التعامل مع فتاوى ابن تيمية واستعانوا بها في غير موضعها، وكذلك استعانوا بالكتابين المذكورين وما بهما من استباحة لأمور حرَّمها الله إلا بالحَقِّ، ممَّا ينفي عنهم صفة العلم، وثانيًا لم يظهر منهم أي رأي في سياسة الرعية ولا تدبير المصالح، بل كانت آراؤهم على طول الخط في "تكفير الرعية وتدمير المصالح!"

ولو حاولنا تطبيق شروط "إمارة الاستيلاء" -أي الإمارة للمستولي عليها- عليهم، لَمَا انطبقت أيضًا، حيث إن من شروطها "أن يكون استيفاء الأموال الشرعية بحق"، بينما كانوا هم يعتمدون على السلب والسرقة في تحصيل الأموال، ومن شروطها أيضًا "أن يكون الأمير في حفظ الدين ورعًا عن محارم الله" بينما هم لم يراعوا حرمة دم ولا مال ولا عِرض، فلا يحق لهم هذا النوع من الإمارة.

وحتى دعواهم إقامة الخلاَفَة لا تملك السند الشرعي، حيث إن من أهم شروط الخَلِيفَة أن يأتي بالمبايعة بغير إكراه وأن يكون قُرَشيَّ الأصل، بينما هم يريدون نيل الحكم بقوة السلاح ولا نعلم فيهم قُرَشِيًّا، وحتى لو ادَّعَوا ذلك فأين الدليل؟

- الكذب على السلف:

لم يكتفوا بهذا فحسب، بل مارسوا كذبًا صريحًا على السلف الصالح بإدعائهم أنهم "سلفيون"، فكانوا يأتون بالأحاديث والآيات الحاضَّة على قتال الكُفَّار ويلْوُون أعناقها بحيث يُقنعون الناس أنها تنطبق على حالاتهم، فمن بداية تكفيرهم المجتمع كانوا يمارسون كذبًا فاحشًا حيث إن فكرتهم في تكفير المجتمع تنتفي مع الأحاديث القائلة بأن نطق الشهادتين وإقامة باقي أركان الإِسْلاَم الخمسة يكفي لاتصاف المرء بالإِسْلاَم وليُترَك ما في صدره لله تعالى، ودمه أكثر حرمة من الكعبة ذاتها! وعن إباحتهم دم وممتلكات غير المُسْلمينَ تجاهلوا متعمدين الحديث النبوي القائل: "من آذى ذمِّيًا فقد آذاني"، والذِّمِّيُّ هو غير المَسلم الذي يعيش مسالمًا في بلد إِسْلاَمي. وكذلك كانَ من مبررات تكفيرهم الدَّوْلَة اتخاذها بعض مظاهر الإدارة الأجنبية، كنظام المؤسسات والإدارات، بدعوى

أنها نظم ابتدعها الكُفَّار، في حين أن المُثْبَت تاريخيًا أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) هو أول من أدخل نظام الدواوين الفَارِسِيَّ الأصل، بل إن كلمة "ديوان" نفسها فَارِسيَّة! ومبدأ الاغتيال الذي قاموا بتوسيع تطبيقه يعارض الحديث الشريف "إن الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن"، والفتك في اللغة هو القتل غيلة! أي أنهم –الذين يدَّعون أنهم وحدهم المؤمنون– فعلوا وأباحوا ما يضع إيمانهم موضع نظر وفقًا للشريعة التي يدَّعون الدفاع عن تطبيقها!

بل تمادوا فسمُّوا عملياتهم الإرهابية "غزوات"، فلو خرجنا عن النطاق المصْرِيّ لفوجئنا بأن أصحاب الفكر المتطرف يطلقون على عملية ١١ سبتمبر "غزوة مانهاتن" في حين أن شروط الغزوات واضحة صارمة: "لا مساس بالأعزل، لا مساس بالممتلكات، لا تدمير ولا حرق، لا قتل لنساء أو شيوخ أو عَجَزَة، لا مساس برجال الدين، من لم يحاربكم لا تحاربوه" هكذا جاء في تعليمات الرَّسُول (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) والخلفاء من بعده لمن كانوا يخرجون للجهاد من السلف الذي يتمسح به هؤلاء المدَّعون!

وعن ادِّعائهم حقَّهم في تطبيق الحدود والتعزيرات بأنفسهم، وهذا ما جرى في بعض المناطق العشوائية أو النائية التي كانت لهم سيطرة جزئية عليها، نقول إنهم خالفوا قاعدة شرعية هامة هي أن وليّ الأمر وحده هو من يملك الحق في إقامة الحدود والعقوبات والقصاص، وأكبر دليل على هذا هو خروج الإمام علي بْن أبي طالب (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ) للتصدي لمن أرادوا القصاص لدم عُثْمَان بْن عَفَّان (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ودارت بينه وبينهم موقعة الجمل، ثم تصدِّيه لمُعَاوِيَة بْن أَبِي سُفْيَان (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) في معركة صفين لنفس السبب.

هذه هي أدلَّة فساد قضيتهم من نفس المصدر الذي ادَّعوا الاستقاء منه، وهي كذلك أدلَّة على كذبهم، وتعاملهم مع تلك المصادر فقط بما يخدم مصالحهم.

– الابتداع في الدين:

و لم تتوقف جرأتهم على الدين في سبيل أهدافهم الدنيوية على الكذب على السلف، فقد بدرت من بعضهم بعض الابتداعات في الدين. فمثلا قال بعضهم بحرمانية الصلاة في المساجد إلا التي يقيمونها هم، لأن المساجد التي لم يقيموها مساجد "ضرار" أقامتها الحكومة "الكافرة" بغرض الضرر بالمؤمنين. وأبطل بعضهم صلاة الجمعة من باب أن الجمعة تتطلب إقامتها تَمَكن المُسْلمِينَ من بلادهم بينما بلادنا الآن –على حد قولهم– بلاد كفر! وحرّموا كذلك الصلاةَ فِي جَمَاعَة مع مَن سواهم ولو من باب الحرج، لأن مَن

سواهم كافر تُفسد صلاته صلواتهم. هذا فضلا عن قيام بعضهم بسرقة المواشي والدواجن وانتقاء خيرها لإطعام أميرهم، وإباحة بعضهم الاعتداء الجنسي على غير المسلمات من باب أنهن "ما ملكت أيمانكم"، إلى آخر كل تلك الحماقات في حق الشريعة البريئة من هذا الدَسّ الحقير.

ولا أحتاج أن أقول إن مجرَّد الحكم على فرد واحد بأنه كافر دون أدلة شرعية كافية هو في حد ذاته بدعة، فما بالنا بالحكم على شعب بأكمله؟!

- التناقض الفاضح:

وما أثبت أيضًا حالة الكذب الكبيرة التي أرادوا إعاشة الناس فيها تناقض موقفهم من الدول الغربية -بالذات أَمْرِيكَا- ومن الأنظمة الحاكمة لبعض الدول العَرَبِيَّة والإِسْلاَمِيَّة. فأَمْرِيكَا التي يعتبرونها اليوم "الشيطان الأعظم" كانت حليفهم المُخْلص وصديقهم الصدوق خلال وجود كوادرهم في صفوف المجاهدين ضدَّ الاحتلال السُوفْيتي في أفغانستان، وكانت مصدر التسليح والتمويل الأول لهم. والأنظمة العَرَبِيَّة التي يتهمونها بالكفر -كالنظام السُعُوديَ والنظام المصْرِيِّ- هي الأنظمة التي فتحت باب السفر للراغبين في الجِهَاد في أفغانستان وطرد المحتل الروسي آنذاك. وإيران التي يكفِّرونها لشيعيَّة مذهبها هي الدَّوْلَة التي احتضنت كثيرًا منهم لاجئين خلال فترة الثمانينيات، بل وأَطلَقت اسم أحدهم -خالد الإِسْلاَمبولي- على أحد الشوارع الرئيسية في طهران! وباكستان التي فتحت لهم الحدود مع أفغانستان خلال سنوات المقاومة بل ودعمتهم بالسلاح والتدريبات، هي التي يوجه تنظيمهم الأم "القَاعدَة" الضربات إليها الآن بكل عنف! المسألة إذن ليست مسألة مبدأ، بل هي مسألة "أنت معنا إذن أنت مؤمن.. أنت ضدنا.. إذن أنت كافر"!

- ضرب الإِسْلاَم من الداخل:

هؤلاء أكثر من أساؤوا إلى الإِسْلاَم خلال تاريخهم القذر، فتكفيرهم مَن سواهم، وممارستهم العنف المنظم والعشوائي ضدَّ المجتمع، وإصرارهم أنهم الوكيل الوحيد للإِسْلاَم والمُسْلمينَ، خلق نوعًا من التوجس من كل شيء يحمل صفة الإِسْلاَم ولو من بعيد، وأعطى الأَعداء الحقيقين للإِسْلاَم حُجَّةً عليه قدَّمها لهم الارهابيون على طبق من ذهب. أما عن الداخل فقد استفز ذلك التيَار أصحاب التيَّارَات العلمانية واليسارية -الذين كانوا يتعايشون فكريًّا مع أصحاب التيَّارَات التديُّنية- وجعل لديهم حالة من

الترَبُّص بالتَّيار الإِسْلاَمي ككلٍّ، زادت بعد عمليات الاغتيالات في حقَ بعض الليبراليين أو العلمانيين مثل الدكتور فرج فودة (رَحمَهُ الله) الذي اغتيل بيد الإرهاب سنة ١٩٩٢، وأيًّا كانت الخلافات في الرأي مع الدكتور فودة أو غيره فإنها لا تبيح سفك الدم بهذا الشكل البربري المنافي لأبسط قيم الإِسْلاَم الدَّاعِي إلى الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

تلك الجرائم سمحت لغلاة العلمانيين أن يتخذوا تيارًا آخر لسان حاله يقول: "التديُّن كان بداية للتطرف إذن فلنجفف التطرف من منابعه وهذا بمعاداة التديُّن"، وهو طبعًا منطق خاطئ منافٍ للطبيعة المْصْرِيَّة المتديِّنة منذ أن عرف العالم حَضَارَة مصر القديمة!

إذن فهؤلاء الإرهابيون كانوا نقمة سوداء، لا في حق عصرهم فحسب، بل في حق كل عصور الإِسْلاَم الذي أصبح كل معادٍ له يتخذ من تصرفات أئمة الإرهاب مبرِّرًا لمهاجمته حاضرًا وتاريخًا!

- ختــام:

مسح الأيدي الملوثة بدماء الملايين على عتبات الإله المتهم ظلمًا بالدعوة إلى سفك الدم لم يتوقف، ولن يتوقف ما وُجِدَ ثالوث الشيطان الآمر بالشرِّ.. والإنسان الطامع في المال والسلطة، والسلاح الذي لا يقول: "هذا حقٌّ وهذا باطلٌ" وما استعرضناه يبقى مجرَّد قشرة من "بعض العيِّنات" من خيط الدم السميك الممتد عبر التاريخ إلى ما شاء الله ما دامت تغذيه أطماع البشر.

مصادر المعلومات:

١- البداية والنهاية: ابن كثير.
٢- الأحكام السلطانية: الإمام الماوردي.
٣- أحكام أهل الذِّمَّة: ابن قيم الجوزية.
٤- من يتحدث باسم الإِسْلَام: جون إسبوزيتو- داليا مجاهد.
٥- الفِرَق والجماعات الدِّينيَّة: د/ سعيد مراد.
٦- القَاعدَة وأخواتها: كميل الطويل.
٧- وصف مصر في نهاية القرن العشرين: د/ جلال أمين.
٨- عولمة القهر: د/ جلال أمين.
٩- الفتنة الطائفية: د/ محمد عمارة.
١٠- التنوير الزائف: د/ جلال أمين.
١١- الجريمة: الإمام محمد أبو زهرة.
١٢- أصول الفقه: الإمام محمد أبو زهرة.
١٣- تاريخ المذاهب الإِسْلَاميَّة: الإمام محمد أبو زهرة.
١٤- تشريح الشخصيَّة المِصْريَّة: د/ أحمد عكاشة.
١٥- ثقوب في الضمير: د/ أحمد عكاشة.
١٦- عصر التشهير بالعرب والمُسْلمينَ: د/ جلال أمين.
١٧- إحقاق الحق: فهمي هويدي.
١٨- المفترون: فهمي هويدي.
١٩- تزييف الوعي: فهمي هويدي.
٢٠- القرآن والسلطان: فهمي هويدي.
٢١- طالبان.. جند الله في المعركة الغلط: فهمي هويدي.
٢٢- حتى لا تكون فتنة: فهمي هويدي.
٢٣- الجَمَاعَة الإِسْلَاميَّة المسلحة في مصر: د/ سلوى محمد العوا.
٢٤- مواطنون لا ذميون: فهمي هويدي.
٢٥- محمد نبي لزماننا: كارين أرمسترونج.
٢٦- شمس الله تشرق على العرب: د/ زيجريد هونكه.
٢٧- دفاعًا عن مقولة الحَضَارَة الإِسْلَاميَّة المَسيحيَّة: ريتشارد بوليت.
٢٨- تاريخنا المُفتَرَى عليه: د/ يُوسُف القرضاوي.
٢٩- الحق في التعبير: د/ محمد سليم العوا.

٣٠- المدين والوطن: د/ محمد سليم العوا.
٣١- النظام السّيَاسيّ للدولة الإِسْلاَمِيّة: د/ محمد سليم العوا.
٣٢- منهج عمر بن الخطاب في التشريع: د/ محمد بلتاجي.
٣٣- نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإِسْلاَمي: ظافر القاسمي.

هامش الختام

أهم الجماعات الإرهابية في مصر

خلال تلك الفترة التي شهدت فيها مصر حربًا عاتية بين أجهزة الأمن والإرهابيين الذين ارتدَوْا عباءة الدين، عُرِفَت بعض التنظيمات الإرهابية، هذه أشهرها:

– تنظيم "القَاعدَة":

هو تنظيم أنشأه السعودي أسامة بن لادن سنة ١٩٨٨ في أفغانستان خلال الحرب ضدَّ الاحتلال السُوفْيتي لهذا البلد. كان الغرض الأساسي من التنظيم هو جمع المجاهدين العرب المتفرقين بين أحزاب وميليشيات المقاومة الأفغانية، وضمهم في تنظيم واحد يمثل العرب، وهذا خوفًا منه من تورُّط العرب في النزاعات بين تلك الأحزاب التي كانت قد بدأت الخلافات تدب بينها على كعكة الحكم، ورغبة منه أن يكون هذا التنظيم بمثابة صمام الأمان ضدَّ أي صدامات داخلية بين الميليشيات الأفغانية. هكذا كان الهدف الظاهر لتأسيس "القَاعدَة". ولكن بعد انتهاء حرب التحرير، أخذت القَاعدَة اتجاهًا تكفيريًا وذلك بأن كفَّرت الحُكّام العرب ووصفتهم بأنهم "طواغيت" و"صنائعَ أمْرِيكا"وكذلك كفَّرت الشعوب المحكومة ما دامت لم تقدم لـ"القَاعدَة" يد العون، وبدأت في شن حرب دامية رفعت فيها شعار إقامة دولة الإسْلاَم الجديدَة وبعد أن كان أعضاء "القَاعدَة" مجاهدين يدافعون عن بلد إسْلاَمي هو أفغانستان أصبحوا إرهابيين يسعون لضرب بلادهم من خلال إقامة بعض التنظيمات المنضوية تحت راية القَاعدَة مثل "جَمَاعَة الجِهَاد المْصْرِيّة"

– جَمَاعَة الجِهَاد المْصْرِيَّة:

هي تنظيم إرهابي خرج من عباءة "القَاعدَة" وبدأ الخروج من منطقة أفغانستان وباكستان بشكل بطيء لكن واثق، بلغ ذروته سنة ١٩٩٣، عندما بدأت حكومة الراحلة بيناظير بوتو تُظهر عدم ترحيب منها بعَنَاصر "القَاعدَة" في الأراضي الباكستانية. وكما جاء في كتاب "القَاعدَة وأخَوَاتُهَا" للصحفي اللبنانيّ كميل الطويل، اتخذ قاعدته الأولى في السودان، برعايةَ النظام السوداني الذي كانت بينه وبين النظام المصْريّ –آنذاك– مشكلات وخلافات صارخة. كان التنظيم يعمل تحت ستار مجموعة من الشركات المملوكة لأسامة بن لادن وكانت قيادة التنظيم بيد الدكتور أيمن الظواهري، الساعد الأيمن لأسامة بن لادن، الذي اشترى مساحات كبيرة من المزارع ليتخذها أماكن لتدريب الكوادر الإرهابية المرشحة للذهاب إلى مصر، كما كان يُرسِل السلاح إلى الموجودين بالفعل في مصر من خلال قوافل الجمال التي كانت تعبر الحدود السودانية المصْريَّة. الدعم السوداني للحركة لم يستمرَّ طويلاً، فقد قام أيمن الظواهري بإعدام صبيَّين سودانيين بتهمة التعامل مع المخابرات المصْريَّة، التي كانت قد بدأت الانتباه لوجود ذيل لـ"القاعدة" على مرمى حجر من مصر، خصوصًا بعد محاولة اغتيال الدكتور عاطف صدقي رئيس الوزراء آنذاك (١٩٩٣). إعدام الصبيَّين أثار غضب السلطات السودانية التي رأت أن التنظيم بدأ يتعامل كأنه دولة داخل دولة، فقامت

بطرده خارج أراضيها وكان هذا سنة ١٩٩٥، وبعدها مباشرة قام التنظيم بتفجير سفارة مصر في باكستان وأعلن أن ذلك جاء ردًا على عملية الخرطوم.

- الجَمَاعَة الإِسْلَامِيَّة:

نشأت سنة ١٩٧٠ في الجامعات المِصْرِيَّة بدعم من الرئيس الراحل أنور السادات (رَحِمَهُ الله) في محاولة منه لبناء حائط صدٍّ للنشاط الشيوعي بين الشباب الجامعي. بدأت نشاطها في شكل نشاط جامعي عادي، وربطتها عَلاَقة قوية بالإِخْوَان، حتى بدأ يتكوّن فيها -الجَمَاعَة- تيار قوي معارض للإِخْوَان وأميل إلى فكر جَمَاعَة الجِهَاد السَّلَفيَّة ممَّا أدَّى في النهاية إلى اصطدام الجَمَاعَة بالإِخْوَان والسلطة معًا سنة ١٩٧٩ ثم بدأت من سنة ١٩٨٠ في إصدار مجموعة من المنشورات ضدَّ الأقباط والكنيسة القِبْطِيَّة، وانتقدت موقف النظام من إِسْرَائِيل ومعاهدة السلام مع الدَّوْلَة الإِسْرَائِيلِيَّة، وكذلك استضافة مصر لشاه إيران المخلوع بعد ثورة الخوميني، وفي النهاية بدأت الجَمَاعَة تتحول إلى النشاط الإرهابي من عام ١٩٨١ ونفذت العديد من العمليات الإرهابية العنيفة أبرزها اغتيال الدكتور رفعت المحجوب رئيس مجلس الشعب آنذاك (١٩٩٠)... حتى أعلن أبرز قادتها التوبة عن أفكارهم بعد سلسلة من المراجعات، وكان ذلك سنة ١٩٩٧، الأمر الذي أحدث انشقاقًا داخل الجَمَاعَة وقع خلاله هجوم الأقصر (١٩٩٧) الذي أسقط ٥٦ ضحية من السُّيَّاح الأجانب وأدَّى إلى إقالة اللواء حسن الألفي من وزارة الداخلية. وسنة ١٩٩٩ اتحدت آراء وأفكار كل قيادات الجَمَاعَة على نبذ العنف تمامًا والرجوع عن الفكر الجِهَادي السابق.

وُجِدَت تنظيمات أخرى مشهورة، وكانت لها خطورتها التي لا يستطيع أحد إنكارها، كتنظيم "طلائع الفتح" و"الشوقيون" و"السماويون" و"التكفير والهجرة" و"تنظيم الجِهَاد" (الذي قام باغتيال السادات)، وغيرها، لكننا هنا بصدد عرض لبعض المعلومات السريعة عن الإرهاب في مصر بشكل عامٍّ، بينما يحتاج الحديث عن كل تلك التنظيمات إلى دراسة طويلة وافية لسنا بصددها الآن.

نحن وأَبْنَاء الْعَمِّ إِسْرَائيل - الجزء الأول

يزعم بعض دعاة السلام أننا أَبْنَاء عم... أن الجد واحد والدم واحد وأن لا مبرر للنزاع بين الأقرباء.. فكرة إن بدت شاعرية منفصلة عن الواقع فإنها تحتاج إلى نظر. هل نحن حقًّا أَبْنَاء عم؟ وهل تلك القرابة تعني أن لا مجال للنزاع بيننا؟ هل يكفي ذلك الزعم لننكر سنوات من الصراع؟ ولنفترض أننا أَبْنَاء عم، فهل يكفي هذا لمحو المرارات؟ عن تاريخ من يزعمون أننا وهم "أَبْنَاء عم" عمَّن يُفتَرَض أنهم أَبْنَاء عمنا يعقوب (عَلَيْهِ السَّلاَم)، المُلقَب بـ"إِسْرَائِيل" سنبحث وننظر في زعمهم، وإن بقي ما في القلب في القلب تجاه من ناصبونا منهم العداء.

- البداية:

بداية الْيَهُود ليست، كما يحسب الكثيرون، في نزول الوحي على نبي الله موسى، (عَلَيْهِ السَّلاَم)، بل إنها تعود إلى قرون تسبق هذا، تحديدًا عندما رأي يعقوب (عَلَيْهِ السَّلاَم) في الرؤيا أنه يصعد سُلَّمًا ترقاه الملائكة وتنزل عليه، وعندما استيقظ علم أنها النُّبُوَّة والتكليف من ربه، وسُمِّي من يومها "إِسْرَائِيل"، أي -في أحد أشهر التفسيرات- "الذي أسرى به الله"، ومنها نالت الأجيال المنحدرة من صلبه ذلك اللقب الأبدي "بَنِي إِسْرَائِيل

في تلك الأيام، كانت العلاقات بين بَنِي إِسْرَائِيل وبني إِسْمَاعِيل قوية، كانوا أَبْنَاء

عمومة، يعرف كلٍ منهم للآخر قرابته وصلته، وكانوا يتزاورون ويتناصرون ويعين بعضهم بعضًا.. لم تكن القلوب قد تغيرت، و لم تكن الضغائن قد وُجِدَت بينهم.

أول تجارب بَنِي إِسْرَائِيل في التعامل مع من سواهم من الأمم كانت بلجوئهم إلى مصر، بأمر يُوسُف (عَلَيْهِ السَّلاَم)، هربًا من المجاعة، وسكنهم بأرض "جوشن" (الشرقية حاليًا)، وذلك عندما كان يُوسُف (عَلَيْهِ السَّلاَم) يتولى رئاسة وزراء مصر، التي كانت تحت حكم الهِكْسُوس آنذاك، في القصة المعروفة المذكورة في سورة يُوسُف في القرآن الكريم.

دارت الأيام، ومات إِسْرَائِيل، ثم مات يُوسُف، وضعفت دولة الهِكْسُوس ثم انهارت على يد أحمس، الذي طردهم خارج مصر، أما بَنُو إِسْرَائِيل، الذين كانوا في عهد الهِكْسُوس من الفئات العليا بمصر، فقد انقلب وضعهم واضطهدهم المَصْرِيُّونَ واستعبدوهم، كتصرف طبيعي مألوف من أي سلطة جديدة تجاه جَمَاعَة بشرية موالية للسلطة السابقة المُعادِيَة. بقي الاضطهاد حتى بعثة رسول الله موسى (عَلَيْهِ السَّلاَم)، وفراره بقومه من مصر عبر البحر الأحمر إلى سيناء، حيث مكثوا أربعون عامًا تولى فيها موسى حكمهم وتنظيم أمورهم، ثم تولاه من بعده فتاه يوشع بن نون، الذي كلَّفه الله تعالى النُّبُوَّة بعد موت موسى. يوشع (عَلَيْهِ السَّلاَم) قاد القوم في معركة ضدَّ سكان فلسطين، حيث اجتاحوها وطردوهم منها وأقاموا فيها دولتهم التي تولى حكمها في البداية رجال الدين والحكماء، ثم بعد ذلك أصاب تلك الفئة الحاكمة الفساد، ممَّا تسبب في هزيمة ثقيلة لبَنِي إِسْرَائِيل في إحدى معاركهم، فطلبوا من نبيهم آنذاك، شمويل (عَلَيْهِ السَّلاَم)، أن يطلب من الله أن يولي عليهم ملكا يقودهم في السلم والحرب، فكانت ولاية الملك طَالُوت، أول ملوك إِسْرَائِيل.

– مُلكٌ وعَرش:

بعد استشهاد طَالُوت في إحدى المعارك، تولى داوُد (عَلَيْهِ السَّلاَم)، قائد جيشه وزوج ابنته، المُلك، ثم من بعده سليمان (عَلَيْهِ السَّلاَم)، الذي بلغت المملكة في عهده شأنًا عظيمًا، حيث ربطتها علاقات طيبة ببلاد اليمن وفينيقيا ومصر. ثم انهار كل هذا بعد موت سليمان، عندما دبَّت الخلافات الداخلية بين الشعب الإِسْرَائِيلي، وفقدت المملكة وحدتها، فقامت في الشمال مملكة يِسرائيل وعاصمتها "السامرة" وفي الجنوب مملكة يهودا وعاصمتها "القدس المملكة الشمالية لم تستمرَّ كثيرًا، ففي النهاية سقطت

وأصبحت يهودا هي المملكة الوحيدة لبَني إسْرَائيل، وقد اتخذت اسمها، وكذلك اليَهُود، من "يهودا بن يعقوب" الذي أمر إخوته ان لا يقتلوا يُوسُف وأن يلقوه في الجُبّ. وبزوال دولة الْيَهُود في الشمال أصبحت مملكة يهودا في مواجهة جيوش مملكة آشور (في العراق) التي كانت قد بدأت تتوسع على حساب جيرانها، بما كان لها من قوات متطورة شديدة القوة بمقاييس هذا العصر.

في تلك الأثناء كان بنو إسْمَاعيل قد بدؤوا يهاجرون من مكّة التي ضاقت بأهلها، فانطلقوا في جنبات الجزيرة العَرَبيَّة مكوّنين مجموعة من القَبَائل والدول القوية، كانت أبرزَها دولتا الأنباط في الأردن وعاصمتها "بترا" ودولة تَدْمُر في سوريا. في ذلك الوقت كان الخطر الآشوري يتعاظم ممَّا دفع أبْنَاء الْعَمِّ، بني إسْمَاعيل وبَني إسْرَائيل، إلى التحالف معًا لدفع غزوات الآشوريين الذين اجتاحوا أكثر من مرة أرض فلسْطين وشمال بلاد العرب واحتلُّوا بابل وشمال دلتا وادي النيل. ذلك التحالف انضمَّ إليه الْمَصْرِيُّونَ بقيادة بسماتيك الأول، والْبَابِلِيُّون بقيادة نبوخذ نصَّر، لينتهي ذلك الصراع الدموي الطويل بانهيار دولة آشور على يد جيوش الممالك المتحالفة.

بعد هزيمة الآشوريِين، انقلب نبوخذ نصَّر على حلفائه القدامى، وقرر مهاجمة مملكة بَني إسْرَائيل، ولأن الفساد الداخلي كان قد دبَّ فيها، فقد اقتحم الْبَابِلِيُّون أورشاليم (القدس) ودمَّروها تمامًا وحرقوا التوراة، ثم قسَّموا الشعب الْيَهُوديّ ثلاثة أقسام، قتلوا الأول وقاموا بسبي الثاني وتركوا الأخير الذي كان كلّه من العجائز والشيوخ. والذين تم سبيهم تم نقلهم إلى أرض بابل، في ما يُسَمَّى بالسَّبْي الْبَابِلِيّ، وتلك المرحلة كانت مرحلة تحوُّل في عَلاَقة الْيَهُود بغيرهم.. بالذات أبْنَاء عمومتهم العرب.

- الآية تنعكس:

فقد وقع أمران غيَّرا خطَّ سَيْر عَلاَقة الصداقة التاريخية بين العرب والْيَهُود: الأول تمَثَّل في سعي تكوُّن نوع من الحسد عند بعض بَني إسْرَائيل تجاه الممالك العَرَبيَّة التي بَقيَت على استقلالها واستطاعت التَّصَدِّي للغزو الْبَابِلِيّ، والآخر تمثل في أن الفظائع التي تَعرَّضَت لها مملكة بَني إسْرَائيل على يد بابل، أدَّت إلى تغيُّر الفكر الإسْرَائيلي، وخلق عقدة نقص كبرى، أو حالة بارانويا جماعية، توارثتها الأجيال، تتمثل في الخوف الدائم من الآخر وافتراض الشَّرِّ فيه على طول الخط، ممَّا أدَّى بالتالي إلى تكوُّن نوع من العنصرية الْيَهُوديَّة

ضدَّ أي آخر مهما كان، وكذلك في إيجاد فكرة عامَّة لدى الْيَهُود آنذاك أنهم شعب مختار تضطهده الأمم وتسعى لتدميره، وأن عليهم في المقابل أن يسارعوا هم بأكل مَن حولهم قبل أن يأكلهم هو. هذا الفكر المختلّ تمَّت صياغته في شكل تعليمات بلغت حدَّ القدسية، وأدَّت في ما بعد ذلك إلى خلق تلك الروح العدوانية عند نسبة كبيرة من بَنِي إِسْرَائِيل، تحكمت خلال القرون التالية في تعاملهم مع الآخرين، بالذات جيرانهم العرب.

المجموعة الضئيلة التي هربت من الْبَابِلِيِّين ومذابحهم، اتخذت طريقها في الجزيرة العَرَبِيَّة، حيث وجدت أرضًا ذات نخيل، لها صفات مذكورة في التوراة، تصفها أنها ستكون مهجرًا لنبيٍّ اقترب زمانه. هنا استقرت تلك الجماعات الْيَهُودِيَّة الهاربة، في تلك الأرض المسمَّاة يَثْرِب. تلك الهجرات تكررت عبر التاريخ، فالتوتر ساد أرض فلسْطين والشام بشكل عامٍّ، حتى بعد تحرُّر الْيَهُود من السَّبْي الْبَابِلِيّ، ففي عهد الرُّومَان سادت الاضطرابات العلاقات الْيَهُودِيَّة الرُّومَانيَّة، فمن تحالف كامل إلى تنافُر وتحارُب، كما أسهم حدثان في ذلك التوتر: الأول تمَثَّلَ في السِّيَاسَة الرُّومَانيَّة في الشرق التي أدَّت إلى إفساد العلاقات بين أَبْنَاء الْعَمِّ، وذلك بخلق المصادمات بين الأنباط والْيَهُود حتى فسدت العَلاَقة تمامًا، والآخر تمَثَّل في نجاح الرُّومَان في إسقاط الحكم العَرَبِيِّ في دولة الأنباط، بترها تمامًا وتحويلها إلى ولاية رومانية، ممَّا جعلهم يتفرغون لإخضاع بَنِي إِسْرَائِيل، بالذات خلال الصراع بين كليوباترا وأنطونيو من جهة، وأوكتافيوس من جهة أخرى، إذ كان كل جانب يسعى لخلق تحالفات وتكتُّلات ضدَّ الآخر، ممَّا كان يدفعه إلى محاولة فرض سيطرته على الشام بما فيها من دولة الْيَهُود ودول العرب، حتى استقرَّت الأمور في عهد أوكتافيوس بعد انتصاره على كليوباترا وأنطونيو، ثم قضائه بعد ذلك —ومن بعده خلفاؤه— على ثورة الْيَهُود وتحويل فِلسْطين إلى ولاية رومانية خالصة. ذلك العهد الطويل من الصدامات القاسية خلق حركَة هجرات يَهُودِيَّة متكررة إلى بعض واحات جزيرة العرب، مثل "خيبر" و"فدك" و"تيماء"، كما انتقل بعضهم للعيش في اليمن ومكَّة والطائف، حيث أنشَؤوا تجارات وعلاقات وأصبحوا من أهل البلاد بطرق مختلفة.

– يهود الجزيرة:

ففي مكَّة، استغلَّ بَنُو إِسْرَائِيلَ طبيعة البلد المتقبِّل للأجناس المتعددة وخلقوا شبكة من العلاقات الاقْتِصَادِيَّة والاجْتِمَاعِيَّة بل والثَّقَافِيَّة، وفي يَثْرِب كانت لهم السيطرة الكاملة

أولاً، حتي بعد هجرة قَبِيلَتَي الأوس والخزرج من اليمن إلى يَثرِب. ثم بعد ذلك وقع زعيم الجَمَاعَة الْيَهُودِيَّة في حماقة بالغة إذ أمر كل من يتزوج من عرب الْمَدِينَة أن يرسل الزوجة إليه أولا، ممَّا دفع مالك بن عجلان (أحد فرسان الخزرج) إلى قتل ذلك الزعيم الْيَهُودِيّ، ثم تحالفت القبيلتان على يهود يَثْرِب وإنهاء سيطرتهم عليها تمامًا، لتدخل عهدًا من السيطرة العَرَبِيَّة الخالصة، التي شابتها بعض الصدامات مع قَبَائِل الْيَهُود أحيانًا، وبعض التحالفات أحيانًا أخرى، بحكم الجيرة الدائمة.

أما اليمن، حيث كانت تقوم دولة "حِمْير"، فقد اعتنق الكثيرون الْيَهُودِيَّة، بل اعتنقها ملك الحمْيَرِيِّين، يُوسُف ذو نواس، وبذلك دخلت في الديانة الْيَهُودِيَّة عَنَاصِر من غير بَنِي إِسْرَائِيل. وكادت تقوم دولة يَهُودِيَّة جديدة، لولا أن قام ذو نواس باضطهاد وتعذيب النَّصَارَى، وقام بحفر أخدود أشعل فيه النيران التي ألقى فيها نَصَارَى مدينة نجران، أصحاب الأخدود، ممَّا دفع بعض النَّصَارَى إلى الاستغاثة بإِمْبرَاطُور بِيزَنْطَة الْمَسيحيَّة، وكذلك بنَجَاشِيِّ الحبشة، الْمَسيحي أيضًا، فقاما بإرسال حملة مشتركة لغزو اليمن، هزمت جيش ذي نواس وقتله، ومنذ ذلك الوقت أصبح اليمن تحت الحكم الحَبَشِيّ، حتى جاء سيف بن ذي يزن، الْيَمَنِيُّ الْيَهُودِيُّ، وتحالف مع الفرس وطرد الأحباش وحكم اليمن تحت سلطة كِسْرَى.

الْيَهُود، من واقع تجاربهم الحربية المتكررة، أدخلوا إلى بلاد العرب فكرة بناء الحصون. قد لا يكونون أول من أدخلها، لكنهم أكثروا من بنائها، بالذات في الْمَدِينَة وخيبر، هذا بالنسبة إلى البنيان، أما عن التجارة، فقد مارسوا الإقراض بالرِّبا، بالذات في يَثْرِب، التي اشتهر يهودها بصياغة الذهب وإقراضه بأجر والاتِّجار فيه، وكذلك عُرِفوا بصنع السلاح وبيعه، ومارس قسم كبير منهم الزراعة، التي لم يكن العَرَبِيُّ القديم يميل إليها كثيرًا، فأصبح لهم ثقَل اقْتِصَادِيّ كبير في جزيرة العرب. أما من الناحية الثَّقَافِيَّة، فقد كان لأحبارهم وكهانهم احترام سادات العرب الذين سموهم "أهل الكتاب" لمَا لهم من علم بالتوراة وكتب الأنبياء، حتى إن العرب كانوا أحيانًا يطلبون منهم التحكيم بينهم، وأحيانًا أخرى كانوا يهتمون بالاستماع لنبوءاتهم، بالذات تلك التي كانت تبشر بالبعثة المحمدية، حتى إن بعض العرب حرصوا على تسمية أَبْنَاءهم بـ"محمد" على أمل أن يكون النبي المنتظر منهم، وفي يَثْرِب، كانت المرأة التي لا يعيش لها ذكور، تَنْذُر أنها إن أنجبت ذكرًا تهوِّده وترسله إلى يهود يَثْرِب لينشأ بينهم.

في ذلك الوقت كان الْيَهُوديّ يعيش كعَرَبِيٍّ مئة في المئة، فكان يتحدث العَرَبيَّة ويتَّخذ الأسماء العَرَبيَّة له ولأولاده، ويقول الشعر ويمارس الفروسية والتجارة ويطالب بالثأر ويعقد التحالفات، تمامًا كأي عَرَبِيّ، وعلى عكس الشائع، اشتهر الْيَهُوديّ العَرَبِيُّ بنفس صفات العرب من كرم وشجاعة وإغاثة للملهوف. صحيح أن الْيَهُود، كجَمَاعَة بشرية تدرك أنها أقلّيَّة وسط بمجتمع عَرَبِيٍّ قُحّ، كانوا يمارسون جمع المال وتكنيزه بحرص شديد بلغ حدَّ الجشع الفاحش، لكن هذه كانت، وما زالت، سمة عامَّة لأيِّ أقلّيَّة بشرية تخشى على مستقبلها وسط جَمَاعَة بشرية كبرى.

– اضطهاد:

وبينما عاش يهود الجزيرة في أمان، كانوا في الشام يتعرضون لأعتى أنواع الاضطهاد والتعذيب، فهرقل، إِمْبِرَاطُورِ الروم، تَنَبَّأ له مُنَجِّمُوه أن زوال ملكه يكون على يد شعب مختون، في ذلك الوقت لم يكن يُختَن سوى العرب والْيَهُود، ولأن العرب كانوا في نظر هرقل أضعف من أن يجتاحوا ملكه، فقد حسب أن الْيَهُود هم المقصودون بالنبوءة، فانهال عليهم قتلاً وتعذيبًا، وأخذ يلقيهم في ساحات المصارعة للأسود، أو للمصارعين الذين كانوا يمارسون المصارعة حتى الموت.

– النبوءة:

ووسط كل تلك الأحداث الجسيمة هنا وهناك، وفي يوم من آخر عشرة أيام من شهر رمضان، فوجئ الناس بسيل من الشُهُب ينهال من السماء، فهُرعوا إلى أحد كُهَّانهم يسألونه عن هذا فقال: "إن كان ما يسقط هو من ما يستدل به الناس من النجوم في سفرهم، فهو زوال الدنيا والله، وإن كان غير ذلك، فهو أمر جلل حدث" في ذلك الوقت كان أحبار الْيَهُود يقفون على أسطح حصونهم في المَدينَة، ينظرون في السماء حينًا وفي التوراة أحيانًا، يتذكرون نبوءة موسى، يتبادلون النظرات التي تقول نفس العبارة: "اليوم بُعِثَ محمد"

مصادر المعلومات:

١- موسوعة الْيَهُود والْيَهُودِيَّة والصِهْيَوْنِيَّة: د/ عبد الوهاب المسيري.
٢- الْيَهُود في تاريخ الحضارات الأولى: جوستاف لوبون.
٣- البداية والنهاية: ابْن كثير.
٤- تاريخ الْيَهُود في بلاد العرب: د/ إِسْرَائيل ولفنسون.
٥- الْيَهُود في العالم العَرَبِيّ: د/ زبيدة محمد عطا.
٦- موسوعة مصر القديمة: سليم حسن.
٧- أنبياء الله: محمد متولي الشعراوي.
٨- الشرق الأدنى في العصرين الهلليني‍ستي والرُّومَانِيّ: د/ أبو اليسر فرح.
٩- المفصل في تاريخ القدس: عارف العارف.
١٠- موسوعة الحروب: هيثم هلال.
١١- محمد والذين معه: عبد الحميد جودة السحار.
١٢- تاريخ العرب القديم: د/ توفيق برّو.
١٣- جزيرة العرب قبل الإِسْلاَم: برهان الدين دلّو.
١٤- الأنباط.. الولاية العَرَبِيَّة الرُّومَانِيَّة: جلين وارين بورسوك.
١٥- أساطير الْيَهُود: لويس جنزبرج.

نحن وأَبْنَاء الْعَمّ إِسْرَائيل – الجزء الثاني

الناظر إلى ميراث العداء المُرّ يتساءل: "متى بدأ كل هذ؟ متى أَطْلَقَ الحقدُ القديم أولى صرخاته؟ لماذا تشوب علاقتنا بأَبْنَاء عمّنا يعقوب كل تلك المرارة؟"... أسئلة قديمة جدًا، قدمها يدفعنا إلى البحث عن إجابات لها. والحقيقة أن العداوة لم تكن يومًا بيننا وبين "كل" أَبْنَاء إِسْرَائِيل، بل كانت دائمًا بيننا وبين "فئة منهم" ترفض أن تعايشنا بسلام وتتوارث في ما بينها الحقد والكره والضغائن نحونا، فإلى البداية الحقيقية لهذا الصراع، إلى يَثْرِب، المدينَة، التي شهدت أول صدام حقيقي بيننا وبين أَبْنَاء العم.

– نبوءة العهد:

"الله جاء من تيمان، والقدوس من جبل فاران. سلاه. جلاله غطى السماوات، والأرض امتلأت من تسبيحه، وكان لمعان كالنور. له من يده شعاع، وهناك استتار قدرته، قدامه ذهب الوبأ، وعند رجليه خرجت الحمى، وقف وقاس الأرض، نظر فرجف الأمم" (العهد القديم).

هكذا قال العهد القديم، هكذا رأي أحبار يهود يَثْرِب في كتابهم المقدس. كانوا يعرفونه ويعرفون أن جبل فاران هو جبل مكة، وأن المقصود بالنبوءة هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. ورغم ذلك كان العداء هو الغالب على العَلاَقة.

- **مجتمع يَثْرِب:**

في ذلك الوقت كان مجتمع يَثْرِب مكوَّنًا من خمسة قَبَائِل أساسية: الأوس والخزرج، وهما قبيلتان مهاجرتان من اليمن، وبني النَّضير وبني قريظة وبني القَيْنُقَاع، ثلاثة قَبَائِل يَهُودِيَّة كان أساسُها المهاجرين من فلسْطين أيام هجوم نبوخذ نصّر عليها، وكذلك الهاربون من البطش الرُّومَانِيّ بالإضافة إلى نسبة من أَبْنَاء الذين كانوا ينذرون تهويد أبنائهم إذا عاش لهم ولد. كَان يسود المَدينَة جوٌّ من انعدام الأمان، فالحروب المتالية بين الأوس والخزرج تارة، وبينهما معًا في جانب واحد والْيَهُود في جانب آخر تارة أخرى، و لم يكن الرجل يأمن على نفسه أن يؤخذ غدرًا. السبب الآخر لانعدام الأمان كان الميراث الْيَهُوديّ الثقيل من الإحساس الدائم بالحصار والمطاردة والاستهداف، تلك العقدة النفسيَّة التي كوَّنتها المذابح المتالية في حقِّ الْيَهُود سواء من الآشُورِيِّين أو الْبَابِلِيِّين أو الرُّومَان. كذلك بعض المبادئ التي تكونت في سنوات السَّبْي الْبَابِلِيّ، مثل الشتات (دياسبورا) وهو اعتقادهم أن تشتت بَني إِسْرَائيل بين الأمم قَدَرٌ وملحمة كتبها الله عليهم وأن عليهم أن يحافظوا على تماسكهم أمام تلك المحنة وذلك بأن لا يثقوا في من سواهم (الأغيار) ولا يأمنوهم، بل بلغ الأمر ببعضهم أن حرّم الاختلاط بالآخرين بكل صرامة، وحكم بالكفر على من يخالف ذلك.

يهود يَثْرِب لم يكونوا على تمسك شديد بالتعاليم الْيَهُوديَّة، سواء تلك المنزَّلة في التوراة أو تلك التي تَكوَّنَت في بابل، كان تعصبهم لأنفسهم ولعصبيتهم القبلية أكثر من كونه تعصبًا للدين ذاته، حتى إن من يفهمون العبْرِيَّة منهم أو يتعمقون في دراسة التوارة كانوا قلَّة، وكانت كلمة "يهود" تعني لهم "النوع والجنس" أكثر مِمَّا تعني "الدين

- **عداء من اللحظة الأولى:**

في تلك الظروف جاءت هجرة الرَّسُول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، من مكَّة إلى الْمَدينَة، ومنذ أول لحظة بدت العداوة واضحة، رغم معاهدات حسن الجوار والتعاون على صَدِّ العدوان عن الْمَدينَة، التي أبرمها الرَّسُول مع القَبَائِل الْيَهُودِيَّة الثلاث. تلك العداوة ظهرت في حوار بين حُيَيّ بْنِ أخطب، كبير بني النَّضير، إذ قال له شقيقه عند وصول النبي (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) إلى المَدينَة: "ماذا أنت فاعل؟" فأجابه: "عداوته والله ما بقيتُ!" والسؤال هو: ما سبب ذلك العداء المُرّ؟

الأسباب عدَّة. صحيح أن من بينها التعصُّب القبلي، لكن الأسباب المرتبطة بالمصالح

كانت الغالبة على تكذيب ومعاداة أي نبي، و لم يكُن ما جرى في المَدينَة استثناءً من هذا.. كان هناك أكثر من سبب يكفي واحد أو اثنان منها فقط لإشعال عداوات لا عداوة واحدة.

- الأسباب:

فلو بدأنا بالأسباب المرتبطة بالدين، سنجد أن في ما آمن به اليَهُود نبوءة تقول بنزول "المسيح المُخلص" (مشيحا) ليقودهم وينشئ لهم مُلكا أرضيًا يدوم ألف سنة يكونون فيه سادة العالم وأصحاب الخلاص بعد ذلك في الآخرة من دون الناس جميعًا. كان ارتباط المسيح عندهم بالملك الدنيوي، وهذا يبرر عداءهم الشديد للسيد المسيح (عَلَيْهِ@ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ) عندما جاء ليبشرهم بملكوت السماء، ويعدهم بما عند الله إذا هم زهدوا الدنيا، ونفس العداء تكرر مع سيدنا محمد (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) الذي جاء للعالم كافة (بينما كانوا يؤمنون أن الرَّسُول يجب أن يكون لهم وحدهم) والذي بشر بنفس ما جاء به عيسى، وهم كانوا قبل البعثة المحمدية إذا حاربوا الأوس والخزرج وهُزموا منهم يقولون لهم: "لقد اقترب زمان نبي يُبعَث فنتبعه، نقتلكم معه قتل عاد وإرَم"! أي أن فكرة المبعوث الإلهي لهم كانت مرتبطة دائمًا بالمكاسب الدنيوية في المقام الأول، و لم يكونوا على استعداد لتقبل فكرة مختلفة.

أما عن الأسباب المادية، أو النفعية، فكانت متعددة، فأولا كانت لهم السيطرة الكاملة على سوق يَثْرِب، وكانوا يفرضون على تُجّارها خراجًا، فجاء المُسْلمُون وأنشؤوا سوقهم الخاصَّة بلا خراج، فاقتنصوا التفوُّق التجاريَّ، أولا لرفعهم العبءَ الماليَّ عن التُّجّار، وثانيًا لابتعادهم عن الرِّبَا الذي كان يعاني منه التاجر المُعْسر، وثالثًا لأنه كان بين المهاجرين أناس هم أبرع العرب في التجارة، مثل أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وعُثْمَان بْن عَفَّان وعبد الرحمن بْن عَوْف (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ). السبب الثاني كان متعلقًا بمحاربة المُسْلمينَ لبعض التجارات التي حرَّمها الإِسْلاَم سواء دفعة واحدة أو بالتدريج، كتجارة الخمور، وتجارة الجنس المتمثلة في بيوت الدِّعَارَة التي كانت نشاطًا تجاريًا منتشرًا في الحجاز آنذاك. السبب التجاري الثالث كان يتمثل في التهديد الذي تلقته تجارة السلاح التي كان اليَهُود يحتكرون نسبة كبيرة منها، فمن البداية ظهر هدف الإِسْلاَم في توحيد القَبَائل العَرَبيَّة المتحاربة، ممَّا يعني إغلاق باب المعارك المتكررة بين العشائر والقَبَائِل، والتي تمثل مصدرًا للطلب المستمر على أنواع السلاح المختلفة.

– عوامل أخرى للعداوة:

لم تكُن الأسباب دينيَّة وتجارية فحسب، فعلى صعيد السِّيَاسَة كانت أسبابٌ قوية، أولها تمثَّل في أن المقابلة بين أوائل المؤمنين من أنصار المَدينَة مع الرَّسُول (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) في مكة قبل هجرته بعام، تزامنت مع استعداد القبيلتين المتحاربتين، الأوس والخزرج، للاتحاد تحت إمرة سيد الخزرج عبد الله بن أُبَيّ بن سلول، حتى إنهم كانوا يُعدُّون التاج لتويجه ملكًا على يَثْرِب، تلك الخطوة التي أجَّلتها بيعة الأنصار للرَّسُول (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) ثم هجرته إليهم وتولِّيه إدارة شؤون المَدينَة كلها، ممَّا أغضب عبد الله بن أُبَيّ وجعله يترأس حركة "المنافقين" التي سعت لتدمير الدَّوْلَة الإسْلَامِيَّة الوَلِيدَة، وقد كانت بين ابن أُبَي وقَبِيلَتَي بني النَّضير وبني القَيْنُقَاع معاهدات مُوَالاة وتعاون، ممَّا كان يعني أن صعوده للحكم مكسب سياسي لهما ونزع الحكم منه بطبيعة الحال خسارة فادحة، ممَّا جعل القبيلتين تتَّحدَان مع المنافقين على محاربة المُسْلمينَ، صحيح أن المُسْلمينَ كانوا قلَّة آنذاك قياسًا بقريش، لكن كان من الواضح لكل ذي عينين أن قريشًا القديمة تُحْتَضَر، بينما تتكون قريش جديدة شابَّة، ممثَّلة في المُسْلمينَ الأوائل الذين كانوا يمثِّلون بطون قريش، كأبي بكر من بني تيم وعمر بن الخطاب من بني عُدَيّ وعُثْمَان بْن عَفَّان من بني أُمَيَّة وعليّ بْن أبي طالب من بني هاشم... كانوا الجيل الجديد المستنير بينما بقي في مكة الجيل المستعد للرحيل والذي كان سقوطه مسألة وقت لا أكثر. السبب الآخر كان ما ظهر في عقيدة المُسْلمينَ من ميل إلى تفضيل النَّصَارَى على اليَهُود في ما يتعلق بالتعامل مع أهل الكتاب، عملاً بما جاء في القرآن الكريم: "لَتَجدَنَّ أَشَدَّ النَّاس عَدَاوَةً للَّذينَ آمَنُوا اليَهُودَ وَالَّذينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً للَّذينَ آمَنُوا الَّذينَ قَالُوا إنَّا نَصَارَى ذَلكَ بأَنَّ منْهُمْ قسِّيسينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ" (سورة المائدة–الآية ٨٢)، وكذلك ما كان من شعورهم بالحزن لهزيمة الروم على يد الفُرس، ثم سعادتهم بعد ذلك بانتصار هرقل، إمْبِرَاطُور الروم، على فارس. ذلك الميل كان من شأنه إقلاق يهود المَدينَة، إذ كان من الطبيعي، وفقًا لتفكيرهم، أن يخشوا تحالفًا بين المُسْلمينَ والروم، والروم كانوا آنذاك يضطهدون اليَهُود، بينما كان الفُرس يكرمونهم ويحترمونهم، صحيح أن المُسْلمين لم يكونوا ليعقدوا تحالفًا كهذا، لكن المشكلة لم تكن فيهم بل كانت في عقلية يهود المَدينَة التي توارثت الأفكار سالفة الذكر التي تشجعهم على افتراض الأسوأ من الآخر.

النوع الأخير من الأسباب كان متعلقًا بالسيطرة الروحية لليهود على عقول فئة كبيرة من العرب، فالعرب كانوا يكنّون لأهل الكتاب بشكل عام احترامًا كبيرًا، وكانت كلمة

"الراهب المَسيحي" أو "الحَبر اليَهُوديّ" لها قيمة كبيرة، وكان اليَهُود يجيدون استغلال هذا لتحقيق مكاسب متعددة لهم، سياسية كانت أو تجارية، فلما جاء الإِسْلَام وجدوا أن هناك من ينافسهم على تلك المنزلة، بل وفوجئوا ببعض كبار اليَهُود وأحبارهم يُسلمون ويكشفون للمُسْلمينَ ألاعيبهم وخدعهم، مثل الصحابي الجليل عبد الله بن سلاّم (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، الذي وصفوه حين سُئلوا عنه بأنه حَبرُ أحبارِهم وكبيرُهم وابنُ كبيرِهم... بالتالي فقد وجدوا أن سطوتهم الروحية وُضعَت في الميزان.. ولما كانوا على علم بحالة الفساد المسيطرة على حياتهم الدِّينِيَّة، فقد كان من المستحيل أن يكتفوا بالمجادلات والمناظرات بين أحبارهم والرَّسُول وصحابته.

- صدام:

كل تلك الأسباب والدوافع إلى الاصطدام بالقوة العَرَبِيَّة المسلمة الجديدة كانت تعلن لكل ذي عينين أن الصدام قادم لا محالة، وبالفعل، لم يتأخر ذلك، بل جاء سريعًا في شكل أربعة صدامات متتالية، تصاعدت قوتها وحِدَّتها وخطورة تهديدها للدولة الإِسْلَامِيَّة الوَلِيدَة، وفي قلب عاصمتها الجديدة.. المَدينَة...

مصادر المعلومات:

١- البداية والنهاية: ابن كثير.

٢- العهد القديم.

٣- موسوعة الْيَهُود والْيَهُودِيَّة والصهْيَوْنِيَّة: د/ عبد الوهاب المسيري.

٤- تاريخ قريش: د/ حسين مؤنس.

٥- محمد والذين معه: عبد الحميد جودة السحار.

٦- أساطير الْيَهُود: لويس جنزبرج.

٧- الديانة الْيَهُودِيَّة وتاريخ الْيَهُود- وطأة ٣٠ عام: د/ إِسْرَائِيل شاحاك.

٨- الْيَهُود في تاريخ الحضارات الأولى: جوستاف لوبون.

٩- تاريخ الْيَهُود في بلاد العرب: د/ إِسْرَائِيل ولفنسون.

١- موسوعة تاريخ العرب: عبدعون الروضان.

١١- الْيَهُود في العالم العَرَبِيّ: د/ زبيدة محمد عطا.

نحن وأَبْنَاء الْعَمّ إِسْرَائِيل – الجزء الثالث

الدَّوْلَة العَرَبيَّة الإِسْلاَميَّة الْوَلِيدَة تلتقط أول أنفاسها في "الْمَدِينَة"، تتحسس طريقها وتبدأ في الإعلان عن نفسها.. في ذلك الوقت، يصطدم بنا أَبْنَاء عمنا بدلاً من أن يدعمونا، فالزمان قد تغير.. لم يعد كذلك الزمن القديم عندما تحالفوا معنا ضدَّ الآشُورِيِّين وعانوا مثلنا من بطش الرُّومَان.. هذا زمن جديد المصلحة فيه هي ابْنة العم والمال هو ابْن الخال والقوة هي الأم والنفوذ هو الأب.. في هذا الزمن.. بدأ الصدام الحقيقي...

المواجهة الأولى: خرق القوانين:

فالصدام الأول بدأ بعد انتصار الْمُسْلمينَ في غزوة بدر الكبرى بفترة بسيطة، وبمبادرة فردية من أحد يهود بني القَيْنُقَاع، وكَان صائغًا، إذ حاول بعض الشباب من عشيرته التحرش بامرأة مسلمة جائت تبيعه ذهبًا لها، فعاونهم على ذلك بأن عقد ثوبها دون أن تشعر، فلما قامت انكشفت عورتها فاستغاثت فجاء رجل مسلم فقتل الصائغ، فوثبت عشيرته على المسلم وقتلته.. وتحول الأمر من مجرَّد مشاجرة إلى مسألة اختبار لهيبة الدَّوْلَة، ممثلة في الْمُسْلمينَ.. بالتالي كان لا بُدَّ أن يكون ردُّ الفعل بمستوى الاختبار، مما جعل الرَّسُول (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) يأمر بمحاصرة حصون بني القَيْنُقَاع، حتى استسلموا، وتَدَخَّل حليفهم، عبد الله بن أُبَيّ، لإنقاذهم من عقاب الرَّسُول لهم، وظل يلح عليه في إطلاق سراحهم، فوافق، (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بعد طول رفض وأمر بنفيهم من الْمَدِينَة.

لم يكُن ما جرى من قبيل المبالغة في ردِّ الفعل، فقد سبق ذلك الصدامَ تهديدٌ صريح

من الْيَهُود للْمُسْلمينَ إذ قالوا لهم بعد عودتهم من غزو بدر: "لقد حاربتم أناسًا لا علم لهم بالقتال، ولو قاتلتمونا لعلمتم أننا الناس"! وبغضِّ النظر عمَّا إذا كان تصرف الصائغ مرتجلاً أو مدبَّرًا، فثمة حقيقة أن التتابع السريع للأحداث وضع هيبة الْمُسْلمينَ موضع اختبار وكان لا بُدَّ من إثباتها بشكلٍ شديد الصرامة. ثم إن الذكاء السِّيَاسيّ كان يحتِّم الاستفادة من الانتصار المدوِّي للْمُسْلمينَ في بَدْرٍ بتحقيق ضربة قوية تؤكد أنه انتصار ناتج عن حسن تدبير وقوة حقيقية، لا انتصار مصادفة وحظ.. والرد على خرق بني القَيْنُقَاع للعهد بطردهم من الْمَدينَة، رغم قوتهم المعروفة، هو تدعيم وتثبيت لقوة الدَّوْلَة الناشئة وإثبات جديد لقدرتها على الضرب على يد من يخرج عليها.. في وقت كانت فيه للحرب الدعائية أهمية بالغة في حماية الدول والقَبَائِل من الاعتداء.

هذا عن السِّيَاسَة الخارجية، أمَّا عن الغرض الداخلي من نفي بني القَيْنُقَاع فهو وضع أسس "النظام العام للدولة"، فلا توجد دولة في العالم ليس لها نظام عام صارم "تطير لأجله الرقاب" كما يقال.. وهنا كان الخرق القينقاعي للقانون يمسُّ خطين أحمرَين: "حرمة النساء" (بكشف عورة المرأة المسلمة) و"حرمة الدم" (بقتل الرجل الذي دافع عنها). وعادة ما تكون عقوبات خرق "النظام العامّ" أكثر صرامة وقسوة من عقوبات خرق أي قوانين أخرى.

المواجهة الثانية: محاولة اغتيال:

عندما انتصر الْمُسْلمُون في بدر، ظهرت بعض الآراء بين يهود الْمَدينَة أن يتبعوا الرَّسُول (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) ويعتنقوا الإِسْلَام، وظهرت آراء معارضة لذلك التوجه، نتج عنها في النهاية رأي آخر يقول بانتظار نتائج المواجهة التالية لحسم الاختلاف، فإما اتِّباعه وإمَّا الاستمرار في معاداته (ممَّا يثبت نظرية سعيهم للمُلْك الأرضي بدلاً من ملكوت السماء)... ولم يطل الانتظار، إذ وقعت معركة "أُحُد" التي وقعت فيها مقتلة كبيرة في كل من صفوف قريش والْمُسْلمينَ.

لم يُهزَم الْمُسْلمُون في أُحُد، بخلاف الشائع، فلو نظرنا بتدقيق إلى الأمر لوجدنا أن جيش قريش خرج لهدف واضح: قتل الرَّسُول والقضاء على أتباعه، وما دام ذلك الهدف لم يتحقق، فلا يمكن اعتبار ما جرى انتصارًا لقريش وهزيمة للْمُسْلمينَ. ولكن يهود الْمَدينَة لم ينظروا إلى الأمر هكذا، بل عدُّوا أن "أُحُدًا" تمثل اهتزازًا لِهَيْبَة وقوَّة الدَّوْلَة

الجديدة، ورأوا استغلال هذا لصالحهم، وهنا كان الصدام التالي...

الاشتباك التالي تمثَّل في محاولة مباشرة وصريحة من بني النَّضير لاغتيال الرَّسُول وبعض أصحابه، عندما جاءهم يطالبهم بتنفيذ اتفاق بينهم في الاشتراك في دفع الديات، وكان يستعدُّ لدفع دية قتيلين قتلهما أحد المُسْلمينَ في غزوة وهو يحسبهما من الأعداء. عندما جلس الرَّسُول (صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) تحت حصنهم منتظرًا ردَّهم، دبَّروا أمر إلقاء حجر ضخم عليه من فوق الحصن لقتله، لكن الوحي جاءه بذلك، فقام مسرعًا ومعه أصحابه... ومرة أخرى تَكرَّر ما جرى مع بني القَيْنُقَاع من حصار ثم نفي خارج المَدينَة، فخرجوا، ومعهم فقط أموالهم التي تحملها الإبل، دون أسلحتهم، ودون باقي الأموال والبيوت، التي سعوا لهدمها قبل الرحيل وتخريبها كي لا ينتفع بها المُسْلمُون، ورحلوا إلى واحة خيبر.

وفي هذه المرة أيضا وجدت قسوة العقاب مبرِّرها، ليس فقط لتعلق الأمر بمحاولة قتل الرَّسُول (عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ)، ولكن لدفع تلك الشائعة التي أطلقها اليَهُود، أن المُسْلمينَ قد فقدوا قوّتهم بعد ما أصابهم في معركة أُحُد من قتل عدد كبير منهم، من بينهم قادة كبار كحمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير... والتهاون في الرَّدِّ على هذا التصرُّف العدواني كان من شأنه تشجيع أعداء الدَّوْلَة على إتيان المزيد من تلك الأفعال المهدِّدة للاستقرار.

المواجهة الثالثة: خيانة وقت الحرب!:

هنا أصبحت العداوة سافرة، وأصبح من الواضح أن التصرفات العدائية في تصاعد مستمر، بلغ بالفعل أقصى مداه خلال غزوة الخندق. ففي محاولة لتوجيه ضربة قاضية للدولة الإسْلاَميَّة الجديدة، حشدت قريش جيشها واتَّحدت مع قبيلة غطفان، وتوجهت في أعتى سلاحها لمهاجمة المَدينَة، فاقترح سلمان الفَارِسيُّ حفر خندق عميق حول المَدينَة، وهذا ما تم بالفعل، إلا أن المشكلة كانت في ثغرة خلفية في ظهر المدافعين المُسْلمينَ كان يصعب حفر خندق أو وضع تحصينات عندها، ممَّا جعل الرَّسُول (صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يتفق مع قبيلة بني قريظة أن تتولى هي الدفاع عن تلك الثغرة.. وهكذا فعلوا بالفعل في الأيام الأولى للحرب، ثم بعد ذلك خانوا الاتفاق وتعاهدوا مع قريش على الغدر بالمُسْلمينَ من الخلف. علم الرَّسُول بهذه الخيانة، فأرسل إليهم وإلى قريش من أثار الوقيعة بينهما، عملاً بمبدأ "الحرب خدعة"، وجعل كلاً منهم يشكُّ في التزام الآخر بما تَعَهَّد به، ممَّا أفشل

تحالف قريش وبني قريظة، ثم أرسل الله الريح على جيش قريش فانسحبوا، واستدار المُسْلمُون لمحاصرة بني قريظة عقابًا لهم على خيانتهم وقت الحرب. ولأن الخيانة وقت الحرب لا مجال فيها للتهاون مع الخائن، فقد حُكِمَ على قريظة أن يُقتَل رجالهم وتُسبى نساؤهم. وهذا ما كان. وعلى عكس ما قد يظن البعض من أن المُسْلمين مارسوا نوعًا من المذابح الجماعية أو التطهير العرقي في حق بني قريظة (كما قالت بعض الاتهامات من بعض المؤرخين)، فإن مَن تم قَتْلُهم فقط المقاتلون، ومَن شاركوا في الخيانة، أما مَن رفض المشاركة فيها فلم يُمَسّ، بدليل أن الصحابي محمد بن مسلمة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، عندما كان في نوبة حراسة بالليل في أثناء حصار حصون بني قريظة، وجد رجلاً يتسلل من الحصن، وعلم أن هذا الرجل كان رافضًا للغدر الذي قام به قومه، فتركه يمرُّ ولم يعترض طريقه، وقال عنه الرَّسُول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "هذا رجل نجَّاه الله بوفائه"

الجولة الأخيرة – خيبر:

المواجهة الأخيرة كانت في واحة خيبر، فمن تم نفيهم من يهود المَدينَة، توجهوا إلى خيبر، حيث دأبوا على تدبير المؤامرات للمُسْلمينَ وبدا منهم استعداد لمهاجمة المَدينَة، كان أوى نُذُره عند خروجهم منها إذ كان أحد قادتهم يصيح وهو يحمل مثقالا كبيرا من المال: "هذا جعلناه لرفع الأرض وخفضها"! ممَّا كان يُظْهِر نيَّاتهم من البداية. فتَصَرَّف الرَّسُول بذكاء سياسيٍّ شديد، وقام بعقد صلح الحديبية مع قريش، ثم تَفَرَّغ ليهود خيبر. فقد خرج جيش كبير من المُسْلمينَ، وفاجأ أهل خيبر بحصار وهجمات متكررة، بدأها الجيش بقيادة أَبِي بَكرٍ الصِّدِّيق، ثم في اليوم التالي عمر بن الخطاب، وأخيرًا عليّ بن أبي طالب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا)، وتمت محاصرة حصونهم واحدًا تلو الآخر، حتى سقطت جميعًا بعد معارك ضارية، وتم الاستيلاء على كل ما فيها من أموال وسلاح كانوا يُعدُّونه لتجريد حملة على المَدينَة. كانت هذه مبادرة ذكية من المُسْلمينَ، إذ كان من الواضح أنهم إذا انتظروا أن يهاجمهم جيش خيبر كانوا يخاطرون بخسارة كل ما حققوا من مكاسب سابقة، وكان الحل الوحيد هو الهجوم من أجل الدفاع، من ناحية لدرء الخطر ومن ناحية أخرى لإرسال رسالة واضحة إلى كل من قريش وغطفان اللتين كانت فكرة مهاجمة المَدينَة تراودهما من حين إلى آخر.

تصحيح للفهم الخاطئ:

كانت هذه المواجهات الأربع المتتالية هي أولى المواجهات الحقيقية بين العرب كدولة وإن كانت مجرَّد دولة وليدة، والْيَهُود ممثلين في يهود المَدينَة الذين كانوا يشكلون أكبر فئة يَهُوديَّة في جزيرة العرب. لم يكن الصِّدَام مع الْيَهُود ككل، فلا الإِسْلاَم ولا المنطق يقولان بمعاداة أهل دين بأكملهم، لكنه كان صدَامًا بين الدَّوْلَة العَرَبِيَّة المسلمة و"فئة كبيرة" من الْيَهُود اختارت طريق التعصب بدلاً من الحوار وتقبُّل الآخر. تلك هي الصورة الحقيقية للأمر، والدليل هو أن الْيَهُود الذين لم يكونوا أطرافًا في الصراع لم يمسسهم سوء، هذا ما حدث في اليمن عندما أسلم حاكمها الفَارِسِيّ باذان، وكان بها من الْيَهُود عدد كبير، وكذلك الْيَهُود الذين بقوا في الجزيرة العَرَبِيَّة كلها، حتى نقلهم منها عمر بن الخطاب إلى الكوفة عندما أنشأها. والدليل الأكبر على عدم تعميم صراع الْمُسْلمينَ الأوائل ضدَّ القَبَائل الْيَهُوديَّة الثلاث على كل الْيَهُود، أن الرَّسُول (صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ)، مات ودرعه مرهونة عند يهودي، بل إنه عفا عن يَهُوديَّة حاولت اغتياله بالسُّمِّ، إذ وضعته له في فخذ شاة، وتَبَدَّى موقفها في قولها: "إن كان نبيًا فسيخبره الله، وإن كان مَلكًا فسنستريح منه"، فتجاوز عنها الرَّسُول لعلمه أنها لم تقصد تآمرًا على الدَّوْلَة ولا على الإِسْلاَم. ومن الوقائع المسجَّلة أن عمر بن الخطاب (رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ) نظر في شكوى من يهودي ضدَّ عليِّ بْن أبي طالب (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ)، وأن ابن الخطاب جعل ليهوديٍّ عجوز فقير راتبًا ثابتًا من بيت مال الْمُسْلمينَ، وسمح لسبعمئة يهودي أن يسكنوا بيت المقدس (إيليا آنذاك) بعد أن فتحها الْمُسْلمُون (وكان الروم قد منعوا الْيَهُود من دخول أرض فلسطين كلها)، وعملوا في مجال الحفاظ على نظافة بيت المقدس، ونقل مجموعة من الْيَهُود إلى مدينة "الكوفة" التي أسسها في العراق بعد فتحه حيث مارسوا تجارتهم وعباداتهم وحياتهم بحرية كاملة، وجرى عليهم في البلدان المفتوحة ما جرى على غيرهم من أهل الذِّمَّة الآخرين (النَّصَارَى، الصابئة، المجوس)، وكانت لهم الحماية ولمعابدهم وكتبهم وأحبارهم (كهنتهم)، وكانت لهم حرية الصلاة والتجارة والتنقل. كل هذا يعني أن الحرب لم تكن يَهُوديَّة، إِسْلاَميَّة، بل كانت حربًا من النظام الحاكم على فئة معادية أيًا كان انتماؤها الدِّينيّ.

ثم إن من بين الْمُسْلمينَ الأوائل والصحابة الأجلاَّء، يهودًا سابقين كعبد الله بن سلاَّم وكعب الأحبار (رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا)، ولو رأى أحدهما ظلمًا أو تصفية عرقيَّة لقومه ما كان ليصمت عنه خصوصًا أن تلك الحماية الْمُسْبَغة على الْيَهُود قد وجدت قوَّتَها في قول الرَّسُول (صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ): "مَنْ آذَى ذِمِّيًا فَقَدْ آذَانِي"، ومن المعروف أن أهل الذِّمَّة في ذمَّة

وحماية الله ورسوله، وهي ذمّة لا تنقضي إلى يوم القيامة ومراعاتها فرض على المُسْلمينَ. كل هذا عرفه العرب المُسْلمُون وبالتالي لم يكن من مجال لاضطهاد اليَهُود، سواء من حيث الشرع أو من حيث المنطق المجرَّد، لا كما قال بعض المؤرخين والمستشرقين الإسْرَائيليِّينَ والأجانب بشكل عام.

هكذا دار الصراع الأول بيننا وبين "أَبْنَاء عمومتنا" أو لنقُل بعضهم.. ولكن الأيام دارت، ذهبت أيام الأولين.. وجاءت أيام تالية، تحمل جديدًا.. لنا.. ولأَبْنَاء العم..

مصادر المعلومات:

١- موسوعة اليَهُود واليَهُودِيَّة والصهْيَوْنِيَّة: د/ عبد الوهاب المسيري.

٢- البداية والنهاية: ابْن كثير.

٣- أحكام أهل الذِّمَّة: ابن قيم الجوزية.

٤- تاريخ يهود النيل: جاك حاسون.

٥- تاريخ اليَهُود في بلاد العرب: د/ إِسْرَائِيل ولفنسون.

٦- الشرق الأدنى في العصرين الهللينيستي والرُّومَانِي: د/ أبو اليسر فرح.

٧- اليَهُود في العالم العَرَبِيّ: د/ زبيدة محمد عطا.

٨- يهود العالم العَرَبِيّ- دعاوى الاضطهاد: د/ زبيدة محمد عطا.

٩- أهل الذِّمَّة في مصر: د/ قاسم عبده قاسم.

١٠- محمد نبي لزماننا: كارين أرمسترونج.

١١- تاريخ الشعوب الإِسْلاَمِيَّة: كارل بروكلمان.

١٢- خلفاء الرَّسُول: خالد محمد خالد.

١٣- موسوعة عظماء حول الرَّسُول: خالد عبد الرحمن العَك.

١٤- عبقرية محمد: عباس محمود العقاد.

١٥- منهج عمر بن الخطاب في التشريع: د/ محمد البلتاجي.

١٦- أطلس التاريخ العَرَبِيّ الإِسْلاَمِي: د/ شوقي أبو خليل.

١٧- تاريخ قريش: د/ حسين مؤنس.

١٨- تاريخ الخلفاء الراشدين: د/ محمد سهيل طقوش.

١٩- موسوعة تاريخ العرب: عبدعون الروضان.

نحن وأَبْنَاء الْعَمّ إِسْرَائيل – الجزء الرابع

انتهى عهد المواجهات.. استقرّت الدَّوْلَة ودانت الجزيرة العَرَبِيَّة وما حولها، مصر والشام وفارس، للحكم العَرَبِيّ الإِسْلاَمي.. ودخلت الدَّوْلَة مرحلة البناء، تلك العملية التي استمرت نحو ثمانية قرون، هي عمر الدَّوْلَة العَرَبِيَّة الإِسْلاَمِيَّة التي حكمت أكثر من نصف العالم القديم.. تلك المرحلة التي شارك فيها الجميع، مسلمين وغير مسلمين، عربًا وعجمًا.. ولم يكن "أَبْنَاء العم" استثناء.

– مؤامرة السَّبَئِيَّة:

بعد المواجهة الحاسمة في "خيبر" لم يعد من مجال للصدام مع أي فئة يَهُودِيَّة، وعاد الْيَهُود ليصبحوا جزءًا من نسيج الدَّوْلَة العَرَبِيَّة الْوَلِيدَة، التي جعلتها الفتوحات المتتالية دولة متعددة الأجناس والأعراق والأديان، وإن حكمها النظام الإِسْلاَمي.. بقي الْيَهُودِيّ يعيش في أمان واحدًا من أهل الذِّمَّة المتمتعين بأمان الله ورسوله والمُسْلمين، سواء في الجزيرة أو في البلدان المفتوحة مثل فارس والشام ومصر وشمال إفريقيا.

لم يحدث احتكاك عَرَبِيّ–يهودي، إلا في عهدي عثمان وعلي (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا)، عندما ظهر رجل يهودي يمني يدعي الإِسْلاَم اسمه عبد الله بن سبأ، أساهم في دس الفتنة بين المُسْلمينَ في عهد عُثْمَان بْن عَفَّان وتأليب فئة منهم عليه، وتحويل الخلاف السِّيَاسِيّ الهادئ إلى نزاع مسلح بين فئتين من المُسْلمين كانت نتيجته مقتل الخَلِيفَة عثمان (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، وقيام حرب أهلية بين المُسْلمينَ بسبب ذلك. كما قام ابْن سبأ باختلاق

مذهب جديد خارج عن الدين، ادَّعى فيه أن الرَّسُول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) سيعود بعد موته وأنه المسيح المنتظر، وأن روح الله حلت في عليٍّ بْن أبي طالب (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ)، وأفكار أخرى استقاها من العقائد الوَثَنيَّة التي كانت في اليمن وبلاد فارس. وأصبحت له فرقة تُعرَف باسم "السَّبَئِيَّة" وانتهى هذا الرجل عندما أمر الإمام علي بْن أبي طالب بنفيه إلى المدائن وإحراق أتباعه بالنار.

لا يمكن اعتبار فتنة ابن سبأ صدامًا عَرَبِيًّا يهوديًّا، فرغم الآثار المدمرة لتلك الفتنة، لم يكن من دليل على ضلوع فئة معينة من اليَهُود في المؤامرة، و لم يكن من الممكن أخذ اليَهُود كلهم بذنب أحدهم أو بعضهم. ولكنني رأيتُ أن أذكرها لأنها –وإن كان يمكن اعتبارها مبادرة فردية من ابن سبأ– تمثِّل واقعة تستحق الذكر.

– المشاركة في البناء:

حركة بناء نشطة شملت الدَّوْلَة العَرَبِيَّة منذ استقرار الحكم لمُعَاوِيَة بْن أَبِي سُفْيَان (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا)، وخلال العهود التالية والدول المتعاقبة على أرجاء الإِمْبرَاطورِيَّة العَرَبِيَّة الإِسْلاَمِيَّة، شاركت فيها كل فئات الشعب متعدد الأجناس والأديان: المُسْلِمُون، الصابئة، المجوس، النَّصَارَى، الْيَهُود. كل تلك الفئات التي أدخلتها الفتوحات في نسيج الدَّوْلَة أسهمت في بناء وتشييد الإنجازات الحضارية للدولة الإِسْلاَمِيَّة، حتى لم يعد الإِسْلاَم عقيدة أفراد فحسب، بل جنسية لدولة عظمى. ساعد على هذا جوُّ التسامح الذي ساد الحكم الإِسْلاَمي والموهبة الفطرية للعَرَبِيّ في التفاعل مع الآخرين والتحاور معهم. صور المشاركة في عملية التشييد أكبر من أن يحتويها مقال واحد أو أن نلتزم إزاءها بخط زمني مستقيم، فالنماذج كثيرة وثريَّة للدور الْيَهُوديّ في الدَّوْلَة العَرَبِيَّة الإِسْلاَمِيَّة الكبرى.

عوامل الاندماج وصورُه:

إن أهم سبب للدور الذي لعبه الْيَهُود في تاريخ الدَّوْلَة العَرَبِيَّة هو أن حياتهم في ظل الحكم العَرَبِيّ المسلم سمحت لهم بالخروج من جوِّ الريبة والعزلة الذي عاشه إِخْوَانُهم في ظل حكم الروم قديمًا، أو في ما بعد تحت حكم ملوك أُورُبَّا العصور الوسطى، فبينما عزلهم الروم في مناطق محددة محاصرة (جيتو) ومنعوهم من زيارة أماكنهم المُقَدَّسَة بفِلِسْطِين، أعطاهم العرب الحماية لأرواحهم وممتلكاتهم وعباداتهم، وكان الزائر لأرض

فلسْطين يرى عند قبور الأنبياء يعقوب وداوُد وإبراهيم (عَلَيْهِمُ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ)، المُسْلمين والنَّصارَى والْيَهُود يزورون أصحاب القبور ويفرِّقون الصدقات حولها. وامتدَّ الأَمر إلى استخدام الْيَهُود في الوظائف والأعمال المنتمية إلى فئة "أعمال التنفيذ" التي أجازت شريعة المُسْلمينَ استعمال غير المُسْلمينَ فيها، من أعمال الصرافة والجهبذة (الحسابات المالية) ورعاية مرافق الدَّوْلَة والتدوين بالدواوين، وكذلك كانت لهم حرية ممارسة التجارة، التي برعوا فيها وأسهموا من خلالها في إثراء اقتصاد الدَّوْلَة، كما مارسوا علم الفلك، وعلوم الطب والكيمياء، ومارسوا كذلك الترجمة وكتبوا في العلوم الإِنْسَانيَّة كالفلسفة والتاريخ، وكانت لهم حرية ممارسة البحث والتدارس في كتبهم المُقَدَّسَة وعقيدتهم، فكان منهم المفكرون الدِّينيُّون والأحبار وعلماء الْيَهُوديَّة كعقيدة وشريعة، وكانت لهم محافلهم ومدارسهم الدِّينيَّة وساحات نقاشهم وحوارهم...

لم يقتصر الأمر على الحرية فحسب، بل تعداها للمشاركة، فالتاجر الْيَهُوديّ كان له شركاء مسلمون، والمفكرون من الأديان المختلفة جرت بينهم المحاورات والمناقشات، وكان طبيعيًّا أن يتعلم يهوديٌّ الطب على يد مسلم أو العكس، والكتب التي ترجمها المترجمون الْيَهُود أفادت أبحاث بعض العلماء المُسْلمينَ في مجالات مثل الفلك والكيمياء وغيرهما من العلوم.

وخلال المراحل المختلفة للدولة الإِسْلاَميَّة، وعبر العهود المتتالية للحكام في شتى بلاد العرب والإِسْلاَم، كان من العاديّ أن يكون طبيب الخَليفَة أو كاتبه أو منجِّمُه بل ووزيره أحيانًا يهوديًّا، ما دام أبْدَى من الكفاءة والأمانة والإخلاص للدولة ما يجعله أهلا لمنصبه. ولمعت أسماء يَهُوديَّة في التاريخ العَرَبِيّ، كموسى بن ميمون في الطب والفلسفة، ويعقوب بن كلس في الوزارة (أسلم بعد ذلك)، وابن عوكل في التجارة، وابن كمونة في الرياضيات، وغيرهم.

الجانب السلبي الوحيد لهذا التفاعل تَمَثَّل في "الإِسْرَائيليَّات"، وهي القصص الخرافية المدسوسة على الموروث الإِسْلاَمي، سواء في شكل تفسيرات لآيات من القرآن، أو أحاديث نبوية، أو في شكل استنتاج لأمور سكت عنها النص الشرعي،. والسبب الرئيسي لدخول تلك الإِسْرَائيليَّات في الدين، كان فكر بعض الْيَهُود الذين اعتنقوا الإِسْلاَم وبقوا على الفكر الْيَهُوديّ الذي يربط تفسير الكتب المُقَدَّسَة بالأساطير ويعتبر القرآن امتدادًا للعهد القديم لا كتابًا ناسخًا له. والسبب الآخر هو أن بعض المفسرين المُسْلمينَ لم يلتزموا

الحذر وأخذوا من تلك الإِسْرَائِيلِيَّات في كتبهم، ولولا تَخَصّص بعض الفقهاء في الرد على تلك المدسوسات وتنقية الدين منها لكانت كارثة!

يهود العرب.. ويهود غيرهم:

ذلك الاندماج في نسيج الدَّوْلَة لم يكُن معناه فقْدَان الْيَهُود لذاتيّتهم وخصوصيتهم كأهل ديانة، لكنه كان وضعًا معتدلاً لفئة من الشعب، لها ما لها من حقوق وعليها ما عليها من واجبات، فلا هي فقدت شخصيتها المميزة، ولا هي انغلقت على نفسها، فالظروف ساعدت تلك الفئة على تكييف أوضاعها بحيث تُحتَرَم خصوصياتها وفي نفس الوقت لا تكون معزولة عن المجتمع والأحداث. تلك الظروف لم تكن متوفرة في دولة إلا دولة العرب، ولم تكن مكفولة تحت أي حكم سوى حكمهم، ففي باقي الدول، تحديدًا أُورُبَّا، كانت معاملة الْيَهُود تتفاوت حسب مزاج وسياسة الحاكم، فإن وجد مصلحة في إعطائهم "بعض" الحقوق فعل، وإن كان يرى فائدة من إثقالهم بالضرائب والمصادرة كان كذلك، وكانوا في كل الأحوال يعيشون معزولين كأقليات متذبذبة الأوضاع، فهم إما مُستَخدَمون في خدمة النبلاء الإقطاعيين لجمع الضرائب والديون من المواطنين، مما يجعلهم مكروهين من الشعب، وإما عرضة للاضطهاد وسلب الممتلكات وربما الحريات، مما جعلهم دومًا يعيشون بين نار الكره الشعبي وظلم الحكام.

ذلك الاضطهاد الأُورُبّيّ كان أحد أهم أسباب تعاون الْيَهُود مع الفاتحين العرب للأقطار الأُورُبّيَّة. في الأندلس مثلاً، كان الشعب بكل فئاته يعاني من حكم القوط، بالذات في عهد الملك القوطي الطاغية رودريكو، الذي هزمه طارق بن زياد وقتله عندما غزا الْمُسْلِمُون الأندلس. الجيش الإِسْلاَمي وجد تعاونًا شديدًا من يهود الأندلس، الذين بلغ تعاونهم حدَّ تكوينهم حاميات مسلحةً تحمي ظهر الْمُسْلِمين في غزوهم وتوغُّلهم في الأندلس، وتطوُّعهم للعمل أَدلاَّءَ للجيش الإِسْلاَمي وتَقديمهم كل أنواع العون للجيش وجنوده وقادته.. هذا التعاون كان نابعًا عن إدراك لأن حياتهم كرعايا في الدَّوْلَة الإِسْلاَمِيَّة هي الطريقة الوحيدة لأن ينالوا حقوقهم التي طالما سُلِبَت منهم من قِبَل ملوك أُورُبَّا.

الاضطهاد:

تكثر بين كتابات بعض الكُتاب المعاصرين، أُورُبِّيِّين يهودًا أو إِسْرَائيليِّينَ، اتهامات للعرب الْمُسْلمين قديمًا باضطهاد الْيَهُود والتضيق عليهم، رغم اعتراف نفس الكُتَّاب بأن عصر الدَّوْلَةَ الإِسْلاَمِيَّة كان العصر الذهبي لليهود، في تناقض مثير للدهشة. قائمة طويلة من الاتهامات بفرض الجِزْيَة الباهظة والحرمان من التعيين في وظائف الدَّوْلَة وفرض زِيٍّ معيَّن على الْيَهُود وكذلك فرض بعض القيود التعسُّفيَّة عليهم في الحياة والسكن والعبادة، إلى آخر تلك الاتهامات الواهية الرامية إلى نشر فكَرة "الشَّعب الْيَهُوديّ المضطهَد" بين العالم.

والحقيقة أن كل تلك الاتهامات محضٍ هراء، فالجِزْيَة لم تكُن يومًا باهظة، بل كانت مجرَّد مقابل مادي ضئيل للحماية، لم يكُن مفروضًا على سوى الذمي الذي يستطيع دفعه، وكان يُعفَى منه رجال الدين والنساء وكبار السن والمعاقون والفقراء، بل كان يصل الأمر إلى أن يأخذ فقراء الْيَهُود قُوتَهم من بيت مال الْمُسْلمينَ كما حدث في عهد عمر بن الخطاب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ). أما فرض زِيٍّ معيَّن على الْيَهُود فقط كان مسألة متفاوتة عبر العصور، وثمة آراء وجيهة تقول بأن الْيَهُود أنفسهم طلبوا عند فتح مصر أن يكون لهم زِيُّهم الخاصُّ بهم، كما أن الزِّيَّ في فترات طويلة قديمًا كان وسيلة تَعَرُّف الْهُوِيَّة، فكانت لكل فئة ملابس ذات طابع معيَّن لتميزها (قبل اختراع فكرة الأوراق الشخصيَّة)، ولم يكُن وسيلة للاضطهاد أو التمييز العرقي أو الدِّينِيّ. والوظائف -كما سلف الذِّكْر- لم تكن حكرًا على الْمُسْلمينَ، بل كان الْيَهُوديّ يصل أحيانًا إلى منصب كبير الوزراء، كالوزير ابن نرغيلة الْيَهُوَدِيّ الذي كان وزيرًا لأحد ملوك الأندلس خلال حقبة ملوك الطوائف.

هذا لا يعني أن الحقبة الإِسْلاَمِيَّة كلها مرت دون تَعَرُّض الْيَهُود، وأهل الذِّمَّة بشكل عامٍّ، لبعض صور الاضطهاد، فللأسف، تَعَرَّضوا جميعًا خلال بعض العهود لكثير من أشكال التضييق والإذلال، كعهد الحاكم بأمر الله الذي أحدث فيهم مذبحة كبيرة وأجبر بعضهم على اعتناق الإِسْلاَم قسرًا (تم السماح لهم بالعودة إلى دينهم بعد ذلك لأنهم أسلموا كرهًا وهذا مخالف للشرع)، وعهود بعض سلاطين المماليك التي كانوا خلالها عرضة للمصادرة وفرض بعض القيود العجيبة كأن يرتدي الذِّمِّيُّ أثقالا في عنقه لتجعله محنيَّ الرأس دائمًا، أو أن يكون محنيَّ الظهر ويرسم على وجهه علامات المسكنة عندما

يدفع الجزْيَة لمن يجمعها، إلى آخر تلك الأوامر التي نسبها البعض إلى عمر بن الخطاب زورًا وعدوانًا وظلمًا للفاروق الذي لم يكن ليأمر بتلك الأوامر الهزلية.

ومن السهل تفسير فترات الاضطهاد التي تَعَرَّض لها الْيَهُود خلال بعض فترات الحكم العَرَبِيّ، ففي عصر الحاكم بأمر الله مثلاً، شهدت البلاد حالة من "جنون الحاكم" أصابت الجميع دون تمييز، فهو متقلب الحال عصبيُّ المزاج مختلُّ الفكر، ومثله لا يُقاس على تصرفاته، وخلال العصر المملوكي كان السلطان أحيانًا فارسًا مملوكيًا أعجميًا لم يتلقَّ تعليمًا دينيًا كافيًا، واقتصر علمه على الإيمان بالله ورسوله وقرآنه والتعصب للإِسْلاَم، و لم يكُن المعلِّمون دائمًا بالكفاءة المطلوبة لتعليمه مبادئ العدل والإحسان، وبالتالي لا يمكن أن نعتبر مثل هذا الحاكم ممثلاً للموقف العامّ لحُكَّام المُسْلمينَ. أما عن الفترات المتفرقة التي تَعَرَّضوا فيها لعسف بعض الخلفاء والولاة فقد كانت حالات فرديَّة يُجمِع المؤرخون والفقهاء على أن ما أتى بها من تجاوزات في حقَ الْيَهُود، وأهل الذِّمَّة بشكل عامٍّ، مخالف للشريعة الإِسْلاَميَّة وسماحتها وللأوامر الصارمة بإحسان معاملة أهل الذِّمَّة.

كما أن لما جرى تفسيرًا آخر، هو أن معظمه جاء في فترة العصور الوسطى، حيث كان العالم يسوده جو من التعصُّب الدِّينيّ المقيت.. و لم يكن الاضطهاد حكرًا على يهود العالم العَرَبِيّ، فبينما كان في الدَّوْلَة العَرَبِيَّة حالة فردية لا يُقاس عليها، كان في أورُبَّا الكَاثُوليكيَّة منهج مقصود متعمَّد مستمرٌّ، وحتى هذا لم يكُن ضدَّهم فحسب، بل كان ضدَّ كل ما ليس كَاثُوليكيًا، وأكبر دليل على هذا هو أن الحملة الصَّليبيَّة على بيت المقدس شهدت مذابح بشعة في حق كل من المُسْلمينَ والمَسيحيِّينَ والْيَهُود، وأنه بعد سقوط الأندلس، تساوى المُسْلمُون والْيَهُود في الظُّلم والمذابح والتنصير الإجباري الذي قام به الإسبان في حقهم، وعندما تم طردهم طُردوا معًا، المُسْلمُون والْيَهُود، خارج أورُبَّا كلها.

تلك كانت الصورة المختصَرة للتفاعل الْيَهُوديّ العَرَبِيّ خلال الحكم العَرَبِيّ الإِسْلاَمي... كانوا منا.. لهم ما لنا وعليهم ما علينا.. فكيف تبدلت الأحوال؟ ومتى؟

مصادر المعلومات:

١- موسوعة الْيَهُود والْيَهُودِيَّة والصهْيَوْنِيَّة: د/ عبد الوهاب المسيري.
٢- اليد الخفية: د/ عبد الوهاب المسيري.
٣- الْيَهُود في شرق البحر المتوسط: د/ علي أحمد محمد السيد.
٤- حَضَارَة أورُبَّا العصور الوسطى: موريس كين.
٥- أسرار الْيَهُود المتنصرين في الأندلس: د/ هدى درويش.
٦- أهل الذِّمَّة في مصر: د/ قاسم عبده قاسم.
٧- الديانة الْيَهُودِيَّة وتاريخ الْيَهُود: د/ إِسْرَائِيل شاحاك.
٨- تاريخ يهود النيل: جاك حاسون.
٩- الجماعات الوظيفية الْيَهُودِيَّة: د/ عبد الوهاب المسيري.
١- الْيَهُود في العالم العَرَبِيّ: د/ زبيدة محمد عطا.
١١- يهود العالم العَرَبِيّ- دعاوى الاضطهاد: د/ زبيدة محمد عطا.
١٢- الأسطورة والحكاية الشعبية في العهد القديم: د/ كارم محمود عزيز.
١٣- صور من المجتمع الأندلسي: د/ سامية مصطفى مسعد.
١٤- عامة القاهرة في عصر سلاطين المماليك: د/ علاء طه رزق.
١٥- تاريخ الشعوب الإِسْلاَمِيَّة: كارل بروكلمان.
١٦- البداية والنهاية: ابن كثير.
١٧- أحكام أهل الذِّمَّة: ابن قيم الجوزية.
١٨- الأحكام السلطانية: أبوالحسن الماوردي.
١٩- مواطنون لا ذميون: فهمي هويدي.
٢٠- فجر الإِسْلاَم: أحمد أمين.
٢١- تاريخ المُسْلمينَ في الأندلس: د/ محمد سهيل طقوش.
٢٢- تاريخ الفَاطميّين: د/ محمد سهيل طقوش.
٢٣- تاريخ ضائع: مايكل مورجان هاميلتون.

نحن وأَبْنَاء الْعَمّ إِسْرَائيل – الختام

لقد عشنا معًا، وبنينا الدَّوْلَة معًا، فما الذي تَغَيَّر؟ لماذا أصبح الشَّكُّ يسارع إلينا فور سماع اسمهم، ويغزوهم الخوف عند ذكرنا؟ هل من لحظة محدَّدة تغيَّرت فيها النفوس، أم أن الأمر عبارة عن تراكمات ورواسب وجدت مكانها في دواخلنا ودواخلهم عبر مئات، أو لنقُل آلاف السنين؟ عن ذلك الميراث المظلم من العداء، عن أَبْنَاء الْعَمّ وما إذا كانوا بالفعل أَبْنَاء العم، نتحدث!

نحن الآن في العام التاسع بعد الألف الثانية من ميلاد السيد المسيح (عَلَيْهِ السَّلاَم)، وفي العام الواحد والستين من وجود دولة اسمها "إِسْرَائِيل" تتوسط عالمنا الْعَرَبِيّ وتعتبر نفسها الممثِّل الرسمي الوحيد ليهود العالم، تلك الفكرة التي –للأسف– وجدت قبولاً توارثه معظم العرب، ذلك "المُعظَم" الذي وضع إِسْرَائِيل والْيَهُود والصهاينة في سلة واحدة.

والحقيقة أنْ ليس كلُّ يهوديٍّ صهْيَوْنيًا، ولا كل يهوديٍّ إِسْرَائيليًا، ولا كل صهْيَوْني إِسْرَائِيليًّا. فالمنطق السليم الذي يرفض فكرة وجود دولة واحدة ممثلة لكل مسلمي العالم أو أخرى تمثل كل مَسيحيِّيه، هو ذات المنطق الذي لا يبتلع فكرة أن تكون إِسْرَائِيل هي الممثل الوحيد ليهود الأرض، فبغضِّ النظر عمَّا تدَّعيه هي، يبقى الأمر الواقع هو الفيصل، والأمر الواقع يقول إنه يوجد عدد ضخم من الْيَهُود الذين لا يتقبلون لا وجود دولة يَهُودِيَّة

ولا حتى فكرة الصهْيَوْنيَّة نفسها لأسباب إما دينيَّة تؤمن أن الشتات مصير أبدي لليهود ولا يجوز منعه، وإمَّا إنْسانيَّة ترفض الفكرة الاحتلالية الاستعمارية للدولة العبْريَّة، كما أن نسبة ضخمة، تتزايد يوميًّا، ممَّن يحملون الجنسية الإِسْرَائيليَّة ويعيشون في إِسْرَائيل، ليسوا يهودًا أو هم يهود علمانيون أو حتى لا دينيون (الأمر الذي يتعارض مع الطبيعة الْيَهُوديَّة الأصولية المتشددة التي تدَّعيها إِسْرَائيل لنفسها)، والفترة التاريخية الوحيدة التي كان يمكن فيها لدولة يَهُوديَّة أن تعتبر نفسها الجامعة لكل يهودي على ظهر الأرض هي فترة المملكة الْيَهُوديَّة التي قامت على أرض فلسْطين على يد طَالُوت وخلفائه داوُد وسليمان (عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ)، وخلفائهما حتى الخراب الأول على يد الْبَابليِّينَ، وهذا لأنها كانت بالفعل تجمع كل يهود العالم، حيث لم يكن الْيَهُود قد تشتتوا بعد من الأساس، أما الدول الْيَهُوديَّة الثلاث في الفترة بين الغزو الْبَابليّ وقيام إِسْرَائيل سنة ١٩٤٨م، فلم تكن دولاً يَهُوديَّة في الأصل، بل كانت تنحدر من أصول غير يَهُوديَّة ثم اعتنقت الدين الْيَهُوديّ، وبالتالي لم يحدث أن ادَّعت إحداها لنفسها الحقَّ في رعاية كل الْيَهُود في العالم القديم، وأي مساندات منها ليهود دولة أخرى، أو محاربة لشعب آخر باسم الْيَهُوديَّة، كانت لأسباب سياسية تتعلق بمصالحها في المقام الأول. بالتالي فإن فكرة "دولة إِسْرَائيل التي تمثل يهود الأرض" تحتاج إلى إعادة نظر!

ولننظر معًا في تواريخ تلك الدول لنتأمل ونفكر في مدى يهوديتها وتمثيلها لليهود.

– إمارة حدياب:

هي إمارة قامت في شمال العراق في القرن الثاني قبل الميلاد، وكان معظم أهلها ينحدرون من أصول أرمنية. في عهد ملكها إبراط الثالث اعتنق الملك، والأسرة الحاكمة، الْيَهُوديَّةَ على يد بعض تجار الْيَهُود. تلك الأسرة بقيت في الحكم لمدة ثمانين سنة حتى غزاها الرُّومَان في عهد الإِمْبرَاطُور تراجان. وقد ساندت ثورة مملكة الْيَهُود في فلسْطين على الرُّومَان بين عامَي ٦٩ و٧٣م و لم يكن ذلك عن انتماء عرقي للشعب الْيَهُوديّ بل كان مجرَّد تعاطف ديني متبادَل، يمكن أن يحدث بين أتباع أي ديانة، ثم إن الحدياييِّن قد اعتنقوا المَسيحيَّة بعد ذلك، ثم من بعدها الإِسْلاَم، أي أن انتماءهم الْيَهُوديّ كان طارئًا.

دولة حمْيَر:

قامت تلك الدَّوْلَة قبل ظهور الإِسْلاَم في اليمن الذي كان، بطبيعته الجغرافية، يسيطر على مدخل التجارة القادمة من الهند إلى جزيرة العرب. وقد اعتنق ملكها "زرعة ذو

نواس" الْيَهُودِيَّة وسمَّى نفسه "يُوسُف" كان لانتشار الْيَهُودِيَّة في اليمن أسباب عدة، فمن ناحية كان بها عدد من الْيَهُود الفارِّين من اضطهاد الرُّومَان في فلسْطين، الذين قاموا بتشجيع انتشار دينهم في تلك المنطقة سعيًا في تقوية علاقاتهم بحكامها لخدمة مصالحة التجارية. الحِمْيَرِيُّون من جانبهم اعتنقوا الدين الْيَهُوديّ لأسباب سياسية، فلأهمية موقع دولتهم، كانت المنافسة بين الأحباش والفرس والبِيزَنْطِيُّونَ على السيطرة عليهم، وكان المبشرون المسيحيون من كل من الحبشة وبِيزَنْطَة يجوبون بلادهم لنشر الدين الْمَسيحي إما على مذهب قيصر الروم وإما على مذهب نجاشي الحبشة، فوجدوا أن الحل هو اعتناق دين لا ينتمي إلى هذا ولا إلى ذاك، حتى لا يكون اعتناقهم الدين الْمَسيحي ذريعة لإحدى الدولتين المسيحيتين للتدخل في شؤون اليمن. وعندما قام يُوسُف ذو نواس باضطهاد النَّصَارَى ومصادرة أملاكهم وإيقاع المذابح في حقِّهم، لم يكن ذلك دفاعًا عن الْيَهُودِيَّة بل كان في الأساس محاربة لفكرة أي وجود مَسيحي في مملكة يخشى من تدخل مستقبلي للمملكتين المسيحيتين، الحبشة وبِيزَنْطَة، فيها بحُجَّة رعاية مصالح الْمَسيحيِّينَ. وكانت نهاية تلك الدَّوْلَة السقوط على يد الأحباش الذين قاموا بغزوها متخذين من نصرة إخْوَانهم في الدين ذريعة. أي أن الأمر كله كان سياسيًّا لا دينيًّا و لم يكن ذو نواس مؤمنًا بالْيَهُودِيَّة بقدر ما كان مؤمنًا بفكرة محاربة الطامعين في ملكه.

دولة الخزر:

الخزر شعب تركي الأصل عاش في منخفض الفولجا جنوب روسيا، وكانوا أولاً يومنون بالديانة الشامانية القائمة على الاعتقاد في الشامان (الساحر) ثم اعتنقت أسرتها الحاكمة الدين الْيَهُوديّ في القرن الثامن الميلادي لنفس أسباب الحِمْيَرِيِّين، فقد وقعت دولتهم بين كل من البِيزَنْطِيِّينَ الأرثوذكس والعرب الْمُسْلمين، وكان وضعهم كدولة وَثَنِيَّة معرَّضة للحملات التبشيرية الْمَسيحيَّة أو الدعاة الْمُسْلمين يؤرِّقهم، كما كان اعتناقهم أحد الدِّينَيْن يعني تبعيتهم لقيصر بِيزَنْطَة أو الخَليفَة الأُمَوِيّ، ممَّا جعل مَلكَهم بولان يفضِّل اعتناق الْيَهُودِيَّة ليقطع طريق الدعوات الدِّينيَّة أو السيطرة الروحية لهذا أو ذاك. وقد تَرَتَّب على هذا انتقال أعداد كبيرة من يهود بِيزَنْطَة إلى دولة الخزر هربًا من اضطهاد الروم. تلك الدَّوْلَة وقفت دائمًا حاجزًا أمام هجمات الْمُسْلمينَ على الدَّوْلَة البِيزَنْطِيَّة، ممَّا جعلها تصطدم بهم أكثر من مرة، وعُرِفَت بالقوة والصلابة حتى انهارت على يد الروس في بداية القرن الحادي عشر الميلادي ثم بعد ذلك أجهز المغول عليهم تمامًا ممَّا دفعهم إلى الهجرة والتفرُّق في دول أُورُبَّا الشرقية حيث كوَّنوا جماعات بشرية أطلقت فيها الطبقة

الخزرية المثقفة على نفسها لقب "أشكناز"

تلك الدَّوْلَة كما هو واضح، كانت مجرَّد تكرار للنموذج الحِمْيَريّ اليمني، في اعتناق الدين لا لذاته بل لأسباب سياسية بحتة واتجاه الهجرات اليَهُودِيَّة إليها، لم يكن إيمانًا بفكرة الوطن القومي لليهود بل كان فقط من أجل الفرار من بطش الروم، بدليل أن اليَهُود العرب لم يقوموا بهجرات مماثلة.

الحجة الكاذبة:

إن النظرة المدققة إلى تلك النماذج الثلاثة تجعلنا ندرك حقيقة أن فكرة وجود دولة مسؤولة عن ضمّ يهود العالم هي فكرة بالغة السذاجة والحداثة. صحيح أن التفكير في توطين اليَهُود في أرض فِلَسْطين -أو غيرها- فكرة بالغة القدم (سنة ١٥٧٠م شجّع يهود الدَّوْلَة العثمانية السلطان سليمان القانوني على غزو قبرص رغبة منهم في جعلها وطنًا لهم)، لكن صياغة تلك الفكرة في شكل مبادئ أو قواعد لم يتمّ إلا في أواخر القرن التاسع عشر على يد تيودور هرتزل (١٨٦٠-١٩٠٤) مؤسِّس مبادئ الصهْيَوْنيَّة، و لم تجد تصرفًا رسميًّا يؤيِّدها إلا وعد بلفور سنة ١٩١٧م بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسْطين. وبين الصياغة والوعد مرت فترة من النقاش بين الأطراف المعنية حول المكان المَناسب للدولة اليَهُودِيَّة المزعومة، هل يكون سيناء أم فلسْطين أم الأرجنتين أم أوغندا! ثم بدأت حركة الهجرة وقامت الدَّوْلَة سنة ١٩٤٨م، أيَ أن الأفكار والأحداث المنشئة لإِسْرَائِيل جرت بشكل أسرع من المتوقع من دولة تسعى لأن تكون وطن يهود العالم وممثلهم الحصري، ممَّا يؤكد كذب تلك الحجة!

إن السبب الواضح والمباشر لهذا الادِّعاء الإِسْرَائِيلي هو الرغبة في التأثير أولاً في يهود كل دولة وتشجيعهم إما على الهجرة وإما على إرسال الدعم، أو التأثير على من يؤمنون بنظريات من نوعية "إعادة الشعب اليَهُوديّ إلى أرض أجداده"، سواء كانوا يهودًا أو غير يهود، وكذلك موافقة هوى أعداء اليَهُودِيَّة ممن ينادون بـ"التخلص من هؤلاء اليَهُود وإخراجهم من بلادنا ليعيشوا في بلد واحد يجمعهم ويريحنا منهم"! وكلها أمور تصبّ في مصالح إِسْرَائِيل. ومن ناحية أخرى فإن الدول التي أيّدَت قيام إِسْرَائِيل وقدّمت لها الدعم تتعامل معها باعتبارها "دولة وظيفية"، أي "دولة موجودة في منطقة ما لتحقيق أهداف ما لتلك الدول الداعمة ويجب الاستمرار في مساندتها ما دامت تحقق تلك

الأهداف بنجاح"، أي أن الأمر -ببساطة- عبارة عن صفقة كبرى رابحة للمؤمنين حقًّا بالصهيونيَّة (العودة للحياة في فلسطين حول جبل صهيون)، ولكارهي اليَهُود لأسباب عنصرية، وكذلك من الذين ينتظرون من الدَّوْلَة الإسْرَائيليَّة تحقيق أهدافهم ومطالبهم، ولا ننسى الفئة القليلة من الذين يحملون شعورًا بالتعاطف والذنب تجاه "الشعب المسكين الذي عاش قرونًا في اضطهاد وظلم وشتات شارك فيه أجدادنا، لهذا يجب أن نمحو العار بدعمهم"! تلك الفئة الأخيرة التي تلعب إسْرَائيل على أوتار مشاعرها ببراعة!

هل هم حقًّا أبْنَاء العم:

هذا سؤال يجب أن نطرحه على أنفسنا قبل أن نطرحه عليهم. فبشكل بسيط، على من يطالب بحق "العودة إلى أرض أجداده" أن يثبت صلته بهؤلاء "الأجداد"

تعالوا نتأمل معًا: أبْنَاء إسْرَائيل هاجروا إلى مصر أيام يُوسُف (عَلَيْه السَّلاَم)، واختلطوا بالمْصْرِيّين، وليس من المستبعَد أن يكونوا قد تزوجوا منهم وأنجبوا، ثم خرجوا منها مع موسى (عَلَيْه السَّلاَم) وعاشوا في التِّيه ٤٠ عامًا دخلوا بعدها أرض فلسْطين وأسَّسوا مملكتهم، ومن الثابت في كتبهم المُقَدَّسَة والتأريخية أن كلاً من داوُد سليمان (عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ) كانت له زوجات أجنبيات، ثم دارت الأيام وجاء السَّبْي البَابِليّ حيث انتقل آلاف اليَهُود قسرًا إلى بابل وعاشوا فترة طويلة حدث فيها اختلاط بالشعب البَابِليّ بلغ أحيانًا حدَّ التزاوُج، بينما فرَّ الذين نجوا من البَابِليّينَ إلى قلب الجزيرة العَرَبِيَّة حيث عاشوا في يَثْرِب وخيبر وتيماء واليمن وغيرها من البلاد، ولا يوجد ما ينفي وقوع مصاهرات بينهم وبين العرب، بل إن من الثابت أن نساء يَثْرِب العَرَبِيَّات كُنَّ أحيانًا ينذرن إن عاش لهن ذكر أن يَتَهَوَّد ويعيش مع اليَهُود! وفي اليمن -كما قلنا- تهودت نسبة كبيرة من الشعب اليمني، وعندما سقطت بابل على يد فارس قام الملك الفَارِسِيّ قورش بتحرير اليَهُود ومنهم من انتقل للحياة في فارس بينما عاد آخرون إلى فلسْطين. ودارت الأيام وجاء الإغريق ثم البطالمة والسلوقيُّون والرُّومَان فالعرب، ولا ننسى دولتَي الخزر وحدياب.

ولننظر أيضا إلى الفئات الأساسية الأكثر شهرة في إسْرَائيل: الأشكناز، السفرديم، والفلاشا:

الأشكناز هم بقايا الخزر الذين هربوا من الهجمات الروسية والمغولية إلى أُورُبَّا حيث كونوا جماعات بشريَّة فيها ومنهم من أكمل طريقه إلى فرنسا وإنجلترا وغيرها من البلاد

(وتُعتبر أكبر فئة من المهاجرين الأوائل إلى فلسْطين بدعوى إنشاء الوطن القومي).

والسفرديم معظمهم من الْيَهُود الذين عاشوا في ظل العرب في الأندلس ثم تم تنصيرهم قسرًا أو طردهم بعد سقوط غرناطة في يد الإسبان.

والفلاشا أصولهم تعود إلى بعض الأحباش الذين تهودوا في عصر ما قبل الإسْلَام تأثرًا بانتشار الْيَهُودِيَّة آنذاك في اليمن.

أي أن الفئات السكانية الأساسية في الدَّوْلَة التي تدَّعي أنه عبارة عن "عودة الْيَهُود إلى أرض الأجداد" هي فئات لا عَلاَقة لها بهؤلاء الأجداد من بعيد ولا من قريب، وبالتالي هم ليسوا بالمرة أَبْنَاء العم.

لماذا؟:

فلنكرِّر ما سبق أن قلناه، أنْ ليس كل الْيَهُود أعداءنا، ما دام ليس كل يهودي صِهْيَوْنِيًّا (بل إن بعض الصهاينة غير يهود). عدونا وخصمنا هو كل شخص يدَّعي حقًّا لأي غريب في أرض ملك لنا، مهما كان دينه أو عرقه أو جنسيته. واعتبار الْيَهُوديّ، أيًّا كانت جنسيته، الذي جاء من بلاده لاحتلال بلادنا عدوًّا لا يكفي، فينبغي فهم دوافعه ومبرراته، ليس فقط تلك التي يدَّعيها، بل أيضا تلك التي يؤمن بها في قرارة نفسه.

و"لماذا" هذه إجابتها تطول وتحتاج إلى عشرات الأبحاث والتحليلات، فالأسباب أبسطها الاقْتِصَاديّ والنفعي، كسوء الأحوال المعيشية لبعض الْيَهُود في بلدانهم الأصلية، الأمر الذي يدفعهم إلى هجرها إلى بلد جديد بحثًا عن فرص جديدة، ومنها الدِّينيُّ كإيمان بعض الطوائف الْيَهُودِيَّة بفكرة أن الْيَهُوديّ الحقيقي هو الذي يعود إلى الأرض التي وعد الله بها أباهم إبراهيم (بينما تقضي طوائف أخرى بتكفير أي يهودي يعود إلى أرض الميعاد قبل نزول المشيحا المنتظر)، أما أصعب الأسباب تحليلاً فهي تلك المتعلقة بالميراث النفسي لنسبة ضخمة من يهود العا لم تؤمن بأن الْيَهُود هم الشعب المختار الذي تحقد عليه الشعوب وتسعى لتدميره. تلك الفئة التي تكوّنت البذرة الأولى لفكرها في فترة السَّبْي الْبَابِليّ وترعرعت ثمرته عبر قرون من قسوة الرُّومَان في فِلسْطين واضطهاد الكاثوليك في أُورُبَّا العصور الوسطى، وظلم القياصرة في روسيا وأُورُبَّا الشرقية ومعتقلات هتلر في الحقبة النازية. فئة صنعت لليهود إِلَهًا اسمه "الخوف من الآخَر" وجعلت من الخوف محرِّكًا ودافعًا لكل تصرفاتها، بل وسلاحًا في مواجهة من جعلت منهم أعداءها، بشكل خلق أكبر عقدة نفسيَّة في التاريخ، وقبل أن تكون هذه جريمة من هذه الفئة من الْيَهُود

في حقَ الشعوب، كانت جريمة في حقَ باقي الْيَهُود، بالذات أولئك الذين كانوا يعيشون في سلام كعرب تحت حكم عَرَبِيّ عادل. فالذين نشروا تلك الأفكار العنصرية عن معاداة العالم لليهود لم يفرقوا بين دول وممالك أُورُبًّا التي كان فيها الْيَهُود عرضة للمصادرة والتضييق في العبادات وحتى التقديم لمحاكم التفتيش والتنصير الإجباري، وبين العرب والْمُسْلمينَ الذين كان الْيَهُوديُّ يعيش بينهم كواحد منهم. فبينما كان الْيَهُوديّ المتنصر إجباريًّا في إسبانيا يُلَقَّب بـ"مارانو" —وهو لفظ يحمل معاني مهينة منها "الخنزير"— كان الْيَهُود المهاجرون من بطش الإسبان إلى تركيا يجدون الترحيب والرعاية والسماحة الدِّينيَّة تحت حكم السلطان سليمان القانوني. وفي العصر الحديث، كان يهود مصر والشام والمغرب العَرَبِيّ يعيشون مواطنين في بلادهم سواءً بالْمُسْلم والْمَسيحيّ، بينما كان هتلر يسوقهم زمرًا إلى معتقلاته الوحشيَّة (اضطهاد هتلر لليهودَ وقع بالفعل لكن الاختلاف كان في أعداد من اضطهدهم لا في وقوع الاضطهاد نفسه).

ذلك الإيمان بفكرة "معاداة الأغيار لكل الْيَهُود" التقت بكل من رغبة بعض الدول في التخلص من الجماعات الْيَهُوديَّة بها، وسعْي دول أخرى للاستفادة الدائمة من وجود مخلب قط لها في قلب الدول العَرَبيَّة لخدمة مصالحها، فكان من الطبيعي أن تعمل تلك الدول على تقوية فكرة "أرض الميعاد حيث الأمان لكل يهود العالم"، سواء بالدعاية أو بتقديم الدعم المادي أو حتى اضطهاد رعاياها الْيَهُود لإجبارهم على الهجرة.

هذه كانت —وما زالت— قصتنا مع أَبْنَاء العم.. الذين ليسوا أَبْنَاء عم.. والحمد لله أنهم ليسوا كذلك، فلو كانوا، مع عداوتهم لنا ودعاياتهم ضدنا وتشنيعهم علينا، أَبْنَاء عمومتنا، لثبت بالفعل أن الدم يمكن له أن يصير ماءً.

مصادر المعلومات:

١- موسوعة الْيَهُود والْيَهُودِيَّة والصهْيَوْنِيَّة: د/ عبد الوهاب المسيري.
٢- الْيَهُود في العالم العَرَبِيّ: د/ زبيدة محمد عطا.
٣- أساطير الْيَهُود: لويس جنزبرج.
٤- اليد الخفية: د/ عبد الوهاب المسيري.
٥- الجماعات الوظيفية الْيَهُودِيَّة: د/ عبد الوهاب المسيري.
٦- الصهْيَوْنِيَّة والنازية ونهاية التاريخ: د/ عبد الوهاب المسيري.
٧- الْيَهُود في تاريخ الحضارات الأولى: جوستاف لوبون.
٨- تاريخ الْيَهُود في بلاد العرب: د/ إِسْرَائِيل ولفنسون.
٩- أسرار الْيَهُود المتنصرين في الأندلس: د/ هدى درويش.
١٠- الديانة الْيَهُودِيَّة وتاريخ الْيَهُود: د/ إِسْرَائِيل شاحاك.
١١- تاريخ يهود النيل: جاك حاسون.
١٢- شتات الْيَهُود الْمِصْرِيِّين: جوئل بنين.
١٣- البداية والنهاية: ابن كثير.
١٤- جزيرة العرب قبل الإِسْلاَم: برهان الدين دلّو.
١٥- موسوعة تاريخ العرب: عبدعون الروضان.
١٦- الدَّوْلَة العثمانية: د/ محمد سهيل طقوش.

هذا الكتاب - بكل صراحة - ليس موجّهًا في الأساس إلى قارئ التاريخ المحترف، ولا للباحث الأكاديمي المحنك، بل هو موجه في المقام الأول للشاب الذي يخطو أولى خطواته متحسسًا طريقه في القراءة والبحث في التاريخ، ويعوقه ما هو شائع -ظلمًا- عن هذا المجال الممتع من أنه كئيب ممل مزدحم بالمعلومات الثقيلة على العقل، وهي للأسف شائعة منتشرة بشكل أدى إلى حقيقة مؤلمة هي أن نسبة ضخمة من شبابنا تنقصهم أبسط المعلومات عن تاريخنا وتواريخ الأمم المحيطة بنا والمتفاعلة معنا عبر القرون. فضلاً عن نسبة أخرى ليست بالأقل تم «حشو» التاريخ في عقول أبنائها بشكل تلقيني سطحي مليء بالمغالطات والقوالب الجامدة والصور النمطية، دون أدنى محاولة لجعل مجال التاريخ مادة محركة للذهن ومستفزة للعقل للبحث والتمحيص والاقتناع -فقط- بما يقبله عقل القارئ أو المتلقي للمعلومات.

والحمد لله أن لدينا بين كتاب التاريخ المصريين والعرب من جعلوا مهمتهم تحريك العقول لا حشوها من خلال عرضهم وتحليلهم التاريخ القديم والحديث بشكل محايد سلس يحترم عقل القارئ، أذكر من هؤلاء الدكتور عبد الوهاب المسيري، والدكتور جلال أمين، والدكتور قاسم عبده قاسم، والدكتور جمال بدوي، والأستاذ جمال الغيطاني، والأستاذ محمد حسنين هيكل، والدكتور حسين مؤنس، وغيرهم ممن أثروا ثقافتنا العربيّة بالعديد من الكتابات التاريخية التي احترمت القارئ فاكتسبت واكتسب أصحابها احترامه.

في هذا الكتاب «تاريخ شكل تاني» أحاول أن أقلب بعض صفحات التاريخ مع القارئ الشاب، محدثًا إياه لا ككاتب مخضرم يجلس وراء مكتبه ويلقي محاضرة، بل كشاب مثله (يقاربه في العمر) لم يفعل سوى أن قرأ أكثر منه قليلاً في التاريخ، وأعمل ذهنه لقراءة ما بين سطوره ليخرج في النهاية بهذا العمل البسيط الذي أرجو أن ينطبق عليه جزء من عبارة العلامة أحمد أمين: «إن الكتاب الجيد هو الذي تشعر بعد قراءته أنك إنسان أفضل، وأنك قد أضيف إليك الجديد».



وليد فكري، كاتب مصري سكندري من مواليد ١٩٨٠.. تخرج في كلية الحقوق - جامعة الإسكندرية.

تفرغ للكتابة وهو يكتب بمجلة "بص وطل" الإلكترونية منذ بداية عام ٢٠٠٩ وحتى لحظة كتابة هذه السطور. كما يمارس البحث التاريخي بصورة حرة. يكتب في مجالات أخرى كالشأن السياسي الداخلي، والشأنين الإيراني والإسرائيلي.

تصميم الغلاف أحمد مراد




روائع مجلة
الابتسامة
من الكتب
المعالجة
والصفحات الفردية